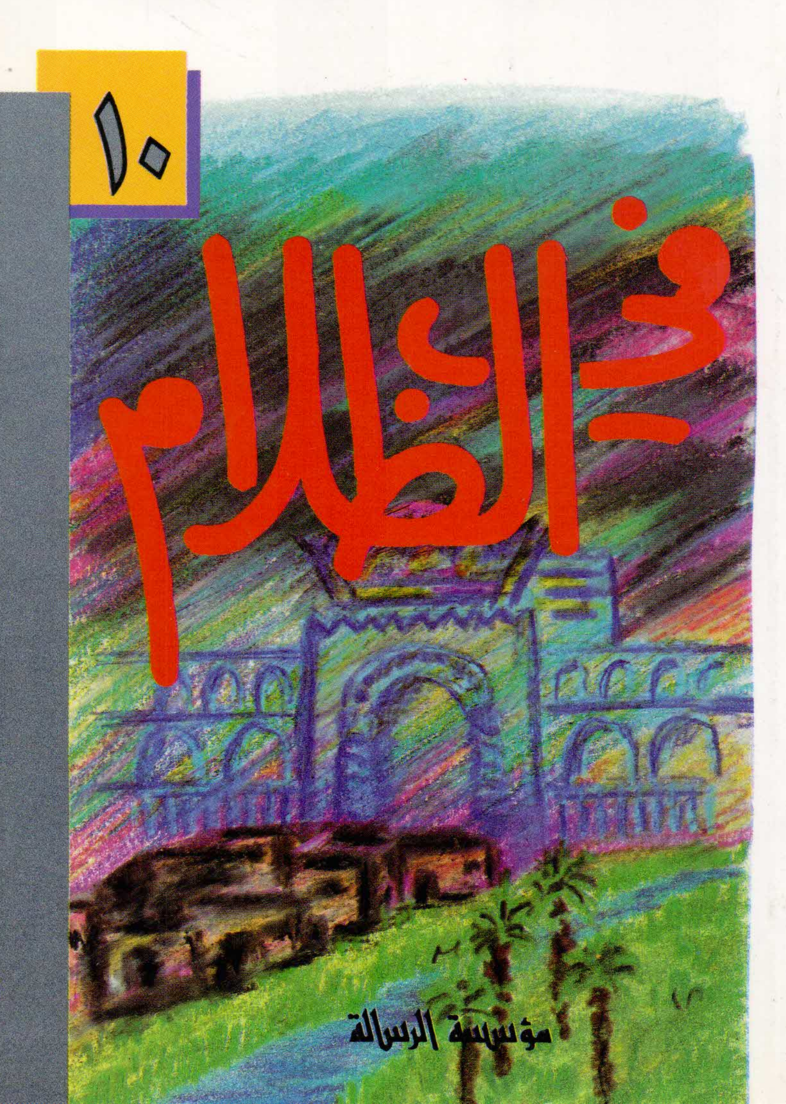
روايات

نجيب الكيلاني



تطلب جميع منشوراتنا من:
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ص.ب ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

فى الظـــلام

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة
١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

فى الظلام

القصة الفائزة بجائزة وزارة التربية والتعليم

الدكتور نجيب الكيلاني

مؤسسة الرسالة



فى الظلام !...

كان الطريق موحشاً رهيباً !...

وكان الظلام يلقي ظلاله الكئيبة على كل شيء !...

وكان الأحرار يقاسون الأهوال فى داخل الأسوار وخارجها !...

إن الفترة ما بين ١٩٤٧ – ١٩٥٢ م ، التي دارت فيها أحداث هذه القصة الكفاحية العاطفية ؛ فترة اهتزاز فى القيم ، واضطراب فى المفاهيم ... وارتباك فى شتى الشئون السياسية والاجتماعية والوجدانية ... فترة قلق وحيرة !...

لكن الحقيقة الكبرى الناصعة هي أن الشعب كان مصرًا على النصر ، لهذا أخذ يتلمس كل طريق ، ويلهث بحثاً عن النور ... عن حياة أفضل ؛ فقد مل العيش « في الظـــلام » !...

الفصل الأول

حينما اقترب « فريد الحلوانى » من منزله ، الذى يقع فى زقاق ضيق ، لاحت له أعواد القطن والأحطاب الجافة ، وهى تظلل الزقاق ؛ وكأنها فى تراخيها وقدمها وكثافتها تحاول أن تحجب ضوء الشمس المتسلل إلى الأرض ؛ وكان الزقاق يكاد يكون خالياً من المارة ، اللهم إلا بعض الخرفان والماعز التى ترقد على المصاطب وجوار الحيطان الجرباء فى تراخ وكسل وهى تحرك فكيها ، وبعض الأطفال وقد جلسوا يخططون فى التراب ويقيمون فيه قنوات صغيرة ، ويقسمونه إلى أحواض تشابه إلى حد كبير ما يفعله آباؤهم فى الحقول ، وكان يصل إلى سمع « فريد » نقرات رتيبة من السهل تمييزها ؛ فهى كثيرة الحدوث فى كل بيت ، وما هذه النقرات إلا ضربات صادرة من أكف النساء ، وهن يخبزن أرغفة الذرة ، ويغمغمن ببعض الأغنيات الشعبية المعتادة !...

ودخل « فريد » البيت فلم يسمع لأحد صوتاً ، وسرعان ما رجح أن أمه « حميدة » لابد أنها ذهبت لمعاونة الجيران وهم يخبزون ؛ كما جرت العادة بذلك !...

ولكنه سمع حركة قريبة منه ، وتأوهاً مكتوماً ، وأنفاساً ثقيلة لاهثة . فأرسل نظراته عبر القاعة ، ذات الفرن الموجودة على يمين الداخل ، وكانت قليلة الضوء شبه مظلمة ، فلمح شبح أمه « حميدة » وهى راقدة تتقلب من جنب إلى جنب ، ويبدو فى حركاتها التعب والألم ، فصاح :

— من ؟ ... أمى ؟...

فردت عليه فى جهد ومشقة :

— أجل ، تعال يا « فريد » .. تعال هنا بجانبى يا حبيبى !...

فسارع إليها « فريد » فى لهفة وقلق :

– ما بك ؟؟ هل أنت مريضة ؟؟...

فقالت وهى تتصنع الهدوء والابتسام :

– أبداً، إن رأسى مصدع ، وقليل من المغص بسبب المرارة الملعونة !...

وحاول « فريد » أن يتكلم ، ولكنها عاجلته قائلة :

– أصحيح أنك ستسافر إلى القاهرة غداً ؟...

فأمسك « فريد » بيدها الجافة بين يديه فى وداعة وحنان ، ورمق التغضنات والتقلصات التى رسمها الألم على وجهها ، وتذكر مهمات السفر والنشاط الخطير الذى يزاوله من زمن ، ثم قال فى رقة :

– دعينا الآن من مسألة السفر .. صحتك عندى أهم من كل شئ .. سأقوم لأحضر لك الدواء وكوب الشاى .. حتى تستريحى .. ثم نتكلم بعد ذلك ..

وهم « فريد » بالقيام ، ولكن أمه جذبته من ردائه الأبيض وقالت :

– اجلس يا «فريد» .. أريد أن أتكلم معك قليلا .. إن نوبة الألم أوشكت أن تنتهى ولا داعى للأدوية .. الشافى هو ربنا يا ولدى .. والآن تأمل فى يدى هذه .. انظر كيف جفت ورقت من كثرة استعمالها فى غسل ملابس الناس .. كنت أعمل غسالة .. أنسيت حينما كانوا يقولون « حميدة الغسالة » يا « فريد » ..؟؟ كل هذا كان من أجلك .. من أجلك أنت ..

وظهر التأفف والضيق على وجه « فريد »

– ما مناسبة هذا الكلام الآن يا أمى ..؟ الإنسان منا ابن اليوم ..

– وابن الماضى يا « فريد » أيضاً ، بل وابن المستقبل .. والأيام يا ولدى سلسلة واحدة ، ولو فصلت حلقـــة من هذه السلسلة لتمزقت أواصر هذه الوحدة ..

– يا أمى دعك من أشباح الماضى ، إنها مخزية ومخيفة فى نفس الوقت ..

ولماذا نرهق أنفسنا بما فات ..؟؟ إننا بهذا نبحث عن الآلام ، ونلهث في طلب المتاعب !..

— على العكس يا حبيبي ، ليست ذكرى الماضي مجرد متاعب وآلام بل كانت فترات حلوة ممتعة .. صحيح كنت آتي في المساء وذراعاي لا أستطيع تحريكهما من أثر غسيل الملابس .. لكنني كلما تذكرت أن ذلك من أجلك ، وأنك جدير بكل تضحية ، كنت أستريح .. لم أكن أراك إلا ثمرة لكفاحي ، وتمثالا حيا لتعبي ونضالي مع الأيام .. وأنت ما زلت أمامي نفس الثمرة .. ونفس التمثال الحي !..

وعاودتها نوبة الألم — وإن كانت بدرجة أخف من ذي قبل — فتأوهت لكنها حاولت أن تقوم من مكانها لتشرب جرعة ماء من « قلة » مجاورة فسبقها إليها « فريد » .. وشربت واطمأنت على فراشها — أعني حصيرتها التي تنام عليها — وهمت بالكلام ، لكن « فريد » أسرع قائلا :

— أنا أعرف مدى جهودك ولا أنكرها ، وأدركت ما قاسيته طول حياتك .. بل وأكاد أحفظه عن ظهر قلب .. فلم تثيرينه من جديد ؟؟... أهنالك ما يدعو إلى ذلك ؟؟...

— طبعاً لأنك مسافر غداً ، مع أنك لم تكد تتم هنا في «شبرشابة» شهراً واحداً .. إنني أمني نفسي دائماً بهذه الأيام — أيام الإجازة — واحلم بها طول العام .. فاذا بك تريد أن تبترها وتسافر من جديد .. مع أني أعلم أن كلية الحقوق لم تفتح أبوابها بعد ، والمدارس كلها ما زالت مغلقة .. إن وجودك معي يملأ علي البيت .. ويفيض على قلبي بالسعادة والراحة حتى آلام الكبد والمرارة كلها تذوب ما دمت معي ... بل كلما ذكرتك ... لكن يظهر يا ولدي أنك تضن على أمك بأيام .. أيام قليلة تقضيها بجوارها .. اسمع يا « فريد » !... لا أريدك أن تسافر.

وسادت فترة صمت عميقة ، أطرق « فريد » خلالها إلى الأرض لا يدري ماذا يقول إزاء هذه العاطفة الجياشة من أمه ، ثم رفع رأسه وحملق في

وجهها عندما لمح دمعة تنحدر على خدها :
– ماذا حدث ؟؟.. أتبكين ؟؟...
– لم لا أبكى ؟؟ « ريحانة» أختك تزوجت ، وأنت لا تريد أن تبقى فى « شرشابة » ، وأبوك طول النهار يزاول عمله كنساً ورشا فى المدرسة مثل بقية زملائه فراشى المدارس .. وأخوك الكبير .. الله يرحمه ..
وهنا غلبتها عواطفها المفعمة فأجهشت بالبكاء حينما تذكرت ولدها الكبير – شقيق « فريد » – رغم أنه قد مات غريقاً من عدة سنوات ، حينما كان يشتغل عاملا فى شركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى !..
وسرت عدوى التأثر إلى « فريد » وأوشك أن تنهمر دموعه ، ولكنه تماسك وكبت عواطفه ، بينما استطردت أمه بصوت باك حزين :
– يوم أن أتوا به .. ياضنايا يا بنى .. ملفوفاً فى أقمشة ناعمة مخططة .. فى الكفن ، وحملوه يا ولدى .. شاباً كبيراً .. عريساً .. حملوه إلى القبر .. كنت أقول حينذاك .. « لم كل هذا يا رب ..؟؟ أنا مسكينة وأستحق رحمتك » .. ومات أخوك غريباً .. مات الله يرحمه ..

ورأى « فريد » أن الموقف فوق ما يحتمل ، ففكر أن يدع القاعة إلى الخارج ، حتى تهدأ مشاعره ، وتثوب إلى هدوئها وطبيعتها .. لكنه توقف واستجمع شجاعته ، واغتصب ابتسامة أضاءت فى وجهها الحزين ، وقال وهو يرفه عنها :
– اتركى هذه النغمة الحزينة .. أنت مؤمنة وموحدة بالله .. إن الله يعطى ويأخذ .. وهذه سنة الحياة .. اضحكى .. ابتسمى .. ما فات مات .. إن مرضك يحتاج إلى المرح والانبساط !...
– آه .. ليت ما فات يموت .. لكن لا فائدة .. الإنسان منا يمشى فى الحياة وكأنما يجر فى رجليه قيوداً ثقيلة ؛ كالتى يلبسها نزلاء السجون وهم يكسرون الحجر فى الجبل .. ولا مفر ..
– كفانا هذا القدر من الكلام .. المهم ستكونين مسرورة بسفرى هذا

لأنى لن أغيب طويلا .. أسبوعاً واحداً فقط وسيمر سريعاً .. لأن ناظر المدرسة الابتدائية التى أقوم بالتدريس فيها أرسل فى طلبى لأمر هام ، فلا مناص من تلبية طلبه .. وسأقبض مرتبى هذه المرة ، وإن شاء الله سأحضر لك هدية جميلة ... جميلة جداً ... وستكون مفاجأة سارة لك ... وسترين !...

— لى أنا ؟؟...

— طبعاً ، وهل عندى أعز منك يا أحب إنسانة لدى فى الوجود ؟ هاتى ... هاتى يدك أقبلها !...

ثم أهوى على يدها لثماً وتقبيلا فى إخلاص وحنين صادقين ، بينما ابتسمت هى فى راحة وسعادة ، وقد بدا عليها أن نوبة المغص ونوبة الحزن قد زالتا ، والواقع أن معانى الألم قد تتداعى ويأخذ بعضها برقاب بعض ، فاذا طاف بالروح أو بالجسد طارئ من ألم ، أو نازع من هم ، اجتمع ألم المغص ، على مرارة الثكل إلى جوانب كوارث الحياة ومتاعبها وتكون من هذا الخليط جو كثيب يوحى بالأسى والأسف ، وما أن انجلت هذه الموجة السوداء عن مجلسهما حتى داعبته أمه قائلة :

— ما هذه الهدية التى ستقدمها لى ؟؟...

— قلت لك إنها مفاجأة .. ولن أقول عنها الآن شيئاً ..

— و « نهيرة » ، ألا تحضر لها شيئاً ..؟؟

— أنا و « نهيرة » فداك يا حبيبتى ..

ثم أقبل عليها يقبلها فى جبينها .

— إننى أدعو الله أن يوفقك فى مرضاتها ، ويوفقها فى إسعادك .. هذا يوم المنى عندى .. كما أرجو أن تنتهى بسرعة من الكلية حتى تترك التدريس وتصير وكيل نيابة .

ثم نما إلى سمعهما صوت يقول : « يا ساتر .. يا أم فريد» مع خبطات على الباب ، فهب « فريد » من مكانه قائلا :

ـ والدى وصل ..
ـ أجل ، لكن ما سر تأخيره اليوم عن ميعاد الغداء ؟؟...
ـ الغائب حجته معه ...
ـ خذ يدى حتى أقوم وأحضر لكما الأكل ...
ودخل الحلوانى ...
وكان يلبس رداء من القماش الرخيص مخيطاً على الطريقة البلدية ، كما هو ظاهر من أكمامه الواسعة وطوقه الذى يظهر ملابسه الداخلية . وعلى رأسه طاقية صوف ، وضعها الحلوانى بحيث ترك جزءاً من شعره القصير من الأمام فوق الجبهة ، ولم يكن خافياً على الناظر ظهور الشعرات البيضاء التى تتخلل هذا الجزء البادى . ورغم ضيق عينيه ، وسحنته التى لوحتها الشمس ، واعتصامه بالهدوء فقد كان الحلوانى يوحى إليك إذا ما لقيته بالطيبة والاستسلام والرضى بالقضاء والقدر ، وقد ظل الحلوانى هكذا دائماً لا يحمل هما مخافة ما تأتى به الأيام فى المستقبل القريب أو البعيد، ولكن لوحظ أن الحلوانى قد زاد صمته وهدوءه بعد حادث الغرق الذى أودى بفلذة كبده الأكبر فى المحلة الكبرى .

والحلوانى يعمل فراشاً فى المدرسة الأولية بالقرية منذ سنوات عدة ، عرف خلالها بالأمانة والإخلاص فى عمله ، كما عرف بالحب والسهر على راحة أسرته ، فلم تحدثه نفسه فى يوم من الأيام أن يدخن أو يسهر فى أحد البيوت التى تتداول فيها المخدرات ، ولقد أحبه ناظر المدرسة ومدرسوها لأنه لم يتأخر مرة عن خدمة يطلبونها منه ، أو أى عمل يكلفونه به .

واستطاع الحلوانى بمرتبة الضئيل مضافاً إليه ما كانت تحصل عليه زوجته من غسل الملابس فى البيوت الميسورة مثل بيت حضرة الناظر والسادة المدرسين ، استطاع الحلوانى أن ينفق على ولده « فريد » حتى حصل على شهادة التوجيهية ثم التحق بكلية الحقوق . وأدرك « فريد »

مدى ما بذله والده ووالدته من أجله فسارع إلى الحصول على وظيفة مدرس فى إحدى المدارس الأولية بالقاهرة إلى جانب عمله كطالب فى الكلية ، حتى يخفف عنهما العبء ويمدهما بما زاد عن حاجاته من مرتبه :

وهكذا تركت والدته عملها فى البيوت الميسورة وبقى والده كما هو فى وظيفته . وتزوجت فى هذه الأثناء أخته ريحانة زيجة لا بأس بها وسارت الأيام على هذه الوتيرة ، « فريد » ينتقل من نجاح إلى نجاح ، والحلوانى بين بيته ومدرسته . أما « أخوات » ، جدة « فريد » لأبيه ، فهى ما زالت كعادتها من سنوات تبيع الترمس والحلوى الرخيصة والبطاطا المسلوقة على ناصية الشارع الرئيسى فى القرية .

وبعد تناول الغداء خرج فريد لشأنه بينما همس الحلــوانى فى أذن حميدة زوجته قائلا :

— هل سيسافر فــريد فعلا فى الغد ؟

— أجل إنه مصر

— هو حر يفعل ما يشاء :

فقالت حميدة فى حدة :

— طبعاً ، وماذا يهمك أنت ؟ لو تزحزح الجبل من مكانه لما حرك فى رأسك شعرة واحدة .. يا لقلبك القاسى .. ما هذا البرود الزائد عن الحد ؟ تحرك يا رجل .. أنت أبوه وإذا أمرته بشئ فلن يخالفك فيه .

فخلع الحلوانى جلبابه من شدة الحرارة وهو يبتسم فى طيبة وقال :

— ماذا جرى؟ لم يعد فريد صغيراً ، وهو يعلم مصلحة نفسه أكثر منى ومنك .

— يا رجل اتق الله . فريد لم يزل طفلا غير مجرب .

— سيظل فريد طفلا فى نظرك مهما نما وترعرع وقبض المرتب ، وحتى لو صار وكيلا للنيابة . الابن طفل فى عين أمه مهما امتد به العمر .. يا حميدة فــريد أدرى بمصلحة نفسه .

— ألم أقل أنك ميت القلب ، جامد الحواس ؟

فقال الحلــوانى فى دهشة :

— ماذا تقصدين ؟.. لقد خلقت لنا مشكلة من لا شئ ، إنه مسافر وسيعود بعد أسبوع ، هذا كل ما فى الأمر ، فوفرى علينا وجع الدماغ .

— حسن ألفاظك يا حلوانى .. ليس هناك من تصدعت رأسه غيرى أنا .. أنا العليلة .. أنا المسكينة التى تتلوى ليل نهار ومع ذلك تقول وفرى علينا وجع الدماغ .

— أنا غلطان .. حقك على .. هاتى رأسك .

وهم الحلوانى بتقبيل رأسها ، لكن أمه « أخوات » دخلت فى هذه اللحظة تتوكأ على عصاها ، غارقة فى أثوابها السوداء ، فتراجعت حميدة إلى الخلف ولم تمكن الحلوانى من رأسها . واتخذت الجدة طريقها إلى الداخل وهى تقول :

— يا فريد ... يا فريد ..

— خرج من دقائق .

— أصحيح أنه سيسافر غداً يا حلوانى ؟

— وماذا فى ذلك ؟

— أبداً ، ربنا يرجعه بالسلامة .

وكان للجدة موال شعبى تردده دائماً كلما عزم فــريد على السفر ، لهذا لم يكن غريباً أن يصل صوتها إلى الحلــوانى وزوجته بنغماته المرتعشة الحنونة وهى تغمغم :

صابح مسافــر وفايت عندكم روحى !..
بحق من أطلعــك يا شمس وتروحى !..
فراق الحبايب ١.١ أصعب من طلوع روحى !..

فعلق الحلوانى على غنائها قائلا :

— الله الله.. يا سمع المنوك.. ربنا يطول عمرك.. دعوة من قلبى للسماء .

— بالمجى ..اطلب لى حسن الختام.. كفى ..أترانانأخذ عمرنا وعمر غيرنا؟.

الفصل الثانى

كان « فريد » الحلوانى يتحدث مع صديقه « عبد المجيد » حديثاً يبدو عليه الأهمية ؛ لأنه كان من الواضح أن تلويح « فريد » بيده ، وتعبيرات وجهه ، والجد المرتسم فى عينيه ، كلها كانت تنبى عن خطورة ما هما فيه من حديث . وكان « فريد » يرتدى جلباباً أبيض نظيفاً ، وحذاء لامعاً أسمر اللون ، أما شعره فقد رجله بتأنق وجمال ، وحينما كان يحرك يديه فى حديثه كانت تظهر ساعته التى تزين معصمه ، وقد أمسك بيسراه مسبحة صفراء اللون وفى يمينه إحدى الروايات ذات الغلاف الملون .

ولقد كان « فريد » — بالإضافة إلى ملبسه الأنيق — يتمتع بخلقة وسيمة ، ومظهر جذاب وعود متوسط الطول وعينين خضراوين يشع منهما الطموح والحب ، وأنف عريض نوعاً ما ، وعنق أميل إلى القصر ، على العكس من « عبد المجيد » الطويل النحيف ذى النظارات السميكة ، والبنية الضعيفة ، والسحنة السمراء ، وتلك السخرية التى لا تكاد تفارقه .

وأمعن الصديقان فى حديثهما الهام ، وهما يدلفان إلى قرية « شرشابة » من أعمال مديرية الغربية ، ويتركان الترعة الكبيرة على يسارهما . وقال « عبد المجيد » وهو يحكم وضع نظارته :

— أمصرّ أنت على السفر إلى القاهرة غداً ؟...

— إن شاء الله ، ألك اعتراض على ذلك ؟!..

— إننى أتمنى من أعماق قلبى أن تكون حذراً هذه المرة ، أو لا تسافر على الإطلاق .

— إذاً ففيم كان السهر الطويل والتدبير المتصل الذى أحرقنا فيه أعصابنا؟.

فأطرق « عبد المجيد » برأسه ، وعاد إلى العبث بنظارته فى حركات عصبية مضطربة وقال :

— إن أردت الصراحة يا فريد فنحن لم نتفق على كل هذه الأعمال دفعة واحدة :

فرد فريد فى دهشة ..

— أراك أصبحت متردداً ضعيفاً .

— إن اعتراضى ليس معناه التردد والوهن .

— إذن فماذا تقصد من وراء قولك ؟...

فقال « عبد المجيد » فى ضحكة ساخرة مغتصبة :

— أقصد أن صديقنا الضابط « فرحات السروجى » أصبح مولعاً بشىء اسمه المنشورات ، وشىء آخر اسمه المفرقعات ، فأخذ يستعملها بلا وعى أو حساب :

وهم « فريد » مقاطعة « عبد المجيد » لكنه أوقفه فى رفق بحركة من يده واستطرد قائلا :

— إن نظرتى إلى هذه التصرفات التى يدفعنا إليها « فرحات السروجى » لاتخرج عن كونها طاقات تبعثر برعونة وجنون ، وما نحن إلا مواد خام يسىء صاحبنا استعمالها ويغامر بها .

فتوقف « فريد » عن السير وضرب الأرض بقدمه فى قوة ، ثم قبض على ذراع « عبد المجيد » وقال فى حماسة :

— أنسيت أننا ثوار .؟ ثوار.. افهم هذه الكلمة الضخمة. وضد من ؟؟ ضد الملكية .. والاستعمار ... وأذنابهما . والثورة نار .. مغامرة .. عمل ، ولا مجال للمترددين .

— نعم .. إنها عمل لكنه منظم ، ونار لكنها لا تتبدد فى الهواء أو تحرق أناملنا نحن ، دون فائدة نجنيها من وراء ذلك .

فقال « فريد » فى صبر نافد :

— اسمع يا «عبد المجيد» ..سأسافر لمقابلة الضابط «فرحات السروجى» كما طلب منى ، وسأنفذ أوامره ، أنا أعلم أن النقد سهل وهين أما أن تعمل وتنتج فهذا هو الأهم .

— سامحك الله «يا فريد» ، وهل أريد أنا غير العمل والبناء والتنسيق ؟..

— يبدو أنك قد غيرت رأيك فى الضابط «فرحات» ، واهتزت ثقتك فيه وأصبحت تنظر إليه على أنه متهور لا يقدر النتائج ، ولا يعبأ بالعواقب.

لم أقصد هذا الكلام بالضبط ... لكن أليس لى حق إبداء الرأى فى موضوع خطير كهذا ؟... إننى أحمل روحى على كفى معكم فلا غرابة مطلقاً فى أن أشارك فى تقرير مصيرى معكم .

فقال « فريد » باهتمام :

— لى سؤال واحد... هل لو استدعاك الضابط «فرحات» لأداء عمل ما أتوافق أم تتردد ؟

— اطمئن .. سأسارع للقائه ولن أتردد .... لكن من الآن فصاعداً سأحاول مناقشة الأمر بروح الأخوة والمشاركة فى الكفاح .

— إذن ستأتى معى غداً ؟...

— بالتأكيد !...

وسادت بينهما فترة صمت كان « عبد المجيد » خلالها يتذكر أول مرة التقى فيها هو و « فريد » بالضابط « فرحات السروجى » ... كان ذلك فى أحد مدرجات كلية الحقوق منذ عام ونصف تقريباً وكان « صدقى باشا » يقبض على مصر بيد من حديد مهدداً متوعداً ، لا شريك له فى سياسته ... وكان « فرحات » آنذاك ضابطاً برتبة ملازم أول فى الجيش لكنه أراد استكمال دراساته القانونية بالحقوق .. ثم كان لقاء بالصدفة ... فأحاديث ودية ... فمناقشات غير سياسية وسياسية .. والتقت وجهات النظر . وبعد ذلك صارت الزمالة المجردة أخوة متينة ، ودخلت فى طور جديد ، وشملت وجوهاً جديدة ، كلها اجتمعت على رغبة ملحة وهى

الخلاص من الملكية والاستعمار بأى ثمن ، فى وقت بلغ فيه فاروق عنفوانه وكثرت عيونه وآذانه فى كل مكان !...

وهكذا مرت عليهما أيام شديدة قاسية كلها اجتماعات ومنشورات ومطاردات ومفرقعات . و « عبد المجيد » و « فريد » أثناء ذلك فى دوامة عنيفة تصطرع فيها لذة الكفاح مع خيالات السجن ، وفيها من التهور بقدر ما فيها من الحذر ، وفيها من الدموع بقدر ما فيها من ابتسامات الأمل ، وأفاق عبدالمجيد من شروده على وكزة خفيفة من يد فريد الذى قال :

— حدث بالأمس أن رأيت صورة عابرة قد تكون تافهة لكنها يا « عبد المجيد » قد لفتت نظرى إلى حقيقة هامة .

— ماذا حدث ؟..

— ثرثرة أطفال على شاطئ الترعة ... كانوا يرسلون الكلمات فى سذاجة وفطرة صادقة ...

أحدهم يقول : من منكم يستطيع أن يقفز هذه الترعة ؟
فرد عليه آخر : مستحيل ، ولا الملك ..
فـــرد ثالث : الملك ! ! إنه يستطيع أن يقفزها .. بل وأكبر منها .. الملك يستطيع أن يقفزها برجل واحدة ..

ثم دار الحديث بين الأطفال على نحو مختلط بلا نظام أو منطق ممتزجاً بصريخهم وضحكهم :

كم جنيهاً مرتب الملك يا « أحمد » ؟...
— مائة جنيه !...
ألف جنيه يا عبيط ...
إنه يأكل فى كل أكلة خروفاً ..
و « المرق » ؟؟.. هل يرمونه ؟؟..
والملك ، بدلته من أى صنف ؟؟...
يا بى .. لبس الملك جوخ فى جوج ، وحرير فى حرير ..

سيد ابن عمى عسكرى عند الملك .. ويقول إن الملك لو قال كلمة واحدة لازم تنفذ فى لحظتها ..

لو سيد ابن عمك شتم الملك ... ماذا يحصل ؟..

خذ رقبته يا سياف .. ماذا تنتظر غير ذلك ؟.. إنه الملك .. لو قال اقتلوا الناس كلهم لقتلهم ..

يا خبر اسود ..

من يغلب ؟؟.. الملك أم ربنا ؟..

لاأعرف ...

ربنا لا بد وأنه يغلب الملك يا عبيط .

وفى هذه اللحظة مرت كلبة سوداء فلفتت نظر الأطفال ، فاندفعوا يجرون وراءها ، ويقذفونها بالطوب والأحجار ، بينما مضيت فى طريقى.

وبعد فترة صمت تمتم « فريد » قائلا :

— أترى كيف سيطر الوهم على عقول أجيالنا ؟؟ إن منطق هؤلاء الأطفال فى سذاجته وبساطته لهو الحقيقة بعينها ، هم أبناء الشعب الجائع العارى الذى يؤله الملك ، ويرهبه رهبة شديدة ..

— اطمئن « يا فريد » .. فالوهم طلاء زائف سرعان ما تكشف عنه الأحداث ، وتعريه شمس الحقيقة ، وعواصف الثورة ..

— شعبنا مسكين .: لا يذكر الملك إلا وذكر معه الجوخ والحرير ، والأكلات الدسمة ، والسياف الذى يفصل الرقاب عن أجسادها ..

— الشيء بالشيء يذكر يا « فريد » !...

— ماذا تعنى ؟ ...

— أعنى أنه إذا ما ذكر جوخ الملك وحريره ذكرت الملاهيل الممزقة ، وإذا ما ذكرت خرافه تبادر إلى الذهن الأرغفة الجافة وأطباق المش ، وحينما يقال السياف تسارع إلينا صورة الطغيان والفساد والمذلة التى تطوقنا ..

– إنه خنزير كبير يجب أن تزهق أنفاسه ..
– دعنا من السياسة .. فقد تصدع رأسى .. خمسة انسجام يا رجل .. ألست معى ؟؟...
– معك فى ذلك !....
– والآن ، هل ستمر على « نهيرة » الليلة ؟؟... طبعاً ... عقبى لى... يا ناس عقبى لى ... سبحان العاطى الوهاب ... جمال ودلال يا حبيبى !...

كان « عبد المجيد » يتحدث فى حركات تمثيلية مضحكة ، ويرفع حاجباًويخفض آخر ، ويثنى رأسه يميناً ويساراً ويغمز بعينيه ، بينما اكتسى وجه « فريد » بغشاء من الخجل والحياء لون وجهه بالحمرة ووسم حركاته بالتلعثم والاضطراب الواضح ، فانتهز « عبد المجيد » هذه الفرصة وقال:

– أجل .. الحب .. الحب يفعل أكثر من هذا .. يا وعدى .. أحب النبى ...

فقال « فريد » بصوت خفيض :

– تركنا السياسة وبدأنا فى التريقة والهزر.. اعمل معروفاً .. وإلا رجعنا للحديث عن السياسة مرة أخرى ..
– هذا كلام من وراء قلبك .. إنك تتمنى أن يطول الحديث عن « نهيرة » وعن جمال « نهيرة » ، وحبها لك ، وعن أبى « نهيرة » ، وجواباتها . لا تراوغ فأنا أعرفك تماماً ..

فقال « فريد » :

– كفى .. كفى . إن والدى آت ، ومتجه نحونا ؛ لعله يريدنى فى أمر ما !...

الفصل الثالث

– اسمعي يا « نهيرة » :.. أتحبين « فريد » إلى هذا الحد ؟؟...
– ولم لا أحبه ؟؟... شاب ناجح مرموق ، ومظهر مقبول وسيم ، ثم إنه يفديني بروحه ويجعل رغباتي فوق كل اعتبار ..
– أنت مخطئة يا « نهيرة » ...
– أمرك عجب ... فيم الخطأ يا « فردوس » ؟؟...
–إنك تعللين الحب، وتضعين له الحيثيات والمسببات ... الحب غير هذا كله .
– ماذا تعنين ؟؟...
– أعني أنّ الحب لا يعرف المنطق ولا التقنين ...
– إذن لا بد أن يكون هذياناً محموماً ، وجنوناً منطلقاً لكي يكون حباً ؟..
– يا «نهيرة» العواطف لا تقاس هكذا ، بل ولا يصح مطلقاً أن يكون لها مقاييس .. إنها مشاعر ... أحاسيس ، وكفى !...
– هذه خيالات وأحلام لا تسير على الأرض بقدمين !...
– والحب هكذا ..
– إذن فأنت واهمة ...
– واهمة لأني لا أجعل من الحب صفقة تجارية ، أو عملية حسابية جامدة لا تقوم إلا على الأرقام ..
– لكم دينكم ولي دين !...
فاعتدلت « فردوس » في جلستها وأظهرت اهتماماً زائداً وقالت :
– ما معيار السعادة الزوجية عندك يا « نهيرة » ؟...
– المسألة بسيطة .. زوج طيب يكفل لنا حياتنا وحاجاتنا ، ولا يجعلنا

تمد يدنا لأحد ولا نخلق منا موضوعاً لتندر الناس ..

— ألا يمكن ألا تشعرى بالسعادة رغم تحقيق هذا الشرط ؟؟...

— ولم لا أشعر بالسعادة ؟؟...

— لأن هناك أشياء أخرى لم تذكريها !...

— ما هى ؟...

— لا أعلمها .. لكنى أشعر بها عن تجربة ، وأحسها عن يقين ..

— لا يكفى مجرد الشعور والإحساس .. لا بد أن تعبرى عنها وإلا فهى فى حكم العدم .

— إذا لم تصفها لى فمن أدرانى بها يا « فردوس » ؟؟...

— إن من أحبه يفهمها ويدركها تمام الإدراك ..

— كيف ؟.. لا بد أنه ساذج واهم مثلك ..

— يكفى أن ينظر فى عينى ، أو يلتقى بى فى أى لحظة فيلقى على نظرة واحدة فأفهم ويفهم ..

— كفانا استجوابات وتحقيقات .. احكى لنا عن موضوع آخر .. أنا أعلم أنك تهوين الفلسفة كما كنت تهوين الحساب والرياضة من قديم الزمن فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية .

— وأنت ..؟؟

— لم أكن أرغب فى أن أتجاوز السنة الثالثة الثانوية مادمت قد أصبحت امرأة كاملة الأنوثة على أهبة الزواج .. أما أنت فغاوية أدبى فلسفة ثم كلية الآداب ... ثم إلى ما لا نهاية .

وقطع عليهما الحديث نقرات خفيفة على الباب ، فوثبت « نهيرة » من مكانها لتفتح الباب ، بينما قالت صديقتها :

— لا بد وأنه أبوك راجع من الشغل ...

— كلا ، إنه « فريد » ... « فريد » زوج المستقبل ..

* * *

يقع بيت والد « نهيرة » فى الناحية الشرقية من قرية « شرشابة » وهو مكون من طابق واحد تقبع فوق سنطحه حجرة يتيمة ، أمامه حديقة صغيرة عشرة أمتار طولا ، وستة عرضاً ليس بها غير بضعة أشجار للجوافة والليمون والبرتقال ، والبيت يقوم ملاصقاً للحقول ثم أمامه ترعة صغيرة !...

وكان البيت ملائماً ، وكافياً « لنهيرة » ووالدتها ووالدها وخادمتهم ... وكان والدها يقوم بعمل وكيل مكتب بريد « سنباط » الواقعة على بعد ثلاثة أميال من « شرشابة » ، لهذا فهو يقضى سحابة اليوم فى سنباط ثم يعود آخر النهار إلى « شرشابة » ...

وكان أول لقاء بين « نهيرة » و « فريد » على شاطئ تلك الترعة الصغيرة وهما لا يزالان طفلين يلعبان ويعبثان مع الأطفال ، وإن كان « فريد » يكبرها بعامين اثنين ، وكان اللقاء الثانى وهما طالبان فى مدرسة الإرسالية الأمريكانية الابتدائية « بسنباط » ، حيث كان الاختلاط مباحاً بين البنين والبنات فى فصول الدراسة !...

وتعثرت « نهيرة » فى دراستها ولم تتجاوز الثالثة الثانوية ، فآبت إلى البيت حسب وجهة نظر والدها حتى يأتى إليها « ابن الحلال » ليأخذها إلى بيت الزوجية ، بينما واصل « فريد » تعليمه بنجاح حتى وصل إلى الثالثة فى كلية الحقوق !...

ودخل « فريد » بعد أن فتحت له « نهيرة » الباب ، بينما استأذنت صديقتها وخرجت .. ، وكان يبدو على وجه « فريد » أمارات من الضيق والغضب ، وما إن دخل حجرة الجلوس حتى وجه نظراته الحانقة إلى « نهيرة » ، وما إن لمحت هى ذلك حتى اجتاحتها الدهشة .. لقد عهدته خجولا حيياً فى حضرتها لا يجرؤ على توجيه مثل هذه النظرات أو إظهار ذلك الغضب .. لا بد وأن فى الأمر شيئاً .. بل انقلاباً .. لقد كانت « نهيرة » تنوى أن تقوم بمثل هذا الدور .. دور الغاضبة المتدللة لحاجة فى نفسها ، فاذا هى تراه على هذه الصورة ، ترى ماذا جرى ؟..

وبعد ان جلس «فريد» على المقعد لحظات مطرقاً ، رفع رأسه قبالتها وقال :
— « نهرة » !..
فأعطته ظهرها وظلت واقفة .. لكنها لم تجب ، بل ركزت بصرها فى أرض الغرفة بينما أخذت تفرك يدها ، ثم تعبث بشعرها فى حركات قلقة عصبية ...
— « نهرة » .. ألم تسمعى ؟؟.. أين والدتك ؟...
— أظنها عند الجيران ...
ثم سادت فترة صمت قصيرة ، هب « فريد » على أثرها من مكانه وقبض على ذراعها فى عنف لم تألفه بل لعله المرة الأولى من نوعه ، فرفعت إليه بصرها فى حيرة ممزوجة بالدهشة ، وقد شحب وجهها واضطربت حركاتها ، ولسان حالها يقول :
« يا للعجب .. أهكذا انقلب الحمل الوديع أسداً هصوراً ؟؟... آه من الرجال !... »
وهتف « فريد » فى حنق :
— ماذا كان يحمل « عبد الرحمن افندى » هنا ليلة أمس ؟؟...
— أتى كالمعتاد مع زملائه المدرسين لزيارة والدى ... إن بيتنا مفتوح للزوار والأصدقاء ولا غرابة فى ذلك !...
— للزوار ، لكن « عبد الرحمن افندى » المدرس لا ..
— ولم ؟؟... إنه يزورنا كما تزورنا أنت !...
وفوجئ « فريد » بهذا الرد منها والذى سوت فيه بينه وبين « عبد الرحمن أفندى » ، فلم يتمالك نفسه أن قذف بها بعيداً عنه ، بينما انطلقت من فمها صيحة تنم عن الفزع والدهشة ، وانطلق « فريد » كالسهم خارجاً من الحجرة وعيناه تتقدان غيظاً وغضباً ، لكنه وجد أم « نهرة » مقبلة نحوه بابتسامتها المعهودة ، وبشاشتها المألوفة ، فجمد « فريد » فى مكانه ولم يحرك قدماً ..

ودخلت الام وسرعان ما فهمت أن الموقف متأزم ، وأن العلاقة بين « فريد » و « نهيرة » ليست على ما يرام ، فلم يغير ذلك من ابتسامتها المعهودة بل أقبلت على « فريد » مصافحة وقبلته فى وجنتيه ، وقادته إلى حجرة الجلوس مرة ثانية ، بينما همست « لنهيرة » :

— أحب أن أشرب شيئاً رطباً من يديك الحلوتين .. وأيضاً « فريد » ..

— شربات أم كوكاكولا ؟؟..

— ولم لا يكون الاثنين .. يد لا نعدمها ..

وانسحبت « نهيرة » بهدوء تاركة أمها مع « فريد » الذى أخرج منديله وأخذ يجفف العرق الذى يندى جبينه من أثر الانفعال وحرارة الجو ، وصعوبة الموقف ...

و«عبد الرحمن أفندى» هذا مدرس فى «مدرسة شرشابة الأولية» وحاصل على شهادة الكفاءة وقد سبق له أن طلب يد « نهيرة » ، وأوشك أبوها أن يوافق لولا أن ظهر « فريد » فى الأفق فرجحت كفته رغم أن والد « فريد » فراش فى المدرسة التى يشتغل فيها « عبد الرحمن افندى » !...

وبعملية حسابية بسيطة استطاع والد « نهيرة » أن يقدر ما لدى «فريد» من ميزات ، ولا عيب فى أن يكون والده فراشا ، لأن الفتى من يقول هأنذا ، وليس الفتى من يقول كان أبى ..

ولم تخفت حدة المنافسة بين « فريد » و « عبد الرحمن افندى » ، لأن الأمر لم يبرم « لفريد » بصفة نهائية ، و « عبد الرحمن » لم يفقد الأمل كلية ، يشهد بذلك كثرة تردده على والد « نهيرة » وتلبية كل ما يطلبه منه ، ويشهد بذلك أيضاً زيادة تأنقه فى ملبسه وحديثه ، ومحاولاته المتكررة التى يلاحق بها « نهيرة » وأسرتها ..

ولو كان والدها حازماً حاسما لوضع حداً لهذا الموضوع من زمن غير قصير ، لكنه أبى أن يحزم الأمر ؛ لأن « فريد » لم يتفق معه على صورة ترضيه ، وعلى كل كان يعتقد أنه كلما زاد الصراع وكثر المتنافسون كان

هذا مدعاة لإقرار الموضوع وحسمه على صورة ترضيه ..

إن كل ما ينشده هو أن يضمن لابنته زوجاً ذا مرتب حكومي مستقر.. وما عدا ذلك فلا يعلق عليه كثيرا ...

قالت أم « نهيرة » :

— مالى أراك مبتئساً ؟ لا بد وأنها أغضبتك ...

فتردد « فريد » لحظة قبل أن يجيب،لكن الأمر كان فى نظره لا يحتمل التردد أو التخاذل ؛ لأنه يتعلق بكرامته وسمعته ، وبشخصية « نهيرة » ومركزها الأدبى ، فقال وهو يتصنع الهدوء :

— أنا قلت لها ستين مرة ومرة أن «عبدالرحمن افندى » يجب ألا يأتى هنا .. لكن كلامى ذهب أدراج الرياح .. هل وصلت الحال لدرجة أن تحافظوا على شعوره دون الالتفات لقولى أو قيام أى وزن لآرائى ؟؟.. لا .. لا هذا كثير ..

— ربنا يبارك لك فيها «يا فريد» يا ولدى .. هذا كله ليس له دافع غير حبك لها ، وغيرتك عليها ، وهكذا الرجال .. على العكس ، أنا مبسوطة من كلامك هذا ...

— لكن بنتك لا يسرها هذا،وتعطينى ظهرها وتنفر منى.. دون تقدير لما أكنه لها .

— آه يا « فريد » .. « نهيرة » إنسانة طيبة ، وليس فى قلبها ذرة حب لغيرك ، إنها ابنتى وأنا أعرفها تمام المعرفة .. والله إنها مظلومة .. ليس لها حديث إلا : « فريد » راح ... « فريد » جاء ... « فريد » مسافر !..

فأرخى « فريد » بصره فى حياء ، فانتهزت الأم هذه الفرصة ، فرصة التخدير الكلى الذى خضع « فريد » لسلطانه القوى ، وضربت على نفس الوتر :

— إنى أعجب من بنات اليوم .. الحب أصبح عندهن مرض الأمراض.. أحلامهن ، أغنياتهن ، زينتهن ، أحاديثهن كلها تدور حول المحبوب !..

وشعر « فريد » بالحرج من هذا اللون من الحديث الذى أعاد إليه طبيعته وهدوءه ، بل رق قلبه وصفا وشعر بوخز الألم فى أعماقه من أجل تحامله على « نهيرة » وسلوكه معها هذا المسلك الجاف الذى يتنافى مع سابق رقته وليونته معها ، وشعر بشعور جارف يدفعه إلى الاعتذار لها عما بدر منه فى ثورته .. لهذا حاول أن يمهد لما اعتزمه ، فقال :

– أنت تعلمين أن الناس ذئاب ، لهم حاسة شم قوية لتنسم الأنباء والشائعات والفضائح ، ووضعها فى ثوب يغرى بالتصديق والفضول ، فلم لا نقطع ألسنة السوء ، ونضع حداً لأى شائعة ؟...

– أتريد الحق يا « فريد » يابنى ؟...

– طبعاً ولا شىء غير الحق ..

فضحكت ضحكة ذات معنى ، وقالت :

– أنت سيد العارفين ، وتدرس فى الحقوق ، وأنت خير من يعلمه !...

– العفو العفو ...

– الحقيقة أنت فى يدك أن تقطع ألسنة السوء هذه وتضع حداً لكل ما يؤلمك من شائعات .

– وكيف ذلك ؟... لقد لفتّ نظركم أكثر من مرة ، ولكن بدون جدوى ...

– لا أقصد ذلك ، ولكن الذى أريده شيئاً آخر أتحرج من النطق به ؛ لأنه يدعو إلى الكسوف ... لكن ماذا أعمل ، ونحن ناس تسوقنا التقاليد ، وتحركنا العرف والعادة فى كل تصرفاتنا ؟؟...

– إننى فى منزلة « نهيرة » لديك ، فلا حرج مطلقاً من التصريح لى بكل ما فى قلبك ..

– هذا ما أحسه فعلاً ، ويعلم الله ما فى قلبى لك ...

– شعور متبادل يسهل لنا المهمة ...

– البنت فى شبابها تحتاج لهدية .. فستان جميل مثلا ... حذاء

حديث ... زجاجة عطر ، والناس ينظرون دائماً لمثل هذه الأمور التافهة ، ورغم تفاهتها فهم يعلقون عليها أهمية كبرى ... ألم أقل لك أنه شئ محرج ؟... إنك عندنا بالدنيـــا كلها . . . ويعلم الله أنى أحبك لذاتك، لأدبك وإخلاصك .. لكن يا ولدى الناس والعادات لها سلطان كبير علينا وعلى تصرفاتنا ...

وعاد « فريد » لتجفيف جبينه المندى بالعرق مرة أخرى وقال متلعثماً :

ـ عندك حق، هذا إهمال منى .. وعند عودتى من القاهرة إن شاء الله سأحضر لها هدية تقر عينك بها ..

ـ ولماذا هذا الإنفاق الذى لا طائل تحته ، ولا فائدة من ورائه ؟...

ـ إذن فماذا ترين ؟... إننى على استعداد لتنفيذ كل ما تشيرين به ..

ـ أخاف أن أقول فتتهمنى بالعجلة ، وتشك فى إخلاصى !...

ـ حاشا لله ... هذا لا يمكن ...

فتمهلت قليلا ، وبلعت ريقها ، وزادت من رقتها ونغمة الإخلاص البادية فى صوتها وقالت :

ـ لم لا تأتى أنت ووالدك ووالدتك وبعض أعيان البلد الطيبين لخطبة « نهيرة » ، ولن يحتاج الأمر لأكثر من أسورتين من ذهب وخاتم، فتدخل المسألة فى الطور الرسمى الطبيعى لكل زواج بسنة الله ورسوله ؟؟...

فضحك « فريد » ولم يجب ...

كان يعتقد أن الأمر لا يحتاج لمثل هذه السرعة ، فهو لم ينته بعد من دراسته الجامعية ووالدته ليست على ما يرام ، وحالته المالية فى حاجة إلى التحسن والاجتهاد ، أو بمعنى أوضح كان يرى تأخير هذه الخطوة لفترة تالية ، ما دام هناك محل للثقة بين الطرفين ، وما دام قد ارتبط معهم بكلمة الشرف .. لكن يبدو أن كلمة الشرف وحدها لم تكن لتقنع والدة « نهيرة » ووالدتها .

واستطردت الأم قائلة :

ــ ولا شك أن مثل هذه الخطبة الرسمية ستكون خير رادع ونعم الجواب لكل من تحدثه نفسه بزيارتنا أو بطلب يد « نهيرة » منا .. ولن تغضب أنت بعد ذلك ، لأن « عبد الرحمن افندى » وغيره لن يتردد علينا فيما أعتقد بعد ذلك ...

وتنفست الأم الصعداء ، فقد أدت مهمتها على خير وجه ، وقالت :

ــ والآن ما رأيك أنت فى ذلك ؟؟...

وهم بالكلام ولكن « نهيرة » كانت قد أقبلت مبتسمة حاملة بعض المشروبات الباردة ، وما أن رآها « فريد » والتقت نظراتهما والأم ترقبهما فى شغف .. حتى قال :

ــ موافق ..

ــ متى ؟

ــ بعد غد ...

ــ والسفر إلى القاهرة ...؟

ــ سأؤجله يومين أو ثلاثة ...

ــ صحيح ؟؟...

ــ صحيح !..

وهنا انطلقت زغرودة عالية من الأم ، أخذت « فريد » على بغتة ، فاحمر وجهه خجلا ، بينما توردت وجنتا « نهيرة » ، وشعت عيناها بالسعادة الفائقة ، وما أن التقت نظراتها بنظرات « فريد » من جديد حتى شعر بأنه يريد أن يهتف بأعلى صوته : يسقط « عبد الرحمن افندى » وأعوانه الخونة أو « لا عبد الرحمن بعد اليوم » ..

والتفتت الأم قائلة :

ــ أنا دورى انتهى وبقى أن أترككم معاً حتى تصطلحا ، لأن حفلة الخطبة بعد غد .. وأم العروسة لا بد وأن تهتم بأشغالها وما أكثرها ...

وانسحبت تاركة « فريد » و « نهيرة » وحدهما يظللها صمت مطبق

لا يتفق إطلاقاً مع نبضات قلبيهما اللذين يدقان فى عنف وقوة ويهزان كيانهما ....

قال « فريد » :

ـ أما زلت متأثرة مما حدث منذ ساعة ؟؟..

ـ كلا ، إن قلبي على استعداد لأن يغفر لك كل شيء ...

ـ على كل حال فنحن كما أشعر على أبواب عهد جديد ، وأرجو ألا يكدرنا فيه مكدر .

ـ إن ما أحسه نحوك كفيل بأن يغرق فى طوفانه أمثال هاتيك الشوائب الصغيرة ..

ـ ما شككت قط فى حسن نواياك يا « نهيرة » .. لكن ..

وقطع « فريد » حديثه فى ارتباك لكنها شجعته قائلة :

ـ لكن ماذا ؟

ـ من الخير لى ولك ألا ندع فرصة للقيل والقال ..

ـ على شرط ..

ـ وما ذلك الشرط ؟..

ـ أن أقابل « عبد الرحمن افندى » الليلة ...

فشحب وجه « فريد » ، وقال باستغراب :

ـ لابد وأنك تمزحين ... أحقاً ما تقولين ؟؟..

ـ أقسم أنه لحق ..

ـ عبث هذا أم جنون ؟؟.. لست أفهم ماذا تقصدين ؟؟..

فابتسمت « نهيرة » ، واقتربت من « فريد » حتى وقفت بجانب لا يفصلها شيء ، وقالت وقد رفعت إليه وجهها فى عاطفة جياشة :

ـ عدنا للشك والغيرة من جديد ..

ولما التفت إليها « فريد » همست قائلة :

– سأقابله لكى أقول له إنه يجب ألا يعود إلينا مرة ثانية .. وسأزف إليه خبر ارتباطى بك إلى الأبد .

وأراد « فريد » أن يتكلم فلم يستطع لأن « نهيرة » كانت قد وضعت يدها على فمه قائلة :

– كفى ..

ولم يدر « فريد » كيف حدث أن طوقها بذراعيه ، وكيف استسلمت له فغابا فى قبلة طويلة لم يفيقا منها إلا على صوت الأم وهى تقول باسمة :

– أهكذا دفعة واحدة ؟؟... عيب يا « نهيرة » .. جيل اليوم طبعه حامى .. فيم العجلة ؟... غداً تستمتعان ...

وشعر « فريد » بالخجل الشديد ولكنه كان ينتفض بشدة ، ويشعر بلذة لم يشعر بمثلها طول حياته .. إنها تجربة لذيذة ممتعة رغم ما شابها من حرج وملابسات ، ولو كان « فريد » يعلم ذلك من البداية لما تردد لحظة فى إنفاذ ما طلبته الأم قبل ذلك بشهر .. بعام .. بثلاثة .. ما كان أغباه أن يضيع هذه الفرصة الجميلة .. لقد خيل إليه أنه بعث بعثاً جديداً ، وأنه لم يعد « فريد الحلوانى » فقط ، بل أضيف إليه شىء آخر ، شىء كبير عظيم غير ملموس .. هذا الشىء هو الذى يرجه رجا ، ويثير الجنون والعنف فى ضربات قلبه ، ويبعث النشوة والسعادة فى أرجاء روحه .. لحظة جميلة .. بدت « نهيرة » فى نظره وكأنها الأمل والحياة وسر البقاء .. إن العمر بغيرها صحراء مقفرة حارقة يكتنفها الملل القاتل واليأس المرير .

إن حياته قبل ذلك كانت غباء ... وفراغاً ... وخداعاً ، وإن خيل إليه أنها كانت مليئة بالجمال ، عامرة بالنجاح والكفاح .. والآن لقد اهتدى أخيراً إلى الحقيقة...ولو حاول أحد – سواء « عبد الرحمن افندى » أو غيره – أن يحجب عنه هذه الحقيقة أو ينال منها أو يشاركه فى الاستمتاع فيها ، لو حاول أحد ذلك لقطع « فريد » رقبته وليكن بعد ذلك ما يكون ..

ولم يكد يخرج « فريد » من بيت « نهيرة » ، حتى رمقته وهو يتوارى

بعيداً عن ناظريها ، وفى قلبها انفعالات كثيرة مختلطة ، لا حصر لها ثم تنهدت قائلة :

ــ الآن أستطيع أن أقول إننى أحبه .. أحبه بكل قلبى وكيانى .. ولو كان فراشاً كأبيه لاقتفيت آثاره إلى حيث يريد ، ولقبلت مكنسته التى يكنس بها المدرسة ، وتشبثت بأهدابه إلى آخر الدنيا ... لست أدرى ماذا جرى لى .. لقد آمنت الآن أن الحب لا يعرف المنطق والتقنين ؛ كما قالت صديقتى « فردوس » هذا الصباح ... أجل، يا له من حلم مر سريعاً كالشذا الحمراء !...

الفصل الرابع

قال « فريد الحلوانى » « لعبد المجيد » :

– ستسافر غداً وحدك إلى القاهرة، وأنا كما ترى مضطر للبقاء هنا يومين آخرين .

فقال « عبد المجيد » وهو يغمز باحدى عينيه غمزة لا يخفى معناها ويحكم وضع النظارة على أرنبة أنفه :

– أرى أن كفة « نهيرة » قد رجحت على كفة الضابط « فرحات السروجى »

فقال « فريد » بتأفف :

– للضرورة أحكام، وماذا كنت ترانى فاعلا إزاء هذا الموقف الشائك ؟

– كنت تؤجل حفلة الخطوبة حتى العودة ...

فقال « فريد » وهو يلوح بيده :

– لابد أن تفهم أننى كمواطن حر أجعل دائماً مصلحة وطنى فوق كل اعتبار ، وأستطيع أن أضحى بالمرأة وبكل شئ فى سبيل ذلك ..

– وتضحى بالحب أيضاً ؟؟...

– لقد قلت ما أعتقده فى قرارة نفسى ..

– إذن فما سر خروجك على هذه العقيدة ؟..

– لم أخرج عنها .. بل مجرد يومين كافيان لإنجاز المهمة التى تعلمها فى « شرشابة » .

فوقف « عبد المجيد » عن السير وقال فى لهجة تأكيدية :

– كثيراً ما نغالط واقعنا ونكذب على المثل العليا التى نؤمن بها ..

فرد « فريد » متضايقاً :

ـ الحب مثل أعلى والكفاح الحر أيضاً مثل أعلى، فما أرانى كذبت ولا تنكرت ..

ـ لا تحاول أن تخدعنى وتمارى فى الحقيقة .. إن حبك يا صديقى يخصك أنت ، أما نضالنا فيخصنا ويخص شعبنا .. المجال الأول ضيق وفردى ، أما الثانى فواسع سعة الدنيا ، عريض عرض الإنسانية .. وأنا أسمى الأول نزعة إلى الأنانية والثانى انطلاق نحو عالم آخر .. عالم من الإيثار والتضحية .. أفهمت يا حضرة المحب الولهان ؟..

فارتبك « فريد » قليلا ثم هتف قائلا :

ـ لا كلام عندى غير أنى أؤكد لك بأنى سألحق بك بعد يومين لا ثالث لها ، ولعلى أعرف بحالى وأحسن تقديراً لظروفى منك . ويجب أن تفهم أنى لا أنافق ولا أتراجع حتى الموت !...

وسادت فترة صمت ، ثم استطرد « عبد المجيد » :

ـ كثيراً ما فكرت فى هذه المشكلة العويصة : كيف نوفق بين مطالبنا الخاصة وأحلامنا الذاتية ، وبين ما نؤمن به من مثل كبيرة ؟.. كنت مثلك أجعل المبادئ هى الكل فى الكل ، وأؤكد ذلك فى كل مناسبة سواء فى خطبى أو مقالاتى .. ولم يكن هذا التأكيد كما فهمت أخيراً إلا للشك الذى كان ينهشنى ، والأنانيــة التى كانت تجذبنى أحياناً ـ رغم أنفى ـ إليها .. كنت أجبن أن أقول لنفسى الحقيقة كما هى ... لكننى أخيراً أعلنتها لنفسى مدوية لا التواء فيها ولا غموض ..

قال « فريد » باهتمام :

ـ ما هى ؟؟..

ـ الحقيقــة ..

ـ أوضح أكثر من هذا ...

ـ المسألة لا تحتاج إلى توضيح .. نحن بشر ولنا نزعات وأهواء، وفينا غرائز وهرمونات ، ولنا تكوين خاص .. والخير كل الخير فى أن نوفق

بين مطالبنا الفردية ، وبين آمالنا الكبرى التى تتعلق بغيرنا من الناس .. نحن لأنفسنا ولغيرنا ، ومع هذا التقسيم ، فان الواجب علينا أن نحدد القسمة ، وأن نوضح سماتها ومقدارها كأن نعين مالنا وللإنسانية .. هذا أوفق فى رأيى .. نحن جزء من الإنسانية ، وهى نسيج يضمنا .. وهى تحس بنا ، ونحن يجب أن نحس بها .. نحن وحدة لاتنفصم ... ولو فهمنا هذا لفهمنا أنفسنا أكثر وأكثر ..

فأمسك « فريد » « عبد المجيد » من ذراعه وقال فى حدة :

ـ ما هذه الفلسفة ؟.. ماذا تريد أن تقول ؟... لقد صدعت رأسى .. نزعات .. أهواء .. هرمونات .. الخير .. الإنسانية .. الوحدة .. ما هذا الخليط من المصطلحات التى تغرقنا فيها بلا حساب ؟.. قل ما تريده بلا مقدمات وتمهيدات ..

فصمت « عبد المجيد » لحظة ، ثم قال بهدوء :

ـ أقول لك يا «فريد» ـ يا أعز أصدقائى ـ اننى كنت أحب «سهيرة» ..

وكانت هذه العبارة صدمة « لفريد » :

ـ يا خبر أسود .. أنت أم « عبد الرحمن أفندى » ؟؟..

ـ بل أنا ..

ـ أنت مجنون ..

ـ بل أنا مثلك ، إن لم أفقك عقلا وتفكيراً ...

فانتفض « فريد » وصاح :

ـ اخرس يا نذل ..

ورفع يده ليصفع بها « عبد المجيد » ، فسارع « عبد المجيد » بالقبض عليها قبل أن تهوى على وجهه وقال :

ـ أرأيت أنك فى لحظة واحدة أردت أن تخسر صديقك فى الصغر وزميلك فى الكفاح من أجل امرأة ؟.. امرأة .. أعلمت الآن أن مطالبنا الصغيرة قد تدفع للأنانية العمياء ؟.. ومع هذا فلا لوم عليك .. أنت بشر

وكثيراً ما تختل الموازين ، وتطغى الأثرة فينسى الإنسان أشياء كثيرة كثيرة جداً ..

فجذب «فريد» يده من يد «عبد المجيد» وعيناه تقدحان بالشرر وقال:

–كف عن هذه الثرثرة ، ودع هذا الهراء ..

ومضى «عبد المجيد» فى كلامه دون أن يلقى بالا إلى ما قاله «فريد»

– أما أنا فعلى النقيض منك تماماً ، لقد استطعت أن أكبت حبي وأسحق أنانيتي من أجلك ومن أجل كفاحنا ومبادئنا .. ليس معنى ذلك أننى أكثر تقديراً للمثل العليا منك .. ولكنى واقعى .. رأيت أنك أحببتها وتأكدت أنها تحبك ، فآمنت أن الصراع معك من أجلها معركة خاسرة .

فسارع «فريد» قائلا :

– أوكنت مستطيعاً أن تزاحمنى على «نهيرة» يوماً ما ؟...

– ولم لا ؟ كل شئ جائز ..

– والآن ؟..

– إنك فارس الميدان بلا منازع ..

– وكيف بدأت علاقتك معها ؟..

– منذ أن كنت أنا وأنت وهى فى فصل واحد فى «مدرسة الأمريكان الابتدائية» ، لكنها لم تكن علاقة بالمعنى الصحيح المعروف لدى المحبين ..

– إذن فماذا كانت تلك العلاقة ؟..

– من طرف واحد يا «فريد» .. من طرفى أنا .. لم تكن هى تشعر بشئ منها ... وهل كنت تعتقد أن فتى نحيلا ذا نظارات سميكة ، وسحنة أميل إلى السمرة ، وكسولا فى دراسته، كان جديراً بأن يلفت نظرها كما حدث «لفريد الحلوانى» أول الفصل ؟؟..

– وبعد ذلك ؟..

– ظلت جرثومة حبى لها تنمو فى حقل الأوهام ، وأنا أغذيها بأحلامى وآلامى ، حتى صحوت بالأمس على حقيقة هزتنى بعنف لكنها ردتنى

إلى الصواب .. لقد تبين لى أن الحبة المدفونة فى الأرض لا يجديها السماد إذا حرمت الماء ؛ كما أنها تذبل وتصفر إذا اكتفت بالماء دون المخصبات .. تماماً مثل الحب من طرف واحد يا صديقى العزيز .. ولقد تبدت لى هذه الحقيقة الواضحة جلية حينما كنت تحدثنى عن علاقتك مع « نهرة » ، وخطاباتكما الملتهبة ، وأمانيكما العذبة وحبكما الطاهر السعيد ... كنت أرى وجهك يشرق بالأمانى بقدر ما تخبو وقدتها فى قلبى ، وكنت أسمع نبرات صوتك المرتعشة بالحنين والحب فيبكى قلبى ، ويشيع مأتماً دامياً فى حناياه .. آه ، إنها لحظات قاسية يا صديقى ،رأيت أنت جزءا من ألف منها لمجرد منافسة « عبد الرحمن افندى » لك ،أما أنا فشربت الكأس ولم أترك به قطرة واحدة ..

وسادت فترة أخرى من السكون قطعها فريد قائلا :

— لقد قطعنا مسافة طويلة بعيداً عن البلد ، والساعة الآن حوالى العاشرة مساء وأعتقد أن العودة أحسن من السير فى هذا الظلام الدامس ..

قال « عبد المجيد » :

— سنعود حالا ، لكن بعد أن ننتهى مما نحن بصدده ..

— هل بقى شئ ؟؟...

ولاحظ « فريد » فى هذه اللحظة أن « عبد المجيد » يجفف دموعاً تساقطت على وجنتيه ، فصمت ولم يفه بكلمة ، بينما قال « عبد المجيد » :

— قد تكون مندهشاً وحانقاً لأول وهلة بسبب ماقلته لك .. لكن لاتنس ما قلته لك .. نحن بشر ، وعواطفنا كثيراً ما تخرج عن إرادتنا ، وتفلت من سلطاننا .. وليس علينا حينذاك إلا أن نقاوم ، وندعو الله أن يرعانا .. وأنا أقسم لك أن الموضوع انتهى بالنسبة لى ، لم يعد هذا الحب القديم يؤرقنى بعد الساعة .. وإخلاصى وحبى لك سيزداد أضعافاً مضاعفة وإذا قلت لى حطم جمجمة « عبد الرحمن افندى » لحطمتها فوراً من أجل

سعادتك ... إن من يتدخل بينكما ويفسد حبكما لجدير بكل سخط وزراية .
يا لها من جريمة منكرة بشعة ..
ثم التفت « عبد المجيد » إليه باهتمام ، وهتف من كل قلبه بنغمة يملأها الإخلاص والحب والثقة :
— « فريد » !...
— نعم !...
— هل ما زلت تثق فى ؟...
— أكثر من ذى قبل
— ألم أجرح قلبك بهذا الهذيان الذى قلته لك ؟...
— بلى ، لكن هذا الجرح شفى سريعاً ..
— إذن فنحن صديقان وفيان إلى الأبد ..
— إلى الأبد !..
— تعال هنا بجانبى لأقبلك !..
— هاك رأسى ووجهى ..
— وهاك رقبتى وقلبى وكل ما أملك ..
وبعد هذه الموجة العاطفية قال « عبد المجيد » :
— سأسافر غداً وستلحق أنت بى بعد أن تنتهى من عملك هنا .. لكن دعنا من السفر الآن .. لقد حضرتنى حادثة طريفة ..
— ما هى ..؟
— أتذكر حينما ألفنا من بيننا جمعية وسميناها « جمعية الحب » ؟
— متى كان ذلك ؟..
— كنا آنذاك فى مدرسة « سنباط الابتدائية » ، وكنا أطفالا أغرارا ، نأخذ الأمور أخذاً هيناً بسيطاً ، وقال أحد الزملاء يومها : ومن نحب ؟
فرد صاحب الاقتراح قائلا : نحب « نهيرة » ..
— كلنا ؟..

– أجل ، كلنا ..
– أنا أحب عينيها اللتين تشبهان عيون بنات الحور ..
– أما أنا فأحب شعرها الذى يشبه شعر الجنية الساحرة .
– خذوا ما شئتم لأنى أحب شعرها الحلو الجميل .
– ولى أنا أنفها الذى يشبه البلح الشامى .
– أحب لونها الخمرى الجميل ..
وهكذا « يا فريد » كان كل منا يحب فيها جزءاً بعينه ، أما أنت فقد كان لك كلام آخر ، ما زلت أحفظه عن ظهر قلب ..
– أنا شخصياً لا أذكره ..
– لقد قلت إنك تحبها كلها .. أنفها .. شعرها .. ثغرها .. لونها .. كل شىء فيها يدعو للحب .. فقالوا لك : يا لك من طماع لا تقنع ...
– وماذا قلت أنت يا « عبد المجيد » ..؟
– أنا قلت إنى أحب روحها الخفيفة المرحة .. لكن الأولاد قاطعونى ساخرين ، ولن أنسى ما قالوه لى ..
– بماذا علقوا ؟..
– قالوا إننى لا أنفع معهم فى جمعية الحب ؛ لأنى سأكون سبباً فى فشلها ، فأنا على تعبيرهم « مهكع » و « مسلوع » .. لقد بكيت يومها كثيراً . ولما رأتنى أمى وأنا أبكى ، واستفسرت عن السبب، قلت لها : أريد أن أعالج عند الطبيب، لأنى مهكع ومسلوع ، وأنا أريد أن أكون سميناً جداً حتى أملأ العين .. لكنها ضحكت من سذاجتى وقالت لى : يا عبيط ! إن السنط أرفع من الجميز ، لكنه صلب جامد لا تهزه العواصف .. فلم أقتنع بكلامها .. فوعدتنى أن تطعمنى كميات كبيرة من السمن والقشدة .. وها أنذا كما كنت بالأمس مهكعاً مسلوعاً لم أتبدل .. ويظهر أن شجرة السنط تأبى أن تتحول إلى جميزة ضخمة .. ها .. ها .. ها ..
كان « عبدالمجيد » يضحك ويقهقه وهو يتكلم ويقوم باشاراته

وحركاته التمثيلية كالمعتاد ، لكن « فريد » كان مطرقاً صامتاً لا يعلق إلا باشارات خفيفة ، وابتسامات مقتضبة .. كان « فريد » يعلم أن هذا النحيل يختزن فى أعماقه طوفاناً يوشك أن يهد كيانه ، ويكتسح الحواجز المصطنعة ، ولم تكن هذه الضحكات والسخريات إلا رذاذاً متناثراً من ذلك الطوفان الصاخب .. يا للمسكين .. إنه يجتاز محنة قاسية ، ويكافح أشق كفاح وأمره .. ليتكلم كيف شاء ، وليضحك ويسخر ، ويتذكر ما يحلو وما يمر من الذكرى ..

وخرج « فريد » عن صمته ورأى أنه من الأوفق أن يجاريه فى سخريته وهذره ، فقال « فريد » :

— المسألة ليست مسألة أجسام وأطوال وأعراض ، لأن زمن الاستعراض ومبدأ الطاوسية والاختيال والتسكع قد انتهى .. إن الفتاة اليوم كما يقولون تستعذب رائحة العرق والغبار التى تلتصق بثياب فتاها المكافح فى الحياة .. أصبحت مؤهلات الحب اليوم فكرا ناضجا ، ونضالا مشرفا ونجاحا فى معترك الحياة .. الحب الرومانتيكى بدعة ممقوتة فى عالمنا الحديث ، وما أرى فيك يا « عبد المجيد » إلا مناضلا حراً ، ومفكراً ناضجاً ، واقفاً على أعتاب المستقبل المشرف العظيم ..... ويا لها من مؤهلات ..

— أهى المجاملة أم هو العزاء ؟ إن كانت الأولى فلا بأس بها ، أما الثانية فلا تزيدنى إلا هماً وأسى ، وقد يكون فى العزاء إثارة دافعة إلى اليأس ..

— أنا لا أفهم معنى لهذا التحديد الذى لا يستند على شئ ذى بال ، المهم أننى أومن بما أقول .. لا لأنى من أنصار « ماركس » الذى يعزو كل شئ فى الحياة من تطور وصراع وعواطف إلى التفسير المادى التاريخ ، ولكن الحقيقة هى أن الحياة والحب والسعادة ليست للواهمين والمثبطين والغارقين فى الأحلام ...

الفصل الخامس

نزل « عبد المجيد » من الترام رقم ٤ عند ميدان السيدة زينب ، وكانت الساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر ، والحرارة ما زالت لافحة ، وحركة المرور قليلة والباعة وحلاقو الأرصفة وأصحاب الروايات الرخيصة والصحف يتحركون فى تكاسل وبطء ...

وألقى « عبد المجيد » بنظراته على ما حوله من عمارات وناس ثم وقفت نظراته أخيراً على المقهى المتفق عليه حيث يلتقون ، وقرأ لافتة المقهى بتأن .. «قهوة السمر» – وهى تقع فى أول شارع قدرى باشا ويؤمها بعض كبار الموظفين وغيرهم من ذوى اليسار ...

وهمس « عبد المجيد » لنفسه :

– لم يزل أمامى متسع من الوقت – أكثر من ساعتين – قبل أن يحين موعد اللقاء ..

وأحس بآلام الجوع تعتصر معدته ، وتذكر أنه لم يتناول وجبة الغداء بعد . فلم يتردد فى الدخول إلى مطعم شعبى بالقرب منه ، فكثيراً ما يلج أمثال هذه الأماكن كلما عضه الجوع بنابه .

– حسناً . سأقضى هنا حوالى الساعة ، ثم أخرج لقضاء صلاة الظهر والعصر فى مسجد السيدة زينب ، وأظل هناك حتى يحين الموعد ..

وتنهد « عبد المجيد » بصوت مسموع وهو يجلس على المقعد الخشبى بالمطعم . حينما تذكر أن فى هذه الساعة بالذات ، تقوم الاستعدادات على قدم وساق فى « شرشابة » للاحتفال بخطبة « فريد الحلوانى » « لنهرة »

– هأنذا كالمطارد الشريد ، لا أعرف لذة فى ترحال ، ولا أشعر بمتعة فى إقامة .. لقد كتب على الحرمان والشقاء .. يا للأقدار .. تبتسم

فى وجوه وتهب لها الأمل والحياة ، وتكفهر فى وجوه أخر وتعصف بأحلامها ..

ثم قطع على نفسه الاستطراد فى مثل هذه الأفكار ، وكور يده وضرب بها على المنضدة الخشبية التى أمامه ، وقال فى غيظ :

– أكل هذا من أجل امرأة ؟.. يا للضعف والخور .. الشوارع ملأى بالنساء من كل صنف ولون .. والبيوت كذلك تغص بالفتيات .. ما هذه الحذلقة الفارغة ؟.. ألا تطوف بأوهامك وأحلامك إلا حول « نهيرة » ؟.. إنها امرأة ككل النساء .. لكن .. لتكن يا لها من امرأة ذات سحر وجمال وكنه لا أعرف لتأثيره تفسيراً .. لكن « نهيرة » أميرة من أميرات السحر والجمال ، ومع ذلك أأفكر فيها ، وأحوم حول خيالها بأفكارى إلى هذا الحد ؟.. إنه « فريد » ... لعنة الله على النساء ... أى شيطان غرس فى نفسى هذه الهواجس المجنونة ؟..

وأقبل النادل :

– ماذا تحب أن تأكل يا محترم ؟...

– نعم ؟...

– طلبات السيادة ...

– واحد فول وطعمية ...

وعاد « عبد المجيد » يحدث نفسه :

– كان جديراً بى أن أدع هذه الخواطر والأفكار فى «شرشابة » وألا أعود إليها هنا .. لكن يظهر أن عواطفنا تفرض سلطانها علينا ، ولا بد أن يسلس لها قيادنا حتى يهدأ أوارها ، وتخف حدتها .. الاستسلام مطلوب فى كثير من الحالات ، ولا جدوى فى المقاومة .. فى بعض المعارك تكون الخطة المثلى هى رفع الراية البيضاء .. نعم سأسلم نفسى للأمواج تندفع بى أنى شاءت ، فقد تدفعنى إلى الشاطئ يوماً ، لكن ماذا لو قذفت بى هذه الأمواج إلى حيث الدوامات العنيفة والأعماق الرهيبة ؟.. لا بأس ، إما

النجاة وإما الغرق ، ففى أى واحد منهما راحة، أما البقاء هكذا بين بين ، نهباً للحيرة والارتباك ، والبقاء على شفا الهاوية فهو العذاب الذى ما بعده من عذاب ....

— فول وطعمية ياأستاذ .. طلبات أخرى؟.. هنا فجل وكرات وجرجير .

— هنا جرجير ؟..

— لحظة واحدة ...

ووقعت عين « عبد المجيد » على عنوان بارز فى الصحيفة التى فى يده ، كان العنوان يقول « وكيل نيابة ينتحر لأن زوجته رفضت السفر معه إلى الصعيد .. المنتحر يكتب فى خطابه : أحببتها بحرارة فقابلتنى بالبرود وعدم الاكتراث ... »

وهمس « عبد المجيد » لنفسه :

— إنه لحمار .. حمار كبير .. ولم الانتحار ؟.. أتكون خيبة الآمال مدعاة للتخلص من الحياة ؟.. إن ذلك جبن وفرار من المعركة .. على الإنسان أن يداوى جراحه، وينفض عن ثيابه الغبار ويخطو من جديد ، فقد يحظى فى الغد بما لم يظفر به فى الأمس .. أما أن يحفر لنفسه قبراً فهذا غباء .. أنا مثلا كان من الممكن أن أنتحر .. وماذا بعد ذلك ؟.. تطن من خلفى كلمات الرثاء والعزاء والأسف .. ثم ماذا ؟.. أيام قلائل ثم يطوينى النسيان وأمسى فى خبر كان ، و « نهيرة » تقضى لياليها بين ذراعى « فريد » عناقاً وأشواقاً وحبا .. لكن « فريد » .. إنه لا بد أن يبكى من أجلى بحرقة ، إنه صديقى الحميم ، ويحبنى كما يحب نفسه التى بين جنبيه ، ومن يدرى لعله يخبر « نهيرة » بقصة حبى لها ، فترثى لحالى ، وتذرف بعض الدموع من أجلى .. إنها تحب الإحسان إلى البائسين من أمثالى ، وما أغلى الدموع لكن لن يطول البكاء ، فلكل شئ نهاية .. ومن أنا حتى ألزم الناس بالنحيب وإقامة المآتم من أجلى إلى الأبد ؟... « عبدالمجيد » .. أو حتى الأستاذ « عبد المجيد » .. تشرفنا .. ما أنا إلا ذرة حقيرة فى هذا العالم

الكبير ، أو قطرة ذليلة فى المحيط العظيم ، ولن يخسر العالم شيئاً بفقدان ذرة ، كما لا ينقص البحر شيئاً بتبخر قطرة منه .. يا إلهى ! ما معنى هذا الكلام ؟.. أرانى اندفعت إلى أبواب خطرة من التفكير لا طائل تحتها .. و..

— الجرجير يا أستاذ ..

— متشكر ..

— تسمح الجريدة دقيقة واحدة ..

— تفضل ..

وناوله « عبد المجيد » الجريدة ، بينما امتدت يده إلى الرغيف ليبدأ أكله ...

— ابن مجنونة صحيح ..

فرد « عبد المجيد » قائلا :

— من تقصد ؟...

— هذا المنتحر المحترم .. العلم نور يا أستاذ .. لكن العلم وحده ليس بكاف .. وكيل نيابة ، ومستقبل عظيم ، وشباب ناضج ، ومع هذا يقذف بنفسه إلى داهية .. صحيح العلم ليس كل شئ ..

فقال « عبد المجيد » وهو يزدرد الطعام :

— وماذا غير العلم ..؟

— الإيمان .. الإيمان بالله يا أستاذ .. إنه عصمة ..

ثم قبل النادل يده ظهراً لبطن وهو يقول :

— الحمد لله .. ما زلنا حامدينه وشاكرين فضله ، والله لو أن أم حنفى ..

— من أم حنفى هذه ؟..

— زوجتى مع اللاموأخذة ... لو أنها مثلا رفضت الانتقال معى إلى الاسكندرية لكانت علقة واحدة كفيلة بردها إلى الصواب ..

— ليس هذا زمن ضرب الأزواج ..

– من قال ذلك ؟..

– منطق العصر الحديث ..

– ها .. ها .. ما دخل العصر الحديث بيني وبين أم حنفي ؟. هذه سياسة ترضي الطرفين ومتفق عليها ..

– بعض الناس لا يتفقون على مثل هذه السياسة ..

– لازم يا أستاذ يكون هناك فرق بين الرجل والمرأة ..

– أليس هناك فرق غير الضرب والقدرة على استعباد الجنس الضعيف؟

– طبعاً .. قالوا البقاء للأقوى .. وليس البقاء للمنتحرين .. والدنيا لا يستقر لها قرار إلا إذا كان هناك حاكم ومحكوم .. وسيادتك عارف أن الرجل طبيعي هو الحاكم .. لا تطلب منه الوقوف مكتوف الأيدي ، فسيفقد صفة « الحاكمية » ، لكن اطلب منه العدل والإنصاف .

– لكن ألا ترى أن العلاقة لو قامت بين الزوج والزوجة ، على أساس الصداقة والاحترام المتبادل والمشاركة في الكفاح كان أجمل ؟..

– لا بأس في ذلك ، هذا ممكن حدوثه أيضاً بين الحاكم والمحكوم .. فضحك « عبد المجيد » وقال :

– وإذا لم يجد الضرب مع أم حنفي فماذا تعمل ؟..

– ربنا يرزق ويبدل المرأة عشرة .. مثنى وثلاث ورباع ... ومثل هذه المرأة التي لا تحترم إرادة زوجها ، ولا تقدر ظروفه ولا تريد أن تعيش وتكون أماً .. الموت أولى بها من الحياة .. وماذا تريد المرأة من الرجل ؟. تأكل وتشرب .. وتنام .. وتربي الحمام ..

– الحمام ؟...

– نعم ... حنفي وأخوات حنفي كلهم زغاليل ... يا ميت صلاة النبي ... ربنا يرزقك ببنت الحلال ، وبحمامتين أو أربعة ، وسبحان العاطي الوهاب ..

— إذن فأنت غير راض عن وكيل النيابة المنتحر ؟...

— طبعاً .. إنه أغضب الله والناس .. وترك التعاسة والبلاء لأهله .. لأمه المسكينة وأبيه الشيخ .. أما زوجته فقد تبخل عليه بالدمعة الواحدة ، وستجد غيره .. يا أستاذ العقل زينة .. أستأذنك .. زبون جديد داخل المحل. ثم قال بصوت ممطوط : « تفضل ! » ...

وتمتم « عبد المجيد » : كلام معقول ......

• • •

لم يكد « عبد المجيد » يرتشف جرعات من زجاجة المشروب المثلج أمامه فى مقهى السمر حتى لمح « بسطويسى » أو الشيخ « بسطويسى » مقبلا من بعيد يخب فى قفطانه وكاكولته ، واضعاً على رأسه عمامتــه المحبوكة ، وعلى عينيه نظارته السوداء زيادة فى الوجاهة والمهابة والاحترام ..

— أهلا أهلا شيخ « بسطويسى » .. أشرقت الأنوار ..

— يا مساء الفل يا أستاذ « عبد المجيد » .. والله زمان .. شهر كامل يا رجل لم نرك فيه .. إنك لقاسى القلب ...

— كيف الأحوال ؟ فى غاية الشوق !...

وصفق « عبد المجيــد » فأقبل النادل مسرعاً ليلبى طلبات « الشيخ بسطويسى » .

و « بسطويسى » شاب أزهرى فى كلية اللغة العربية ، قصير القامة ، متين البنيان ، يحرص على التكلم باللغة الفصيحة ، ويكثر من الاستشهاد بمأثور الشعر والنثر ، لا تفوته مشكلة إلا ويفتى فيها بالحلال والحرام ، لكنه مع ذلك مرح يحب النكتة ، وقد يتمادى فى هذره ، فيتبادر إلى الذهن أنه لا يمت بسبب إلى التقليد الأزهرى المتحفظ اللهم إلا زيه الرسمى ..

— ولكن لم لم يأت « فريد » ؟ لعل المانع خير ؟ .

— وأى خير « يا شيخ بسطويسى » .. على العموم سنتحدث عن ذلك فيما بعد ..

— صدقت .. لعلك قضيت فترة جميلة فى « شرشابة » .. لقد كان ذكركم دائماً على أفواهنا .
— تقصد أننا من الذين إذا حضروا لم يذكروا . وإذا غابوا افتقدوا ؟.
— كلا بل أنتم نجوم السعد ، مذكورون دائماً سواء غبتم أو حضرتم ..
— العفو .. العفو .. هيه .. وكيف حال فرحات ؟..
— كان فى غاية القلق لغيابكم ، وسيثور عندما يعلم بتأخير « فريد » .
— لا داعى لغضبه لأن « فريد » سيأتى إلينا فى بحر يومين ..
— إنه ينتظركم فى شارع الصليبة .. فى شقتي ..
— لم ؟.. هل غيرت سكنك ؟..
— طبعاً .. الشاعر يقول : « وإذا سكنت بمنزل ليس به .'. بنت تبادلك الغرام فعزّل »
فضحك « عبد المجيد » وقال :
— حتى أنت يا بروتس ..
— بروتس من هذا ؟..
— واحد من خلق الله ..
— ملعون أبو بروتس الكبير .. خلنا هنا .. أتعيب على الغرام وأنت نحيل الجسم من الهوى والهيام ؟..
— اسمع « يا شيخ بسطويسى » .. هل الحب حلال أم حرام ؟..
فقهقه الشيخ « بسطويسى » وزحزح عمامته إلى الخلف قليلا ثم قال :
— إذا كان الحب حراماً .. فالكراهية والحقد إذن هى الحلال .. ما لمقاييسكم هكذا مختلة ؟.. يظهر أن الناس على دين ملوكهم حقيقة :. فما دام فاروق قد اختلت فى حكمه الموازين وما دام السادة الزعماء قد قلبوا المعايير رأساً على عقب ، فلا عجب إذا حرم الحب وأبيحت الكراهية . الويل لك « يا بسطويسى » من هذه الأمة المغلوبة على أمرها ..

— ماذا جرى يا شيخ ؟.. أهى خطبة منبرية ، أم محاضرة وعظ ؟.. أنت فاهم ماذا أقصد بكلمة الحب .. الحب إياه ؟..

وغمز « عبد المجيد » بعينه ، بينما ضحك « بسطويسى » وغمغم :

— الحب حلاوته بالقنطار ..

— عيب « يا شيخ بسطويسى » ..

— ما عيب إلا العيب .. على العموم الحب الحلال حلال والحب الحرام حرام ..

— أوضح ولا داعى لهذا الإبهام ..

— المسألة فى غاية الوضوح ..

— سأوضح لك أنا .. ما رأيك فى الحب الذى تظهر أعراضه على هيئة نزهات فى الحدائق ورحلات إلى القناطر ، وزيارات إلى السينما ، وإشارات من النوافذ ، وخطابات معطرة ؟..

— إذا لم يتجاوز الحب هذه المظاهر فلا لوم ولا حرج .. إنما الأعمال بالنيات — يا « عبد المجيد » — وإنما لكل امرئ ما نوى ..

— أراك تلف وتدور بلا طائل ..

— لأن الحب عندى لا يزيد عن « صباح الخير يا شيخ بسطويسى .. اقرأ لى الجواب يا عم الشيخ .. اقرأ لنا الفاتحة يا بسطويسى » ..

— أهذا كل ما فى الموضوع ؟ كلام فقط ؟..

— وماذا تريد منى غير ذلك ؟.. أى حب تقصد ؟.. إننا نرجو الستر ، ونجرى وراء لقمة العيش .. إن الحب الذى تسمع عنه فى الكتب وعلى الشاشة ترف لا حاجة لنا به .. دعنا من هذا .. والله سلامات «يا عبدالمجيد» .. والشغل ماشى عال .. والأصدقاء زادوا .. وفرحات لا ينام الليل من التفكير والإعداد .. وأنا كتبت قصيدة حماسية جديدة .. اسمع :

يا اخوتى أشبال مصر يا تباشير الصباح !...

يا بسمة الفجر الوضئ على الروابى والبطاح !...

غداً تدق طبولنا يوم المسير إلى الكفــاح !...
وغداً تفيد ....

ــ على رسلك « يا شيخ بسطويسى » .. لقد صدعت رأسى .. دعك من هذا الشعر أو هذا الهوس بمعنى أصح .. انتهى عهد الكلام يا شيخ .. لقد شبعنا خطباً وقصائد .. ألم يكفك عشرات المجلدات؟ .. لن تكون أخطب من مصطفى كامل أو سعد ، ولن تكون أشعر من شوقى وحافظ .. لكن بخطة ناجحة وقطعة سلاح متينة تستطيع أن تكون أفصح الفصحاء ، وأقدر البلغاء .. يسقط « بسطويسى » وشعر « بسطويسى » ..

وضحك « عبد المجيد » ولكن الشيخ « بسطويسى » لم يضحك ...

إن أقسى ما توجهه من إهانة لصاحب الفن الجميل هو ألا تنفعل بفنه ، فما بالك بمن يسفه هذا الفن ، وينال منه بالسخرية المرة ، والمهاجمة العنيفة ؟..

ــ يؤسفنى يا « عبد المجيد » أننا لم نفهم بعد حقيقة معركتنا ، وحقيقة دور كل واحد منا فيها .

ــ ماذا تعنى ؟..

ــ أعنى أن معركتنا ضد الملكية والاستعمار ، تحتاج إلى تضافر كل القوى ، وتعبئة كل المجهودات ، وحشدها فى ميدان واحد . فالشعر والخطابة والرسم والتصوير والقتال والتعليم كلها أسلحة لا غنى لنا عنها ، وجمود عاطفتك إزاء الفن ليس معناه عدم أهليته ليخوض المعركة .. ليتك تسمع أحاديث الضابط فرحات السروجى عن روسو وفولتير وغيرهما ممن مهدوا للثورة الفرنسية ، وعن جوركى وتولستوى وما قدماه للثورة الاشتراكية فى روسيا .. هؤلاء كانوا طلائع الكفاح ، والشعاع الذى أضاء الطريق للأحرار .. لم يقل الناس عنهم أنهم مهووسون يهرفون بما لا يعون ، بل أقاموا لهم تماثيل التقدير والإعجاب فى قلوبهم قبل أن يقيموها فى ميادينهم ... ألست معى فى ذلك ؟

– إذن لهذا السبب كنت المكلف دائماً بكاتب المنشورات .. وصاحب الشعر الرنان ؟.. لم أكن أعلم أنك الحبر الفهامة، والبحر العلامة ، وفريد العصر والأوان ، وفولتير هذا الزمان ... وافرحتاه .. لنا الفخر ..

– إنه دور أقوم به ، فماذا تود أنت أن تعمل ؟..

– التربية .. التعليم ، وأعنى تعليم الحقائق المجدية ، حتى نخطو فى ميادين الصناعة ونفهم اقتصادنا ومجتمعنا ومشاكلنا ، لا كما يريد الاستعمار أن يفهمنا إياها ، ولا كما يريد الشعر أن يوهمنا بها ، لكن ندرسها ونمحصها على حقيقتها ..

– إذن فعلينا أن نجمع ملايين الشعب المصرى فى فصول دراسية تمتد من البحر الأبيض حتى السودان .. أنستطيع ذلك ؟..

– بل نستطيع أن نقيم فى كل زقاق وفى كل بيت وفى كل مجتمع مدرسة .. وأقصد مدرسة بمعناها الكبير ، لا تلك التى تحدها الجدران، ويسوسها ناظر ومدرسون ..

– ليس هناك – فيما أظن – تناقض بين وجهتى نظرنا ، فنحن نكاد نكون متفقين ... فلا بد كما قلت من تضافر القوى ...

فاستطرد « عبد المجيد » :

– نحن فى حاجة إلى ثقة الناس فينا ، ونحن كمكافحين يجب أن نكون قدوة لهم ، ونبادر بتقديم الخير لهم حتى ولو قابلونا بالشر... يجب أن نكون كباراً فلا نحمل ضغينة لحزب من الأحزاب ... بل ننظر إليهم كتائهين يتلمسون الطريق ، فنأخذ بأيديهم معنا ولا نناصبهم العداء ، يجب أن نكون جبهة واحدة .. فأنا أرى « فرحات السروجى » مثلا لا يجرى على هذه الوتيرة بل يندفع فى عدائه ثم يتمادى فى صداقته فى كثير من الأحيان ..

الفصل السادس

تنفس « فريد » الصعداء ، وشعر بالراحة الممزوجة بالسعادة تسرى بين جوانحه ، فتصبغ كل شئ حوله بالبهجة والجمال ، وأخذ يستعيد أمام فكره صورة هذه الليلة الخالدة بما فيها من أفراح شملت الجميع ... « نهيرة » بابتسامتها الحلوة ، والبشر الطافح على وجهها ، وأمها التى تربت على كتفه فى حب وإشفاق بالغين ، وجدته « أخوات » وهى تقبله ، وتصر على أن تكرر القبلة رغم توسلاته بأن تكتفى بواحدة ، وأمه وقد تناست مرضها وشقاءها ، ولم تعد تذكر إلا « فريد » وخطبة « فريد » ، والسعادة التى تشمل الجميع ، ووالده « الحلوانى » وهو ساكن هادئ ، لكن ملامحه تعبر عن أقصى مدى للسرور .. أما أخته « ريحانة » ، فقد أرسلت الزغرودة تلو الأخرى ..

وهكذا مرت ليلة الحلية بألوانها البهيجة على خير ما كان يرجو فريد . . غير أن عبد الرحمن افندى الغريم العنيد ، أقبل على فريد بعد انتهاء الحفلة مسلما وقال :

— ألف مبروك يا أستاذ فريد

— بارك الله فيك

وكان « فريد » وهو يرد عليه متلعثما مضطرباً ، لا يدرى كيف يتصرف ، وشعر بشئ من الكدر والضيق لا يستطيع الفرار منه ، لكنه تماسك وتمالك أعصابه حتى يتقن تمثيل دوره ، وينهى الأزمة بسلام ، ورحم الله الماضى وآلامه ...

— يا « فريد » المسألة قسمة ونصيب .. ولن يأخذ أحد منا إلا ما كتب له ..

فأجاب « فريد » باقتضاب يشتم منه رغبته فى سرعة إنهاء الحديث :
— أجل .. أجل ..
— ونحن إخوة لا شك فى ذلك ..
— لا شك ..
— وإذا كان هناك ما يحفظك على فأرجو أن نصفيه حتى نبدأ عهداً جديداً ...
— لا شئ .. لا شئ على الإطلاق ...
— بل هناك أشياء لا شئ واحد ...
— أرجوك .. انتهى كل شئ .. وأعتقد أنه ليس هناك ما يدعو إلى مزيد من الحديث ..
— أظن أن هذا طريق غير سليم لإنهاء المناقشة، وخاصة أنى حريص على أن تسود العلاقة الطيبة بيننا ..
فقال « فريد » فى ضيق ونفور :
— كفانا هذا القدر من المناقشة ...
وتذكر « فريد » ما بلغه من تصرفات « عبد الرحمن افندى » الخرقاء ، وسلوكه الذى لا يدل على رجولة، فثارت الدماء فى عروقه ، ولم يستطع أن يكظم غيظه ، فصرخ فى وجهه قائلا :
— أنسيت يوم قذفت أبى بقطعة الطباشير ، وغمزت له باحدى عينيك وأشبعته « تريقة » وسخرية أمام التلاميذ حتى أضحكتهم عليه ؟..
وحاول « عبد الرحمن » أن يقاطعه ، لكن « فريد » استطرد قائلا :
— إن أبى فراش شريف فى المدرسة ، وليس موضعاً للغمز واللمز !...
— أقسم إنها لوشاية .. أوصلت بى الحال إلى هذا الدرك ؟...
— هذا ما علمت ..
— سل والدك ..

– إن والدى رجل مسامح لا تضيره هذه الصغائر ، فضلا عن أنه لا يتفوه بها على الإطلاق .

– أرجو ألا تجرحنى بسياط تقريعك .. وليس أمامى إلا أن أقسم لك ببراءتى من كل ما يدور من شائعات عنى .. وما ذنبى ..؟ إننى لا أستطيع أن أكم أفواه الناس ، أو أحصى عليهم زلات ألسنتهم .. أما من ناحية « نهيرة » فـ ....

لكن فريد سارع وقاطعه قائلا :

– من فضلك لا تتعرض لموضوع لا يهمك .. ليس لك الحق فى ذلك ..

– لكن ..

– أرجوك .. أصبحت « نهيرة » زوجتى ، وموضع كرامتى ، والحديث عنها من قريب أو بعيد لا أسمح به على الأقل فى حضورى ..

وضغط «عبد الرحمن افندى» على أسنانه وشعر كأن مدى حامية تمرق فى صدره وتمزق نياط قلبه، وتمنى لو يقبض على عنق « فريد » ، أو ينشب فيه أظافره ويشرب من دمه ، حتى يشفى غليله ، ويطفئ النار التى تتقد بين جوانحه ، وهمس لنفسه : « نهيرة » زوجتى .. لك حق يا ابن « الحلوانى » يا ابن الـ .. أصارت لك زوجة انتزعتها رغم أنفي؟.. سترى ، وسأعرف كيف أجعل حياتك وحياتها جحيما لا يطاق .. أأنا مجنون ؟؟ ما الذى دعانى للقائه والتحدث معه ؟؟ أهى الغيرة التى قد تعمى ؟ أم الحقد الذى لا يعقل؟.. « نهيرة » زوجتى .. ها .. ها .. ها .. ملعون أبوك وأبوها .. لكن لا بأس، على أن أتحمل ثورتك وكبرياءك ، إذ لا يليق بى أن أنهار ، وأفقد أعصابى أمامك أو أمام أى إنسان حتى لا أكون أضحوكة ومضغة فى الأفواه :. سوف أكظم حقدى وإن كان الحقد المكظوم يلتهم كيانى ويفنى طاقتى وحيويتى بلا رحمة ..

وأفاق « عبد الرحمن افندى » إلى نفسه فوجد « فريد » يهم بمغادرته :

– عن إذنك .. السلام عليكم ..

– أرجو ألا نعود لهذا الموضوع مرة ثانية يا « فريد » .. ونصير إخوة لا شائبة تشوب علاقتنا ..

– أرجو ذلك ..

وتذكر « فريد » كل ذلك فى جلسته كما قلنا ، وشعر بأن بغضه « لعبد الرحمن افندى » فوق مقدرته، إذ لا يستطيع الخلاص منه بسهولة ، إنه يتمنى أن ينسى « عبد الرحمن » وما صدر منه ، وأن يسدل ستاراً كثيفاً قاتماً على ذكراه ، ويتمنى ألا يحمل فى قلبه ذرة من بغض لأحد ، لكن ما الحيلة وهو كلما رآه أمامه فى صبح أو مساء تغيرت سحنته ، وزادت ضربات قلبه ، وتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه فى أسفل سافلين .. إن كل ما يتصل بالنساء دقيق وحساس ، والجرح الذى ينكأنه بأظافرهن لا يندمل إلا بأناملهن الحنونة .. لكن ما دخل « نهيرة » فى هذه الجراح ..؟ قطعاً لا دخل لها ، وليس هناك أى افتراض آخر .. إذن فلم الشك والغيرة وطائرى فى يدى يغرد لى وينقر الحب من كفى ، وأبادله حباً بحب وحناناً بحنان؟.. فلا أساس إذن لهذا الشك إلا إذا كان هناك عدم ثقة .. وهذا لا يمكن .. ولكن من أدرانى ..؟ نحن عادة لا نعلم إلا القشور ، ولا نلم إلا بالظواهر . ولو بحثنا خلف ذلك لأرهقنا أنفسنا ، أو لوجدنا ما لا يجدى نفعاً ... آه ، الدنيا كلها متاعب .. متاعب لا آخر لها ... يا رب ...

وشعر « فريد » بيد أمه تربت على شعره بحنان ، فالتفت إليها فوجد تقاسيمها تنطق بالانشراح الفياض :

– فيم تفكر ..؟ طبعاً .. ربنا يا حبيبى يتمم أفراحك .. ويحقق آمالك .. أتراني أعيش حتى أراك زوجاً وأباً ، ووكيل نيابة كبيراً ؟ ..

فقال « فريد » وقد تطلق وجهه :

– ما أقرب الأيام .. ليس أسرع منها فى المرور ..

– يخيل لى أنك تعبت الليلة ، وأرى أن تنام مبكراً ، لكن لا بد أن أرقيك قبل أن تنام .

ـ لقد سبقتك جدتى فى هذا .. وبالطبع لم أسمح لها إلا بعد أن أعطتنى الثمن كمية لا بأس بها من البطاطا ..

ـ والآن ألا تريد شيئاً ؟..

ـ أريد أن أسألك سؤالا .. هل تحبين « نهيرة » يا أمى ؟..

ـ سؤالك عجيب يا « فريد » .. من كل قلبى ..

ـ ولمه ؟..

ـ لأن مثلها لا بد أن تحب .. وجه مثل القمر ، وأخلاق تبارك من وهب .. وكلام أشبه بالمـــاء الزلال .. إنها بنت أكابر وبنت أصل .. ثم إنها تحبك بجنون وتحب كل من يمت إليك بصلة .. كلما زرتها تقبل نحوى مرحة ضاحكة وتقبلنى من كل جزء فى وجهى .. وتظل فى حركة دائمة لتحضر هذا وتدع ذاك من المأكولات والمشروبات .. وتنسى كل من عداى من صويحباتها وأقربائها فى حضورى .. وطبعاً هذا كله ليس من أجلى بل من أجل الغالى الحبيب « فريد » ..

فقال « فريد » فى استحياء :

ـ إذن فأنت معجبة بها لحد كبير ؟ ..

ـ وأى إعجاب .. آه .. لكم أتمنى بأن تعجل بالزواج حالا ..

ـ زواج ؟.. إن شاء الله بعد سنتين .. أنا ما زلت طالباً فى الكلية ، وفى اعتقادى أن الزواج المبكر قد يؤثر فى خط سير تعليمى فأتلكأ أو أتعثر ...

ـ على العكس .. الزوجة الصالحة تدفع زوجها للعمل والنجاح ..

ـ وهناك أمر آخر .. فمن أين لى بالمال الكافى لإعالة أسرة فى القاهرة ؟

ـ ربنا هو الرزاق .. فلا تحمل هماً من هذه الناحية ..

ـ هذه مسألة أنظر إليها بعين الاعتبار ولا أستطيع إهمالها .. وقد أبرمت أمرى فى ذلك وانتهيت منها ، فلا زواج إلا بعد نيل الليسانس ... وما رأى والدى فى هذا الموضوع ؟..

— أبوك تارك لك حرية التصرف الكاملة ، فلك أن تعمل ما تحب كما أنه لا يؤخر لك طلباً ، ولا يعوق لك رغبة !..

ثم حك « فريد » رأسه فى تفكير ، وقال :

— هناك أمر كنت أريد أن أفاتحك فيه ..

— خير إن شاء الله ...

— الأمر بسيط .. إن أصدقائى مصرون على إقامة حفلة لهم بمناسبة خطبتى وهم غاضبون منى لأنى لم أدعهم إلى الحفل ..

— أهذا كل ما فى الموضوع ؟ . . أنت وأصدقاؤك وكل أحبابك فوق الرأس والعين .. أطلب ما تشاء تجده بين يديك .

— طبعاً هذا عهدى بك .. آخر كرم ، وآخر حنان ..

ووثب إلى رأسها يقبلها وهو يقول :

— ربنا يزيد ويبارك فى عمرك يا أحسن أم فى العالم .. وأرق قلب فى المعسكر الشرقى والغربى ..

— ماذا جرى يا « فريد »؟ أنحن فى نقطة بوليس ؟.. معسكر وشرق وغرب .. أتضحك على شيبتى يا بنى ؟ ..

— لا .. لا .. حاشا لله .. أقصد بالمعسكر الشرقى روسيا ومن معها ، والمعسكر الغربى أمريكا وأتباعها ..

— آه .. فهمت .. فهمت ، تقصد بلاد الانجليز وهتلر والأفرنج ..

فضحك « فريد » وقال :

— مضبوط !..

ثم قالت الأم باسمة :

— أتحسب أننى لا أعرف «بلاد بره »؟. انهم يتكلمون بالسبعة ألسن ، ويأكلون اللحم بدون ذبح لأنهم كفار .. لكن مالى ولهؤلاء الكفرة يا ولدى حتى تضعنى بينهم ؟..

—أبداً ، لا أقصد ذلك .. أقصد أنك فوق الجميع .. مثل مصر التى فوق الجميع أيضاً ..

— مصر .. اسمع يا بنى ، بر مصر لن يكسب أبداً ، ما دام فيه الانجليز .. فهم يأخذون خيرات البلد ، ولا يتركون لنا إلا النفايات ..

— هل رأيت أحداً منهم ؟...

— طبعاً.. فى أيام حرب «هتلر» كانوا مثل النمل عند قناطر زفتى ومحطة « دهتوره » وميت غمر .. فى كل شارع وفى كل مكان يا ولدى .. كم داسوا ناسا بعرباتهم الصفراء .. وكم قتلوا وخربوا .. وهل أنسى يوم أن أخذوا أبى — جدك — للسلطة ومات هناك ولم يعد ، وعشنا ننتظره أياما وسنين بلا فائدة ؟.. كانت أياماً سوداء .. والظالم له يوم .. إن كانوا أقوياء فالله أقوى منهم ..

— نعم لهم يوم ..

• • •

وفى اليوم التالى كان بيت « فريد الحلوانى » مليئاً بالضجيج والعجيج ، ما لا يقل عن عشرين شاباً أقبلوا للاحتفال بخطبة « فريد » سواء بدعوة أو بغير دعوة ، نكات لا تفتر ومناقشات لا تهدأ ، وضحكات مختلطة ، وتدخين تنعقد سحبه فى الحجرة الضيقة ، وتسابق إلى خطف أكواب الشربات الأحمر زميل .. يلقى أزجالا ، وآخر يترنم بقصيدة ، ثم صمت.. يتبعه قراءة قرآن من أحد الرفقاء الأزهريين ، يتلوه أغنية لأم كلثوم فى تقليد عاجز غير متكامل .. فوضى فى كل شئ ، وشباب فياض بألوان القوة ، ثمل بنشوة الحياة ، بسام للأمانى يعب منها بلا نظام أو تحفظ ..

قال أحدهم :

— نريد أن نعقد محكمة لمحاكمة « فريد الحلوانى »

ورد ثان قائلا :

— وها هو ذا الادعاء المقام عليه : أنه فى غضون الأجازة الصيفية لعام ١٩٤٧ أتى أفعالا تعتبر هدماً لنظام الصداقة وكرامتها واعتباراتها ، وذلك بالعمل على الشروع فى الزواج دون إذن منا ، ومن غير توجيه الدعوة إلينا نحن « مقاطيع » شرشابة وطلبتها ..

فقال ثالث :

— أوجز يا أستاذ . أوجز فالقضية معروفة والحكم فيها مفهوم سلفاً ولن يجدى دفاع « فريد » ولا سفسطته التى تعلمها فى كلية الحقوق ..

فقال الأول :

— نستطيع أن نوجز الاتهام فى كلمة واحدة : « التجاهل » .. تلك السياسة الخرقاء التى اتبعها معنا « فريد » .. ولا شك أن سياسة التجاهل هذه أكبر نكبة علينا وعليه ..

فابتسم فريد وقال :

— إن سياسة التجاهل أصبحت أمراً معترفاً به دولياً .. أنسيتم يوم ذهب رئيس وزراء مصر إلى مجلس الأمن مطالباً الانجليز بالجلاء عن مصر وتحكيم الدول فى هذا الأمر الخطير ، ثم عاد دون أن تنصفه الأمم الحرة ، فما كان منه إلا أن أعلن سياسة مصر الجديدة ، ألا وهى سياسة التجاهل التام للانجليز؟ .. تجاهلهم وهم بين ظهرانينا ، ولو أرادوا إخراجه من الوزارة لأخرجوه ولظل هو على تجاهله العظيم .. يا لها من براعة ..

— على كل حال الحمد لله .. لا أنت رئيس وزارة ولا نحن إنجليز فسياسة التجاهل هنا لا محل لها من الإعراب ..

وصاح أحد الزملاء بصوت عال :

— محكمـــة !...

فهب الجميع واقفين ، فسارع أحدهم قائلا :

— حكمت المحكمة على المتهم « فريد الحلوانى » بدعوتنا على مائدة الغداء غداً إن شاء الله مع غرامة قدرها ثلاثون قرشاً ثمناً للبيبسى كولا ...

وصفق الجميع وضحكوا وأظهروا سرورهم لهذا الحكم ، وصاح أحد الساخرين فى صوت جهورى :

– يحيا العـــدل ..

وعندما هموا بالخروج همس الزميل الساخر :

– البقية فى حياتك « يافريد » بلك .. فاكر الزواج لعبة يا حبيبى .. غداً تستجير ولا مجير ..

قال « فـــريد » :

– حياتك الباقية .. عقبى لك ..

– أستغفر الله يا رجل !... كفى أنت ... لن نقدم أكثر من كبش فداء واحد !...

الفصل السابع

شارع الصليبة ، المنزل رقم « ٠٠٠ » ، الضابط فرحات السروجى ، والشيخ « بسطويسى » و « عبد المجيد » وعدد من الشباب ، الجميع يجلسون فى صمت وترقب ، اللهفة ظاهرة فى عيونهم والإصرار تنطق به ملامحهم ، وفى صدر المجموعة جلس الضابط فرحات برأسه الأصلع وعينيه اللتين لا تكادان تستقران على أحد ، ووجنتيه البارزتين ، وشاربه الكث ، وبشرته التى تميل إلى السمرة .. وتكلم « فرحات » :

— أيها الزملاء ، واضح جداً أن الحالة تزداد سوءاً ، والملك يزداد طغياناً واستهتاراً فى أمور البلاد وأموره الخاصة ، والانجليز قد استقروا ناعمين فى منطقة القنال فى بحبوحة وأمن وسلام ، وزعماء أحزابنا ما زالوا كما هم يقبلون الأحذية التى تركلهم ، ويتمسحون باليد التى تصفعهم ما دامت تنثر لهم الذهب ، وتنعم عليهم بالسلطة الموهومة القذرة التى يعلمون بها الشعب كيف يألف الذل والهوان .. فالطريق — أيها الأصدقاء — كما ترون محفوف بالشوك والأخطار ، وهذا يتطلب منا مضاعفة الجهد ، ومداومة الكفاح حتى تسقط الملكية ، ونقضى على الإقطاع والاستعمار وننحى زعماءنا مشكورين ...

فرد الشيخ « بسطويسى » قائلا :

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها .. إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا

— أرجو ألا تقاطعنى يا « بسطويسى » لأن أمامنا عملا كثيراً اليوم .. وسأوزع عليكم الآن أيها الزملاء تقريراً وافياً عما حققناه من أعمال فى نضالنا ، ونأخذ رأيكم فيه ثم نسمع مقترحاتكم فيما يختص بالمستقبل .. خذ يا « شيخ بسطويسى » وزع ..

وانهمك الجميع فى قراءة التقرير بعناية وتأن ، بينما أخذت نظرات « فرحات السروجى » تدور بين الجميع لترى ما علا وجوههم من انفعالات وتعبيرات وظل هكذا حتى انتهوا من القراءة .

رفع « عبد المجيد » رأسه وتكلم :

— إننى أريد أن أعلم هل لنا فلسفة خاصة نسير عليها ، أم أننا نتخبط فى سيرنا ونمضى أينما تقذف بنا الريح ؟.. إن هناك كثيراً من المسائل غير واضحة فى أذهاننا ، لهذا ترانا نتصرف فيها تصرفات مضطربة ومتناقضة أحياناً ..

فرد « فرحات السروجى » بهدوء :

— رأيى واضح فى هذا الموضوع .. إن إدخال الفلسفات ، وحشود النظريات فى مسائل الكفاح الوطنى لما يعوقها ، ويدفع بنا إلى الجدل الفارغ والسفسطة التى لاخير فيها.. ومن نحن حتى نفرض على الشعب فلسفةمعينة ، ونرغمه على المصير الذى يمضى إليه ؟.. ونحن فئة من الشعب غاياتنا تتركز فى كلمات : إقامة جمهورية حرة مستقلة ، وإيجاد شعب واع متكافئ فى الفرص .. فاذا قامت الجمهورية ، أنهينا الجزء الأكبر من واجبنا .. أما الفلسفة الخاصة التى نقصدها ، فليس لنا فلسفة « ماركسيـــة » أو غير ماركسية ، ولا نازية ولا فاشية ..

قال « عبد المجيد » :

— أنا لاأقصد الفلسفة بنصوصها وجمودها ، وإنما أقصد خطة السير.. علاقاتنا مثلا بالأحزاب ، نظرتنا للأديان المختلفة فى بلادنا ، مسألة الكفاح المسلح ، سياسة المظاهرات والمنشورات .. كل هذه الموضوعات تحتاج إلى بحث ..

فقال « فرحات » فى صبر نافد :

— تستطيع أن تقدم إلى تقريراً مكتوباً بما تقترحه فيما بعد ..

— كلا لن أقدم شيئاً من هذا القبيل ..

فرد « فرحات » بلهجة حازمة غاضبة :

ـ إذن فماذا تريد ؟..

ـ أرجو ألا تثور .. يجب أن يتسع صدرك لى ، إن كنا ننشد النصر فعلا فعلينا أن نعتصم بالصبر وطول البال ، إننى أحمل روحى على كفى معكم ، وأشارككم نفس المصير ، فاستمعوا لى حتى نكون على بينة .. ونمضى على هدى ..

ـ إذن قل ما شئت ..

ـ أجل سأقول .. أنا شخصياً لا أوافق على كتابة تقرير ، وإنما أرجو أن نناقش هذه المسائل هنا حتى يفهم الجميع ويبدوا رأيهم فيها لا رأيك أنت يا سيد « فرحات » ..

ـ معنى ذلك أن لا تنفض الاجتماعات ولا بعد عشرة أيام ..

ـ ليكن .. حتى نعرف ما نريد ، وتتضح فى أذهاننا فكرتنا ..

ـ إن سياسة التردد ، وخطوات السلحفاة هذه أمقتها وأكرهها من كل قلبى .. أنتم جنود وعليكم التنفيذ .. ولا داعى لإضاعة الوقت .. ثم انك يا « عبد المجيد » أنت و « فريد الحلوانى » ، قد تكاسلتما فى المدة الأخيرة ، وأصبحتما تكثران من النقد ، ولا تقومان بواجباتكما ، حتى « فريد » هو الآخر بلغ به الإهمال أن يتأخر عن هذا الاجتماع الهام .. هذا عبث لا أقره .. لقد التفتما للحب والزواج فأشركتما بكفاحكما .. ماذا تريدنا أن نعمل مع الأحزاب ؟ كلهم لصوص ، وماذا تقصد من نظرتنا للأديان ؟.. نحن مصريون قبل كل شئ ، ووطننا المصرى يسع المسيحى واليهودى والمسلم ، أما عن الكفاح المسلح والمنشورات والمظاهرات فهذه مسائل تخضع للظروف والملابسات . اسمع يا « عبدالمجيد » .. نحن وراءنا عمل .. عمل لا مناقشات ، فاذا كان عندك شئ فلتقدمه مكتوباً وإنى أعدك بالاطلاع عليه والاهتمام به ..

ـ إنك لم تفهمنى تماماً ..

— ليكن .. أنا لا أوافق على الاستطراد فى هذا الموضوع أكثر من ذلك ، فما رأيكم أيها الأصدقاء ؟.. طبعاً موافقون .. أسرعوا فان غيركم فى انتظارنا ، ونريد أن نعمل عملا إزاء هذه المفاوضات التى تجريها الحكومة مع الإنجليز .. تلك المفاوضات التى لا يبدو لها نهاية ..

قال أحد الجالسين :

— أرى أن ترفع الجلسة خمس دقائق حتى تهدأ الأعصاب ، وينجلى هذا الجو الخانق .

أصوات : موافقون ..

وهمس أحدهم فى أذن الشيخ « بسطويسى » :

— تحرك يا سيدنا الشيخ .. أى حاجة .. قهوة .. شاى .. غازوزة .. كله جميل .. يا لك من جلدة .. أين الكرم يا أستاذ ؟ ..

فهب الشيخ « بسطويسى » قائماً وقال :

— أعوذ بالله منكم أنتم شياطين الإنس والجن ، ما دخلتم بيتا إلا خربتموه ، وما قابلتم صديقاً إلا جردتموه من أل والإضافة و تركتموه عارياً إلا من لذعاتكم وسخرياتكم ..

فرد الصديق :

— أكل هذا من أجل بضعة أكواب من الشاى؟ .. رحمة الله على الرجال .. أين مصباح ديوجين لنبحث عن الرجولة المفقودة ؟ .. آه .. متأسف .. نسيت أنك أزهرى ..

— لو لم أكن أزهرياً لوددت أن أكون أزهرياً .. نحن حماة الذمار وحصن الديار .. و. ..

— أوه .. عدنا للخطابة ... كفانا وجع دماغ .. إن لسانك لا يستقر فى فمك لحظة واحدة بغير حركة .. واحدة من اثنتين : إما أن تحضر الشاى ، وإما أن تنكتم وتجلس صامتاً ..

— الأمر لله .. عليه العوض .. أنت مصيبة وحلت بنا .. سأعمل

الشاى لكن على أساس أن يكون لكل اثنين كوب واحد ..

— موافقون .. ألم أقل لكم انه « جلدة » ؟.. منك لله « يا بسطويسى » ..

وقف « عبد المجيد » فى هذه الأثناء فى ركن منعزل من المشرفية التى تطل على شارع الصليبة وأخذ يفكر : ان « فرحات السروجى » لا يفسح صدره لأحد ، ويعتد بنفسه وأفكاره لدرجة خطرة .. وينظر إلينا على أننا أنموعة من الجنود فى فرقته.. أولئك الجنود الفلاحين .. يمين يمين ، شمال مجال ، قف قف ، هكذا يريد « فرحات السروجى » ، ولا يسمح لأحد شم يناقشه أمراً من الأمور .. هذا وضع خطير .. والأصدقاء كلهم له سامعون ، إذا قال ولا الضالين ، قالوا آمين .. شئ محير .. لكن من العبث أن أتحول كلية إلى مهاجمة «فرحات» ، فضلا عن أن ذلك سيوجه طاقاتنا إلى ما بيننا ، فنكب على مشاكلنا الخاصة فيما يتعلق بآرائنا وننسى القضية الكبرى .. الجمهورية.. يا لها من حلم عذب جميل..ترى هل تحققه الأيام؟.. ما أسهل التضحيات مهما عظمت فى هذا السبيل .. أترانا واهمين بجرون وراء السراب ، أم نحن طليعة التحرر والجمهورية فى شعبنا ؟.. ماذا يقول الناس عنا لو علموا ما نحن بصدده ؟ كلهم يتمنون ذلك ، لكنه يبدو لهم بعيد المنال أقرب إلى المستحيل .. لكن ما داموا يتمنون ذلك ففيم السكوت والاستسلام ؟.. الخوف .. ولقمة العيش هما المشكلة :.

وهنا شعر « عبد المجيد » بيد « الشيخ بسطويسى » تربت على كتفه :

— الشاى يا « عبد المجيد » .. لك أن تشرب نصف كوب فقط ..

— ما هذا الكرم الحاتمى يا سيدنا الشيخ ؟ ..

— قل لهؤلاء المتجنين الذين يزعمون أننى « جلدة » ..

— جلدة أمريكانى ..

— بايخة .. حتى أنت يا فروتس ..

— اسمه بروتس وليس فروتس ياشيخ « بسطويسى » ..

— بروتس .. فروتس كله سيان .. إننا لم نحرف الكلم عن مواضعه ،

ولم نعبث بقرآن ولا إنجيل ، ولا بتصريح خطير لكبير مسئول .. يا خبر اسود .. كفى .. لقد شربت ثلاثة أرباع الكوب .. عوضك على الله يا « بسطويسى » .. يا خراب بيتك يا « بسطويسى » .. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .، لقد طارت كوب الشاى .. لعنة الله على بروتس وفروتس ومن على شاكلتهما ...

ثم بان الجد على وجه « عبد المجيد » وقال :

— ما رأيك يا « بسطويسى » فى الكلام الذى قلته اليوم « لفرحات » ؟.

— كلام عظيم لكن ليس هذا وقته ..

— تعنى أن وقته فيما بعد .. أى عندما نتورط فلا نجدى حلول ولا ينفعنا رأى ؟ ..

— مالك هكذا تتمسك بالحرفيات ، وتنظر إلى المستقبل نظرة سوداء وتعمل ألف حساب لكل صغيرة ؟.. ان الذى يخاف الذئب لن يربى دجاجاً .. هكذا قالوا فى الأمثال .. و « فرحات » رجل خبير بمثل هذه الأشياء ، واسع المعرفة ، فيجب أن تثق فيه ..

— حتى أنت يا « بسطويسى » تسمى الحيطة يأساً ، والتدقيق حذلقة ؟ أنا لا أشك فى خبرته ومعرفته ، وثقتى به لا تتزعزع ، غير أنى أومن بأن تبادل الرأى ، وبحث الأمور منجاة من الزلل ، وعصمة من التورط ، إن ثقتنا « بفرحات السروجى » يجب ألا تكون بمثابة عصابة سوداء نربطها على أعيننا .. يجب أن نفهم وضعنا منه، فإما أن نكون شركاء وزملاء له فى الكفاح ، وحقوق الزمالة تقتضى المبادلة والمداولة والاحترام للرأى ، وإما أن نكون مجرد أتباع نؤمر فنطيع بلا تردد ولا مناقشة .. وهذه أنزه نفسى ونفوسكم عنها ..

— إن صلتنا « بفرحات » يا «عبد المجيد» تجمع بين الاثنين : زمالة وجندية مطيعة ..

— هذا ما أردتك أن تفهمه ، ويجب ألا تنسى واحدة وتذكر الأخرى على حسابها ..

— إذن فقد اتفقنا ..

فشى « عبد المجيد » إلى رأس « بسطويسى » وقبلها قائلا :

— إننى أقبل أعم رأس فى « الأوساط الأزهرية المطلعة » .. رأس الشيخ « بسطويسى » !...

فجذبها « بسطويسى » بسرعة وهو يقول باسما :

— عيب على ذقنى . لا تهزئنى ..

— لا تغتر يا شيخ .. هل تظنها رأس « كليب » ؟..

— يا لك من ثرثار ، لقد أوشك الشاى أن يبرد ، والشعب ثائر يطالب بالشاى .. ولا بد من أن نستجيب لرغبات الشعب .. فالأمة مصدر السلطات ..

— السلطات بفتح السين واللام ، فأنتم معشر الأزهريين لا تنسون بحر السلطة وجبل الطعمية اللذين ذكرهما سعد باشا ..

— اعبث بالألفاظ كيف شئت .. فالشعب مصدر كل شئ ..

— لا ترفع صوتك هكذا ، نحن فى المشرفية ، والمشرفيات المجاورة — مثل الحيطان — لها آذان ، وفيها عيون .. الويل لشعب ترصد حركاته ، محصاة كل تصرفاته ..

— حسن جداً .. لقد أصبحت خطيباً مثلى .. وافرحتاه ..

واندفع « بسطويسى » إلى الداخل ليكمل توزيع الشاى ، وأصوات المنتظرين تلح عليه ، وترجمه بالتعليقات والنكات المتلاحقة ...

° ° °

ثم عادوا ، للاجتماع ووزع « فرحات السروجى » على كل واحد منهم العمل المنوط به مستقبلا ، وأجاب على كثير من الأسئلة الموجهة من الأعضاء بصدر أوسع ، وصبر أعظم : فاستعادت الجلسة هدوءها وطبيعتها ،

أما بالنسبة لمقترحات « عبد المجيد » ، فقد اتفق مع « فرحات السروجى » على ميعاد يلتقيان فيه ، حتى يصلا إلى نتائج حاسمة سريعة ، كما أنهما اتفقا على أن يرسلا خطاباً موصى عليه إلى « فريد الحلوانى » حتى يعود بسرعة إلى القاهرة .. وعقب الاجتماع قال « فرحات » « لعبد المجيد » :

— أومستعد أنت للذهاب إلى طنطا فى آخر هذا الأسبوع لمهمة عاجلة ؟..

— كل الاستعداد ..

— حسناً .. يجب أن تنهى كل أعمالك هنا فى بحر خمسة أيام ..

ثم تلفتُ « فرحات » ونادى « بسطويسى » :

— وأنت يا « بسطويسى » ، ستصلى الجمعة فى الأزهر هذا الأسبوع ، فلا تنس أن تأخذ معك حقيبتك وتنثر كل ما فيها .. لكن عليك بالحذر..

فهز الشيخ « بسطويسى » رأسه موافقاً :

— أجل سأحذر .. وإن كان لا يغنى حذر عن قدر ..

— لا تتعلل بالقدر .. فأنت القدر بطاقتك وإرادتك وفكرك ..

— اتق الله يا سيد « فرحات » ، الإيمان بالقدر والقضاء عنصر هام من عناصر عقيدتنا السمحاء .

— أنا لا أكفر بالقدر لكنى أومن به على الصورة التى أرتاح إليها ، لا التى ترتاح إليها فئة المترددين والواهنين المتواكلين ..

فتمتم الشيخ « بسطويسى » :

— وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ..

* * *

كان « عبد المجيد » يمشى فى شارع خيرت وهو يشعر بشئ غير قليل من الفخر .. لقد أصبح ذا قيمة ، وصار لبنة فى بناء ضخم يأوى إليه الأحرار دعاة الجمهورية ، يكلفونه بالمهام الشاقة ويكلون إليه الأمور

الحساسة التي يتعلق مصيرهم بها ، لقد أصبح صدره مستودع أسرار خطيرة.. إنه يستطيع بكلمة واحدة أن يهز الدنيا ، ويشغل الصحافة ، ويقلب الرأى العام رأساً على عقب .. إن هؤلاء الذين يمشون فى شارع خيرت لا يعلمون مدى أهميته وخطورته .. يا لهم من سذج أغبياء !... لكن غداً يعلمون .. وغداً تدق طبولنا يوم المسير إلى الكفاح .. كما يقول الشيخ « بسطويسى » وهذه الفتاة .. انها تقف وحدها ، يا لها من جميلة ، وإن كانت أقل جمالا من « نهيرة » ... آه .. «نهيرة» ، تلك التى حطمت قلبي .. ما الذى أتى «بنهيرة» إلى فكرى الآن ؟ لنتركها الآن فى شرشابة تنعم مع « فريد » .. نحن هنا فى شارع خيرت .. ولقد أصبحت على بعد مترين من هذه الفتاة اللطيفة .. ما الرأى فى أن أصب فى أذنيها كلمة ثناء وإطراء وإعجاب ، والغوانى يغرهن الثناء ؟.. سأفعل .. إنها مغامرة لم يسبق لى مثلها ، قصارى ما تفعله هى إذا غضبت أن تلوى شفتيها ازدراء ، أو حتى تقذفنى بكلمة نابية .. لقد أصبحت بالقرب منها .. الفرصة أصبحت مواتية ... تشجع يا « عبد المجيد » .. إنها تجربة جديدة ، لكن يبدو أنها لذيذة .. مات حب « نهيرة » ، ويحيا حب « نهيرة » الجديدة ، تماماً مثلما قالوا مات الملك يحيا الملك .. أوه .. مالنا ومال السياسة الآن .. أقدم .. تشجع.. قلها يا « عبد المجيد ».. قد تنفتح لك أبواب الحب من جديد .. لتجرب حب الشوارع والنواصى ، بعد أن فشل الحب المحتشم البرىء .. إلى متى تكتم حبك؟.. أما كفاك درساً فى الماضى ؟.. تكلم ، لن تنهد الدنيا على رأسك، ولن يختل نظام الحكم فى البلد .. فما سر خوفك إذاً ؟ .. إن وجه هذه الفتاة ينم عن السماحة الطيبة .. إنها مادة خام .. تقدم ..

واقترب منها يا« عبد المجيد» ، وقلبه يدق بعنف وانفعال زائد ، وما أن حاذاها تماماً حتى وجدها تبتسم ، فتشجع ووقف وقال فى نغمة رقيقة :

– واقف وحيد يا جميل من غير سبب معقول .. عيني عليك يا غزال شارد ..

وسرعان ما صرفت وجهها عنــه ، وبدا عليهـا أنهـا قد أزمعت المسير ، فخيل إليه أن هذا نوع من الدلال الذى لا غنى عنه للفتاة ، لكن صفعة قوية رنت على قفــاه من الخلف ، فالتفت إلى مصدر الصفعة فاغراً فاه من الدهشة ليرى نفسه أمام شاب مفتول العضلات، يبدو عليه أنه ملاكم ، فمادت الأرض « بعبد المجيد » ، وغلى الدم فى عروقه ، وكأنما غشاوة رقيقة قد غطت على عينيه فرفع يده ليهوى بها على وجه الفتى ، فلم يجد نفسه إلا وهو طريح الأرض والفتى يقبل نحوه قائلا :

— لن أتركك إلا فى قسم البوليس حتى تتعلم كيف تحترم أولاد الناس فى الشوارع مرة أخرى ..

فهمست الفتاة :

— دعه ، وهيا بنا ، لا داعى للفضيحة .. تعالى حتى لا نتأخر عن البيت فتقلق أمك .

لكن الناس كانوا قد تجمهروا ، وعلى وجوههم علامات الاستفهام ، غير أنهم سرعان ما أدركوا الحقيقة .. شابان وفتاة ، فالقصة إذن مفهومة ، لأنها ليست الوحيدة من نوعها ، وتوسط « أولاد الحلال » حتى ينفض السامر على خير ..

ومضى « عبد المجيد » فى طريقه وهو يسمع تعليقات أمر من العلقم ، وأقسى من وقع السياط : « أليست لك أخت ؟.. احترموا أولاد الناس .. شباب ضايع ليس له إلا التسكع وقلة الأدب .. إنهم فى حاجة إلى التربية .. »

وأسرع « عبد المجيد » فى مشيته حتى لا يؤلم نفسه أكثر من هذا ، وتحسس مكان الصفعة فوق قفاه ، فجاشت عواطفه وشعر بالتعاسة والألم الممض وبحظه المنحوس ، وأفلتت دمعة منه فسارع وجففها قائلا لنفسه :

— ماذا أعمل ؟. هذا هو حظى دائماً . . ليس فى مقدورى أن أخلق نفسىَ خلقاً جديداً .. قليل البخت يلقى العضم فى الكرشة .. أما

أنا فألقاه فى الكرشة وفى كل شئ حتى فى الحلوى والكشرى .. كم أنا مغيظ ومحنق .. أأتمرد على الأقدار ؟..

إن الشيخ « بسطويسى » يسمى هذا كفراً وزندقة .. فماذا أعمل ؟ ألست إنساناً يشعر ويحب ويكره ..؟ ما الذى اقترفته حتى يحكموا على عواطفى بالإعدام ؟.. ليست المسألة مسألة حظ ، لا بد أنى غر خبر وغير ملم بأمثال هذه الموضوعات .. الصبر طيب ..

ثم تحسس مكان الصفعة مرة أخرى ، فشعر بالتضاؤل والخزى ، فسحب ياقة القميص إلى أعلى قليلا حتى يدارى الاحمرار الذى يصم قفاه .. وهتف فى ألم :

ـ والآن إلى أين ؟.. إلى السيدة زينب ، إن صلاة ركعتين أو أربع قد تخفف عنى آلام هذا الجرح .. لكن أهكذا دفعة واحدة ؟ من مناجاة الغزال الشارد فى شارع خيرت ، إلى مناجاة الله فى مسجد السيدة ؟. مثل سكران يتمسح بأستار الكعبة .. لا بأس ، إن ساحة الله لا ترد أحداً ولا تسخر من أى إنسان ، إن فيها متسعاً للخاطئين والطائعين .. يا رب عفوك .. نفسى تضيق .. قلبى برم بالحياة .. أشعر بحبى للموت .. لعنة الله على شيطانى !...

الفصل الثامن

جلس فريد « الحلوانى » وحيداً على سريره ، كانت نفسه تنضح بالأسى ، وفؤاده ينز بالأنين المكتوم ، وكان يمسك فى يده الخطاب الذى وصل من « عبد المجيد » يدعوه فيه للحضور إلى القاهرة فوراً ، ثم رمى بالخطاب جانباً كأن أمره لايعنيه فى كثير أو قليل ، لقد برم « فريد » بكل شئ وكره الناس فآب إلى عزلته كسير النفس .. ولم لا ؟ إن هؤلاء الناس الذين أحبهم طول حياته ، فوهب مستقبله وراحته قرباناً من أجلهم ومن أجل إسعادهم والعمل على إقامة جمهورية حرة بينهم ، هؤلاء الناس الذين يفنى من أجلهم هم الذين يعكرون عليه الموارد ، ويقذفون بالشوك والنار فى طريقه ، بل ما هو أقسى من الشوك والنار .. فماذا يستحق هؤلاء الناس جزاء وفاقاً لجحودهم وحقدهم ؟

وأخذ « فريد » يستعيد ما فات فى الليلة الماضية ويستعرضه حرفاً حرفاً وحركة حركة ، وكان هذا الاستعراض للمرة العشرين أو أكثر .. لا لا إن استعراضه لما حدث مستمر لم ينقطع عن ذاكرته ، وليس أمامه شئ آخر يفكر فيه غير ذلك .. صورتان متلازمتان تقفان فى عناد وإصرار كالسجان العاتى فى مخيلته ... يا لها من ليلة قاسية .. ليته لم يخرج فيها ولم يسمع ما سمع .. إن « فريد » لا يذكر تماماً ما الذى دفعه لأن يسير فى شارع داير الناحية بعد العاشرة مساء .. كان سعيداً مرحاً يخيل إليه أنه لايسير على الأرض ، ويبتسم للساعات الجميلة التى يقضيها مع « بهيرة » حتى أخرته ثلاثة أيام أخرى عن اللحاق « بعبد المجيد » .. كان يسير فى الشارع كالحالم ، وصحا من أحلامه على ضجيج وضحك ينبعث من محل البقـــالة الذى يملكه وهبة ... يا لهول ما سمع .. إنه « عبد الرحمن

افندى » يتحدث مع بعض أصدقائه ، والموضوع « نهيرة » وزواج « نهيرة وفريد الحلوانى » ... وسارعت دقات قلبه ... ترى ماذا يقولون عنه وعنها ؟ إن أحداً لن يراه .. سيقف هنا تحت شباك المحل مختبئاً وراء شجرة التوت العالية متخذاً من الظلام ستاراً .. لكن أيتجسس ؟ هذا عيب كبير .. إنهم يهرفون بما لا يعون ولن يسلم الأمر من أن يجرحوه بكلمة ، على الأقل أبوه فراش وأمه غسالة و .. وفقير .

لكن « فريد » شعر بلذة غريبة وبفضول أغرب لعله يسمع جديداً ، وقطعاً سوف تتكشف له نفسية « عبد الرحمن افندى » أكثر وأكثر .

— مسكين يا « عبد الرحمن أفندى » .. أخذها منك الجربوع ابن الجربوع .. لقد جعلك عبرة لمن لا يعتبر .. وما كان منك إلا أن ألقيت السلاح .

هكذا قال أحد أصدقاء « عبد الرحمن افندى » .. أما « عبد الرحمن » نفسه فقد قال فى لهجة ذات معنى :

— كأس شربناها ، ووردة شبعنا منها شماً ولمساً ، وطعام عفناه من طول تناوله ، فلا ندم ولا حزن ، إذ ما تركنا لغيرنا إلا الفتات .

— أتعنى ما تقول يا « عبد الرحمن أفندى » ؟

— وما الغريب فى ذلك ؟... أتستكثره على مثلى ؟...

— إذن ما الذى جعلك تترك كأسك وتنصرف عن وردتك ؟... كل ما أعرفه عنك أنك مطرود من الفردوس !...

— هذا هو الوهم بعينه .. إن إشارة واحدة منى كانت كفيلة بأن تنهى الموضوع لصالحى ، لكنى أبيت .

— أبيت؟ إننا نفهم جميعاً أنك من المغضوب عليهم ، وأن « فريداً » هو فارس الميدان بلا منازع .

— وماذا تظنهم يقولون ؟ لن تروج بضاعة النساء إلا فى سوق الإشاعات والمنافسات الموهومة .

– و « فريد » ؟ ألا يعلم شيئاً عن ذلك ؟ ألا يدرى شيئاً عن سهرات السطح ومجالسكم تحت ضوء القمر فى الحديقة كما زعمت ؟...

فضحك « عبد الرحمن أفندى » ضحكة خبيثة وقال :

– ما أكثر المغفلين .

فرد صديق آخر :

– يا « عبد الرحمن » .. يا إخواننا .. لاتنهشوا أعراض الناس وتأكلوا فى لحومهم بشراهة .. دعونا من هذه الأمور الشائكة التى تأخذ بيدنا إلى جهنم .. أعوذ بالله .

فأجاب « عبد الرحمن » فى سخرية :

– سمعاً وطاعة يا ولى الله .

كان « فريد الحلوانى » يسمع هذا الحوار وكله آذان واعية تحصى كل همسة ، ورغم وقوفه فى الظلام كان يتخيل « عبد الرحمن » بسحنته الممقوتة ويتخيل حركاته وابتساماته الساخرة .. وجمد « فريد » فى مكانه .. كان كمن انقضت عليه صاعقة مدمرة من حيث لا يحتسب فقضت عليه قبل أن يرسل حتى مجرد آهة واهنة ، وتصبب العرق حتى غمر جسده ، لقد بغتته المفاجأة فألجمت فاه ، وشلت ذهنه عن التفكير ... وأخذ يفيق رويداً رويداً .. يا للمصيبة .. ماذا يعمل ؟ كيف يتصرف ؟ أينقض على « عبد الرحمن » فلا يدعه إلا جثة هامدة ، ثم يمزق أحشاءه بأسنانه وأظافره ؟ ماذا سيقول الناس عنه ؟.. ستعرف الحقيقة وستصبح فضيحة ترددها الألسن فى كل مكان .. لكن هل أبقى « عبد الرحمن » أفندى شيئاً فى فى جوفه لم يذعه على الناس ؟ . و « نهيرة » هى الأخرى لقد خدعتنى .. آه أيتها الملعونة ، إذن فأنت الزهرة التى لعب بها « عبد الرحمن » ونعم برحيقها ، وأنت الكأس التى استطعمها وترك لى الثمالة .. الفتات .. لقد جعلتنى ذباباً على مائدتك .. أنا المخدوع ولولا القدر لما عرفت الحقيقة .

وتخرج « عبد الرحمن » من محل البقالة ، وانعطف يميناً نحو شجرة

التوت وعيناه لا تكادان أن يميزا الأشياء من أثر النور القوى الذى كان يغمر المحل .

— من الواقف هناك وراء شجرة التوت ؟...

وخطا « فريد » نحو « عبد الرحمن » فى جنون وإصرار دون أن ينطق بكلمة واحدة حتى صار أمامه وجهاً لوجه .

— فريد ؟...

وانهالت الصفعات والركلات على « عبد الرحمن » ، وانقض عليه « فريد » كالوحش الكاسر أصابته سهام صياد غادر ... وخرج من فى المحل على الضجة !...

لحظات سريعة كان « فريد » يتصرف فيها بغريزة الحيوان ... الدنيا كلها أشواك ... آلام .. طغيان .. أحقاد .. غدر .. ليس هناك وفاء ولا حب ولا صدق ، يا لها من غابة تنهبها الذئاب والأفاعى والثعالب ... لا مكان للرجولة والإنسانية والمثل .. يا إلهى ! أأنا فى حلم أم فى يقظة؟ بنيت قصوراً فى الهواء وأقمت آمالا عراضاً على الرمال فعصفت بها الزوابع ولم أجد غير السراب ..

وانطلق « فريد » إلى بيته بعد أن انتهت المعركة دون إصابات تذكر ، وبعد أن فرق بينهما أهل الخير .

— انتهى كل شئ .. يجب أن نعود من حيث بدأنا .. سلام على الذكريات .. كان فيها الجحيم والنعيم جنباً لجنب ، وما أرانى ألا تلظيت بالنار ، أما النعيم فقد مر كأن لم يكن .. بالأمس خطبة وغداً فراق .. غداً لا بد فراق إلى الأبد لا لقاء بعده .. سامحك الله يا « نهيرة » ... لا لا .. لعنة الله عليك أيتها الشيطانة الصغيرة . عودى إليه .. عودى إليه أيتها الكأس الملوثة ، أيتها الوردة التى أذبلتها أنامل الشيطان .. أجل . ما أكثر المغفلين ، لكن لن أكون من زمرتهم بعد اليوم .. سأفتح عينى على الحياة .. سأشك .. سأشك فى كل شئ حتى فى نفسى .. سأوارى ثقتى بالناس التراب

حتى لا أكون مغفلا مرة أخرى .. وأنت يا تماثيل المبادئ والمثل العليـا تحطمي .. تحطمي وصيرى أطلالا خربة ، إذ لا وجود لك فى عالم الواقع .. هكذا أراد « عبد الرحمن » النذل ، وهكذا أرادت « نهيرة » المخادعة .

يد حانية تربت على ظهر « فريد » ...

— ألم تنم بعد يا «فريد» ؟ يا حبيبي إن الفجر اقترب .. فيم السهر الطويل ؟

— سأنام حالا يا أمى .

واقتربت منه ودققت النظر فى وجهه فهالها حاله .

— يخيل لى أنك فى غاية الكدر والضيق ، ما أعجب ما أراه فى عينيك وفى ملامحك ... ماذا يزعجك يا « فريد » ؟.. قل ولا تخف عنى شيئاً .

فانفجر «فريد» باكياً كالطفل الصغير بين يدى أمه ، فضربت بكفها على صدرها مشدوهة .

— يا همى .. ماذا جرى يا ولدى ؟ سلامتك ألف سلامة .. أمريض أنت ؟ .. تكلم ، لا تبكِ .. إنى لا أتحمل أكثر من هذا .

وهتفت بصوت مرتفع :

— يا « حلوانى » .. يا « حلوانى » .. اصح !...

فجفف « فريد » دموعه بسرعة وقال :

— لا لا دعيه ولا توقظيه .. إنى بخير .

— إذن ففيم كان البكاء ؟

— فى الصباح سأخبرك بكل شئ

— لن أستطيع النوم إلا إذا علمت ما يكربك .

فسكت « فريد » لحظة ثم قال :

— لن أتزوج « نهيرة » .

— يا خبر ... أتمزح ؟

— قرار لا رجعة فيه .
— هل جد جديد ؟
— بل شئ قديم .. لاجديد تحت الشمس إلا جهلنا وحماقتنا وغفلتنا . وما أكثر المغفلين فى هذا العالم المنكود .
— كل شئ يهون يا ولدى .. إذا كان هناك ما تسبب لك فى الكدر فعلى أنا علاجه ، غداً كل شئ سيكون على ما يرام .. نم واترك الأمر لله .
— كفانى نوماً هذه المدة الطويلة .. لن أنام بعد اليوم .
— ماذا تقول ؟.. إننى لا أفهمك !...
— لكى تفهمينى سأروى لك كل شئ بالتفصيل الآن .
وأخذ « فريد » يروى لها ما حدث وهو فى ثورة وانفعال شديدين .

* * *

أشرقت الشمس فى اليوم التالى ولم يزل « فريد » فى فراشه ، وبين آونة وأخرى كانت أمه تتسلل إلى حجرة نومه فتراه كما هو ملقى على سريره ، فلا تهمس بكلمة بل تتركه وتمضى إلى الخارج . لكم تعذبت وشقيت من أجله منذ أن أخبرها الخبر المؤلم ، إنها لن تشكو لغير الله أولئك الذين قلبوا حياتها وحياة ولدها إلى شقاء .. هى ضعيفة وابنها ضعيف والحلوانى أضعف منهما مجتمعين ، ولو أنهم أقوياء فماذا يفعلون إزاء هذه المشكلة الحرجة ؟ .. ولا تلبث « حميدة » أن تهتف وعيناها مغرورقتان بالدموع :
— آه يا ولدى !... حقدوا عليك ورموك بالآلام والأوجاع ، ولم يرحموا شيبة أبيك أو يرثوا لتعب أمك وشقائها طول العمر .. مالنا و « لعبد الرحمن » ؟ ما الذى بينك وبينه حتى يلاحقك بالإشاعات ويملأ الجو حولك بالترهات ؟ أ أذهب إلى « عبد الرحمن » وأقبل حذاءه ويديه وكل شئ فيه وأتوسل إليه أن يتركك لحال سبيلك ، وليأخذ ما يشاء حتى ولو طلب نفسى التى بين جنبى ؟ إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيد .. ماذا أعمل ياربى؟ إن هؤلاء الناس يلجئوننا إلى الغضب والغيظ

والكراهية، ونحن لانحمل لأحد منهم فى الأصل شيئاً .. أستغفرك يا ربى ، وأسألك الهداية للجميع .

وسمعت « حميدة » زوجها « الحلوانى » يقول :

— تفضل .. تفضل يا أستاذ .

— فالتفتت « حميدة » صوب الباب لترى « عبد الرحمن افندى » يقف متردداً كسير النظرات ، مضطرب الحركات ، وحينما اصطدمت بمرآه شعرت لأول وهلة برغبة جارفة فى أن تتناول أى شئ وتقذفه به ، لكن سرعان ما تبينت حرج موقفه الذى لا يحسد عليه فعاودتها طيبتها الفطرية ورقة قلبها وعطفهـــا حتى على أولئك الآثمين ، فمشت إليه فى هدوء لتصافحه ، وأدهشها أن « عبد الرحمن أفندى » يحاول تقبيل يدها بينما تحاول أن تسحب يدها منه .

— تفضل يا « عبد الرحمن افندى » ... ادخل يا بنى ... مهما كان فان « فريد » أخوك والناس دائماً لبعض ولن تنفع غير الكلمة الطيبة ...

قال « عبد الرحمن » بصوت مرتعش :

— أين الأستاذ « فريد » ؟...

— فى حجرته !

— أما زال نائماً ؟...

— أظن ذلك !...

— دعينى أدخل لأوقظه بنفسى . وأرجو أن تتركونا وحيدين !...

— لكن يا ...

— لا تخافى ... إنه أخى ... لعنة الله على الشيطان !...

الشيطان .. كل آثامنا وخطايانا نلصقها بالشيطان ، وهكذا نحن بنى البشر دائماً لا نريد أن ننسبها إلى أنفسنا مباشرة فنبحث لنا عن شخصية أخرى نعزو إليها جرائمنا فلا نجد غير الشيطان ، مع أن فى أعماقنا شيطاناً مريداً هو أنفسنا ... أجل أنفسنا الطامعة الطامحة التى لا ترحم ولا تعدل ،

فكل ما حقق رغباتها وميولها هو الحق الذى لا يتطرق إليه شك .

ودخل « عبد الرحمن أفندى » حجرة نوم « فــريد » ، وسرعان ما جلس هذا الأخير فى فراشه ورمق « عبد الرحمن » بنظرات نارية تتقد حقداً وكراهية .

— اخرج من هنا يا نذل .

— قل ما شئت .. أنت معذور

— اخرج بسرعة يا كذاب

— لا أنكر أننى كذلك

وأقبل « عبد الرحمن » على « فريد » وأراد أن يعانقه فدفعه بعيداً عنه قائلا :

— لم أعد أستسيغ هذا الرياء القذر .

— عفا الله عما سلف .

— ها ها .. تحمل فى يمينك طاقة من الزهر بينما تستل شمالك خنجراً لتغرسه فى صدرى .

— سأثبت لك الآن أن «نهيرة» بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وسترى أنها أنقى وأطهر نفساً بقدر ما أنا دعى كذاب ، وسأقدم لك الأدلة التى تقطع كل شك !...

فسكت « فريد » ولم يجب ، وكأنما استراحت نفسه لمثل هذا الكلام لأنه كان فى تشوق لمثله .. إنه يحب «نهيرة» مهما حدث ، لكنه يريد شيئاً يثبت براءتها وطهرها .. أى شئ ولو كان زائفاً ، يريد أن يقنع نفسه بعفتها على أى صورة ، فما بالك بمن أتى يحمل الأدلة اليقينية ؟ سيكون ذلك بداية السعادة الحقيقية .

قال « عبد الرحمن » فى نبرة إخلاص وصدق :

— لقد استيقظت بالأمس من أوهامى فى الظلام تحت شجرة التوت .. أجل استيقظت فوجدتك زوجاً « لنهيرة » لا شك فى ذلك ، ووجدت أن

المغامرات الموهومة التى يدبجها خيالى المحموم ويهذى بها قلبى الجريح ، هباء وهراء لا أجنى من ورائهما غير الاحتقار .. لم أنم ليلتى ، بل ظللت أتقلب على أحر من الجمر ، وأقرأ هذه الخطابات وقلبى يتمزق .

ثم قذف برزمة من الخطابات أمام « فريد » وهو يقول :

– اقرأ هذا الخطاب ... إنه مكتوب فى ورقة قذرة على ظهرها عمليات حسابية .. اقرأ .. إنه من «نهيرة» ، كتبته لى رداً على خطاب غرامى معطر بالبنفسج ، ومكتوب على ورق ثمين ..

وتناول «فريد» الورقة فى انفعال ، وأخذ يقرأ بدون صوت :. « إنه خطها فعلا وتوقيعها فى النهاية » .. وتلاحقت ضربات قلبه وكأنها فى ميدان سباق عنيف .. « ماذا تقول «نهيرة» ؟ إنها كلمات مقتضبة لكنها جامعة : إلى « عبد الرحمن أفندى » ... لا تحاول الكتابة إلى مرة ثانية.. إننى أحب « فريد » .. أحبه وليس فى قلبى أقل مساحة لغيره .. يجب أن تفهم هذا وإلا تصرفت معك تصرفاً قاسياً .. لكن كيف تكتب إليه ويكتب إليها ؟ لا بد وأن هناك ما يسقط الكلفة بينهما »

وأحس « عبد الرحمن » بما يعتمل فى نفسه فقدم إليه صورة :

– هذه صورتى قدمتها إليها هدية يوماً ما ، وكتبت عليها عبارة صرفت فى تحبيرها وقتاً طويلا .. انظر ماذا كتبت ؟... كتبت على وجه الصورة : ليس بينى وبينك ذكريات ولا صداقات ففيم إرسال هذه الصورة ؟ إن بيتنا ليس فيه مكتب للفيش والتشبيه .. كفى عبثاً .

وأخذ « عبد الرحمن » يقدم أوراقه واحدة تلو الأخرى ليمحو كل كل شك فى ذهن « فريد » .

– لكن أ أنا مغفل صحيح كما زعمت بالأمس ؟

فضحك « عبد الرحمن » قائلا :

– بل أنا زعيم المغفلين .. أما ترانى كنت أجرى وراء السراب وأتشبث بالأوهام؟.. إن الناس يعلمون الحقيقة .. ألم أقل لك اننى تيقظت ؟ لن

أعود لأوهامى ثانية .. فليبارك الله لكما وأنا آسف أشد الأسف لما حدث .. والآن ، أتأبى أن أعانقك ؟

فلم يجب « فريد » بينما اندفع « عبد الرحمن » نحوه معانقاً .

وبعد دقائق هم بالخروج فصاح به « فريد » :

— كلا لن تخرج حتى نتناول الإفطار معاً .

— فعلا لى رغبة جارفة فى ذلك .. أريد أن آكل معك العيش والملح .

ونحى « فريد » أغطيته جانباً وفى قلبه لحن جديد يترنم فى سعادة :

— ما أجمل هذا الصباح . إنها لى وحدى ... يا للأنانية اللذيذة !..

الفصل التاسع

ماذا حدث « لعبد الرحمن أفندى » ؟ ما سر هذا الانقلاب المباغت ؟ أهذه السرعة يستسلم ويلقى السلاح ؟ والأدهى من ذلك أن يذهب معتذراً باكياً يبلل يدى « فريد » بدموع التوبة والندم ، ترى أين راح كبرياؤه وأين ذهبت ثقته بنفسه ؟ إنه لم يتصرف مثل هذا التصرف العجيب من قبل ، هل خاف من بطش « فريد » ونقمته فسارع إلى تصحيح الوضع ؟ ليس هذا من الحقيقة فى شئ ، لأن « فريد » لن يستطيع أن يفعل أكثر من الانزواء والانطواء على نفسه يندب حظه ويرثى حبه الضائع ، وحتى إذا ما خرج عن انطوائه فلن يفعل سوى أن يطلق العنان لنفسه فينثر بعض الشتائم الحانقة على « عبد الرحمن » ، ومثل هذا الموضوع لا يحل بالعنف والعراك ، فما الدافع إذن إلى عودة « عبد الرحمن » تائباً مستغفراً ؟

إن « عبد الرحمن » شاب طموح ويحقد على كل من يقف فى طريقه أو يمنعه من تحقيق إحدى أمانيه ... أنانية درج عليها ، وسليقة تغلغلت فى أعماقه ، وهذا ما دعاه للوقوف بالمرصاد « لفريد » ومحاولته عرقلة زواجه من « نهيرة » ، ولم يكن « عبد الرحمن » خصما لبقاً وغريماً ذكياً يحسن التدبير بل كان كل همه أن يملأ القرية إشاعات يرضى بها غروره ، ويشبع بها مركب النقص الذى يعتوره فيدفعه ذلك إلى التورط فى الأخطاء وإثارة المشاكل ، وماذا يضيره فى ذلك ؟ اشتباكات بسيطة لا تلبث أن تنتهى بالنسبة إليه ، لكنها ولا شك ستثير الزوابع وسحب النكد فى أفق « فريد » و « نهيرة » فلا يشعران بسوى الضيق والمرارة فتشوب سعادتهما الشوائب ، وكان « عبد الرحمن » يفهم تماماً أنه لن يكسب شيئاً يذكر من ذلك الصراع السلبى بل انه سوف يحط من قدره فى أعين الناس حتى

أولئك الذين يحرضونه على التمادى فى غيه .. غير أنه كان يشعر بلذة شاذة غامضة كلما تأكد أو ظن أنه كان السبب فى توتر العلاقات بينهما .

تصرف طفل كبير لا يعبأ بالنتائج ولا يكترث لما تتركه أفعاله من أثر .

وظل « عبد الرحمن » سادراً فى تهوره واستهتاره حتى كانت الواقعة التى تحت شجرة التوت . وأرغم « عبد الرحمن » إرغاماً على أن يفكر فى موقفه ويعيد النظر فى سلوكه الشائن ، وهمس لنفسه وهو يتحسس الكدمات التى تسببت عن عراكه مع « فريد » :

« وماذا بعد ذلك ؟ « فريد » خطب « نهرة » وانتهى الأمر ، وأغلق الباب فى وجهى إلى الأبد ، وأصبح حراماً على أن ألتقى بها أو أنعم بكلمات ولو جافة من حديثها الجذاب ، وصرت كالمطرود من النعيم .. محنة قاسية لن تنجاب غمتها بمهاترات وأكاذيب أطلقها هنا وهناك ، ولن تنجلى كربتها بمزيد من الخطابات والتوسلات التى أبعثها إليها .. إننى حالم مخدوع .. هذه حقيقة .. لكن إلى متى هذا الخداع ؟.. آه .. لكم أتمنى أن أنتزع قلبى من بين ضلوعى ، وأفتش فيه عن هذا الموضع الذى يكمن فيه ذلك الحب المدمر فأجتثه من جذوره كما يستأصل الجراح الماهر أصابع السرطان وشعبه الغادرة التى تجوس فى خفة ودهاء .. لكن هيهات .. إنى أحبها تلك التى ضاعت إلى الأبد ، وأنا أمقت « فريد » من أجل ذلك ، غير أنى أظهر للناس عدم اكتراثى وأنا أعلم أن الحقيقة غير ذلك .. ما أكثر الأقنعة التى تحجب حقائق الناس ، وتخفى عن العيون دقائق مطامعهم وأهدافهم !... وما أنا إلا واحد من الناس .. ورغم هذا فمن الممكن أن أكون رجلا .. رجلا فى عداوتى وغيرتى بالنسبة « لفريد » ، ورجلا فى تقبلى للهزيمة واستجابتى للصدمة . »

كان « عبد الرحمن » مستسلما لهذه الخواطر التى تنثال عليه ويناقشها فى صراحة تامة ، وتأمل دقيق بينه وبين نفسه ، والإنسان فى وحدته وأمام

ذاته وضميره كثيراً ما يأنف من التهرب والجبن ويلقى باعترافاته وخلجاته بلا خوف . .

« لا جدوى من الإنكار والتمادى فى خداع قلبى أكثر من ذلك ، ويجب أن أكون حاسما شجاعاً فى مجابهة الحقيقة ولو مرة واحدة طوال هذه الأزمة .. هل على « نهرة » ذنب فى أنها أحبت « فريد » وأخلصت له الود ، وحافظت على شرفها وكرامتها واستجابت لعواطفها العذرية ؟ وهل أجرم « فريد الحلوانى » حينما استجاب لحبها فوقف متنمراً يحمى سمعتها وكرامتها ؟ .. من السهل فهم الأمور والغوص إلى دقائقها متى اعتصمنا بالصراحة ، وآمنا بالصدق ، وأخلصنا النيات ، لكن ما أغبانا نحن البشر حينما نراوغ ونداجى ونعمى عن كنه المعضلات !... الأمر طبيعى جداً ، فما على إلا أن أذهب إلى « فريد الحلوانى » وأعتذر إليه وأعترف له بكذبى وافتئاتى عليه وعلى « نهرة ».. وسأقدم له ما يثبت براءتى وبراءتها وليكن ما يكون ، وهذا أقل واجب أقدمه لها بل وأقل عمل أكفر به عن خطاياى ومهاتراتى .. سأجرب أن أكون رجلا هذه المرة .. »

وهكذا انطلق « عبد الرحمن » إلى بيت « فريد الحلوانى » !...

إن «عبد الرحمن» ، رغم تصرفاته الحمقاء — شأنه شأن أى إنسان فى هذا الوجود — لا بد وأنه يحمل فى أحد جوانب نفسه عنصراً من عناصر الخير مهما خفى هــذا العنصر ، ومهما طال احتجابه ، فاذا ما جــدت أحــداث ، وتعقــدت مشاكل وانطلقت شرارات الاحتكاك بانت على ضوئها هذه العناصر — عناصر الخير — وهكذا لا يوجد شر محض ولا خير محض فى طبائع الناس ، وإنما هى مزيج من الاثنين ، رغم تفاوت النسب .. وعندما عاد « عبد الرحمن » من زيارته « لفريد » شعر ببرد الراحة يثلج صدره ويهدئ من ثورة ضميره ، فقد رمى عن كاهله عبئاً طالما أثقله ، وأرهق قواه ، ونغص عليه أيامه .. ومع ذلك فلم ينس الموضوع الذى شغله وما زال يشغله ، بل أمعن فى التفكــير فيه ، ولاحظ

« عبد الرحمن » أنه كلما تمادى فى أفكاره شعر بضيق مبهم وهم غامض لا يستطيع تحديده ولا فهمه .. أكان هذا إحساس الألم من جراء الهزيمة التى ابتلى بها ، أم من ضعفه الطارئ الذى دفعه لأن يعترف ويعتذر ويطلب الصفح من « فريد » ؟..

ويبدو أن الأمر كان كذلك رغم عدم استطاعة « عبد الرحمن » إدراكه بوضوح .. إن « عبد الرحمن » ينشد الراحة ويتحرق شوقاً إلى النسيان ، لكن يبدو أن النسيان فى الأوقات الحرجة يضع على رأسه تاج ملك ، وفى يمينه صولجاناً ، ويتأبى ويمتنع ويعتصم بالسلطة والكبرياء ..

« ما أشد رغبتى فى النسيان .. إنى أتعذب ، إن جرعات الاعتراف التى شربتها ، لم تزدنى إلا أشجاناً فوق أشجان ، إنى أحرق أكثر من عشرين سيجارة فى اليوم والليلة ، ولا أكاد أنام إلا ساعتين أو ثلاثا.. لا أدرى على وجه الدقة ماذا أريد بعد أن انتهى الأمر .. أما لهذا الحزن من نهاية ؟.. يا رب ، أجل يا رب .. نسيت أن أذكرك وأنا فى غمرة حقدى وغرورى وجريى وراء الأوهام فى دنيا من السراب.. ركنت إلى نفسى وثقتى وشبابى فلم أفلح ، وهأنذا أعود إليك .. أف لهذه الحياة .. »

ضربات على الباب.. و « عبد الرحمن » جالس وحده يفكر فى أمره ، شارداً عن الضربات وعما حوله . ضربات على الباب مرة أخرى ...

— لا بد وأن الطارق هو « تعويرة ».. المعلم تعويرة .. لعنة الله عليه .. لكنه يرفه عنى كثيراً، ففى خضم الدخان الأزرق المشبع برائحة الحشيش تذوب بعض آلامى ، وكمية من الأفيون مع فنجان من القهوة تلقى على عواطفى شيئاً من البرود والجمود الذى أنا فى مسيس الحاجة إليه .. لكنه على أى حال علاج وبئس العلاج ، وطريق محفوف بالموت والدمار .. وماذا أعمل ؟... يا للعجب ! إن عدم الاكتراث لهو الانتحار بعينه ...

ضربات أخرى على الباب ..

— ادخل يا «تعويرة» .. (بصوت مرتفع) ادخل، ليس هنا أحد ..

ليس هنـــا سوى آلامى وأحزانى الخالدة ..

ويتذكر « عبد الرحمن » أن الباب مغلق من الداخل فيسارع إلى فتحه وقد شعر بلذة لايدركها إلا أصحاب الكيوف حينما يكونون على أهبة الاستمتاع بسهرة انسجام .. وملأت خياشيمه — أو خيل إليه — رائحة الحشيش التى تعودها ، وفتح الباب ليدع « تعويرة » كى يدخل ، لكنه وجد نفسه أمام أم « نهيرة » .

— أنت ؟؟..

فقالت فى هدوء يحمل فى طياته نذر العاصفة :

— أجل أنا يا « عبد الرحمن أفندى » ..

كان الظلام قد أطبق ، وضجة النهار أخذت تذوب رويداً رويداً وترقد فى طيات الليـــل ، وليس يسمع غير نباح الكلاب وأصوات الحيوانات الشاردة .

قال « عبد الرحمن » فى خفوت ووجل :

— ألا تدخلين ؟..

فرمقته بنظرات قاسية لمعت فى الظلام بتحد وغيظ وقالت :

— أهـــذه نتيجة العشرة الطويلة ، وثمن العيش والملح الذى أكلناه معاً ؟ كنت أظنك ابن أصـــل .. فتحت لك بيتى وما كنت أظنك ستنقلب فى يوم وليلة إلى ثعبان ينهش عرض ابنتى .

وشعر « عبد الرحمن » بالانفعال الحاد ، والحرج الشديد يجتاحانه ، فغرق فى عرقه..لقد كان يظن أن الأمر انتهى بعد أن تفاهم مع « فريد » ، وأبدى له ألوان الاعتذار ، لكن يبدو أن الفضيحة قد اتسعت رقعتها حتى بلغت مسامع أم «نهيرة» ، ولا بد أنها وصلت «نهيرة» نفسها.. يا «للعار».. إذا ما هربنا من المتاعب لاحقتنا حتى فى عقر دارنا .. كيف الخلاص ؟؟

وظل « عبد الرحمن » غارقاً فى ذهوله لايدرى بماذا يجيب ، وصاحت الأم :

— لم سكت ؟.. تكلم .. ماذا تريد منا ؟.. أهو زواج رغم أنوفنا

ذلك الذى تجرى وراءه ، وتقلقنا من أجله ؟.. شئ بارد .

وهنا ثار الدم فى عروقه ، وانتفض جسده من شدة الغيظ والألم ، وخاصة عندما ذكرت الزواج ، ثم عرجت على شخصه ووصفته بالبرود . ماذا بقى بعد ذلك؟ لقد انهار تماماً.. كرامته، كبرياؤه ، ثقته بنفسه، كل ذلك صار أطلالا خربة ، وغمره شعور باللامبالاة ، فقال فى ضيق :

— لا تنسى أنك فى بيتى .. لن أترك لك الفرصة لتتحدثى عنى بمثل هذه السخرية وذلك الازدراء .. تستطيعين أن تنصرفى بهدوء ..

فغلبها غضبها وانفعالها الشديد ، وأمسكت بتلابيبه وهى توشك أن تبكى :

— أتطردنى من بيتك ؟ .. أنسيت سهراتك الطويلة ؟.. لكم أكلت وشربت .. يا للوفاء ، وأى وفاء ذلك الذى جعلك تمرغ شرفنا فى التراب..

وعلا صوتها وهى تقول :

— « نهرة » ستتزوج « فريد » مهما قلت وفعلت ، ولن تعوقها عن ذلك أكاذيبك التى تذيعها فى الدكاكين والبيوت .. لتمت غيظاً ..

وعاد إليه شئ من الهدوء وضبط النفس ، فتمالك أعصابه وهو يهمس لنفسه :

— لتقل ما تشاء .. دعها تفثأ غضبها ، لقد تحملت أنا الكثير ، فما على إلا أن أطأطئ رأسى للعاصفة حتى تمر بسلام .. أجل يجب أن أستمع إلى قوارص الكلام .. فهى فى منزلة أمى ، وأنا الخاطئ ، الصمت . الصمت يا « عبد الرحمن » حتى تنتهى من هذا الموشح النارى وأمرك إلى الله ..

وصمت « عبد الرحمن » لحظات ثم قال لها :

— إنك تثيرين الغبار من جديد ، وهذا موضوع قديم ، وقد اعترفت بخطئى فيه ، وأبديت اعتذارى « لفريد » ، وعادت المياه إلى مجاريها ، وصفت علاقاتنا مما يكدرها من الشوائب ، وأحرى بنا ألا نوقظ الفتنة بعد أن

نامت، وكل ابن آدم خطاء ، وأحب الخطائين التوابون .. أليس كذلك ؟..
تفضلي واخزى الشيطان .. كفاني ما صببته على نفسي من تقريع وتأنيب ولوم .. ما زلت ابنك مهما كان ..

ــ وكلام الناس يا « عبد الرحمن » افندى ؟..

ــ فليذهبوا فى داهية ..

ــ بل نحن الذين حلت علينا الدواهي .. وماذا يضيرك أنت ؟..

ماذا يعمل « عبد الرحمن » ؟ لقد نفد صبره ، وفاضت كأسه بالألم والتبرم ، ألا يكفى اعتذاراته ؟ ماذا تريد منه هذه المرأة ؟.. أنسيت أنها كانت تتملقه وتنصب له الفخاخ حتى يتزوج « نهيرة » ، قبل أن يلمع نجم « فريد الحلوانى » فى الأفق ؟ والآن أصبح مصباً للعناتها وسبابها ؟.. ماذا جرى ؟.. هل هانت عليه نفسه لهذا الحد ؟؟ تعست تلك الأيام التى قذفت بمثل هذه المرأة فى طريقه ..

وتلفت « عبد الرحمن » عن يمينه بعد أن سمع وقع خطوات تدب بالقرب منه ، فلمح شبح « تعويرة » .. المعلم « تعويرة » ..

ــ مساء الخير يا « عبد الرحمن » افندى ..

ــ ادخل .. ادخل ..

وتحركت أم « نهيرة » لكى تغادر « عبد الرحمن » بعد أن أدت مهمتها وحذرته ــ ولو بطريق غير مباشر ــ من العودة لمثلها ، وختمت حديثها قائلة :

ــ التقينا على كلمة الشرف ، ويجب أن نفترق أيضاً عليها ، وهذا دائماً من شيم الكرام يا « عبد الرحمن » افندى .. والناس لبعضها ..

ــ مفهوم .. وأنا آسف ..

ودخل « عبد الرحمن » ليجلس بجوار « تعويرة » صــاحب العين الواحدة ، والجبهة العريضة ، والصدر العارى الغزير الشعر ، واللحية الكثة

المهملة والأقدام الحافية المتشققة والجلباب الأزرق الذى يلبسه على اللحم ، وآثار جرح قديم فوق حاجبه الأيمن ..

— أنظف بضاعة من أجل سواد عينيك.. على الطلاق ما فى شرشابة ولا حواليها حشيش مثله .. أنا « تعويرة » ، والحلو للحلو يا حلو ..

— أجل .. ما أحلاك ..

قالها « عبد الرحمن » وهو يغتصب ابتسامة مقتضبة ، ويشير إليه متعجلا حتى يسارع فى إعداد الجوزة .

— ألم يحضر بعض أولاد الحظ « يا عبد الرحمن » أفندى ؟..

— حالاً يحضرون .. هذا موعد لن يخلفوه .. وهذه الجلسة أصبحت كل شئ فى حياتهم .. إنهم يجمعون هموم النهار ليحرقوها فى المساء على نار الجوزة .. لكن أتحترق هذه الهموم حقاً يا « تعويرة » ؟..

— أمرك عجيب يا بك .. طبعاً .. إن هذه النار ذات قوة سحرية ..

— إنه الوهم يا «تعويرة» .. ما كل هذه الأشياء إلا مسكنات ، وما أضر المسكنات التى لا تشفى الداء ، لكن تضفى عليه غموضاً حتى يستشرى ويتمكن ، والدليل على ذلك أننا لا نشبع وفى نفس الوقت لا نحظى بالشفاء من الأوجاع ..

— الحياة قصيرة ، والهموم كثيرة ، ولا بد أن نعيش ونمرح وننسى الآلام .. ساعة الحظ لا تعوض ..

— كلامك فى رأيى عبث ..

— أتستطيع أن تهجر الجوزة الليلة إذن ؟..

— الرأى شئ وتنفيذه شئ آخر .. إلىّ بـ « الجوزة » !...

وأقبل « عبد الرحمن » عليها فى شغف ، وتعالت السحب الزرقاء وخيل إليه أنه ينسى رويداً رويداً ، لم يعد النسيان ملكاً ذا تاج وصولجان ، بل صار عبداً خاضعاً ذليلا ، وكأنه يقول : « أنا رهن الإشارة .. أنا فى خدمة السيادة »

— اشرب .. اشرب يا « عبد الرحمن » بك .. ألا تعلم أن الحشاشين أكبر حزب فى هذا البلد ؟
— أجل .. حزب الأغلبية ..
— بل نحن مملكة عجيبة ..
— صدقت يا « تعويره » ، مملكة بلا ملك لأن كل من فيها ملك.. حتى أنت يا « تعويرة » تمر عليك لحظات تقول فيها : أنا سيد الجميع .. مزاجى هو كل شئ .. يا أرض انهدى ، ما عليك قدى .
— شئ جميل .. نحن الرعايا ونحن الملوك ، فما العيب فى ذلك ؟..
— هذه دنيا المجانين !..
— تركنا للعقلاء الحياة .. لكنى أراهم جاروا وضلوا السبيل ، ولو كانوا مجانين مثلنا لصلحت الحال ..
— كفى هراء وأعطنى « الجوزة » مرة ثانية أيها الملك الحافى العارى ..
— دقيقة واحدة يا مولاى ..
— أسرع يا صاحب الجلالة .. يا لى من ديمقراطى متواضع ..
— هكذا مجالسنا .. لا عصبية .. لا حزبية .. لا استعلاء .. أنا فى الصباح أحرث وأروى الأرض ، وأنت تعلم الأطفال لابساً الثوب الأنيق ، والحذاء اللامع ، ومع ذلك نلتقى فى المساء حيث تذوب الفوارق ..
— بطل الرغى يا خروف .. إنى أسمع وقع أقدام .. الفرقة وصلت.. قم وأضئ لهم الطريق .
فأسرع « تعويرة » وهو يدندن بإحدى الأغانى الشعبية المعروفة والتى كثيراً ما يرددها بصوته الأجش فى مثل هذه الجلسات ..
وانقضت فترة طويلة من الليل .. ضجيج ، غناء ، ضحك ، سباب ، مناقشات من هنـــا وهناك بلا ترتيب أو نظام ، يشترك فيها الجميع لا استثناء .
وهكذا تنقضى السهرة ...

الفصل العاشر

حينما دخل « تعويرة » على « عبد الرحمن افندى » فى الليلة التالية وجده بجلس مهموماً مكفهر الوجه ، تبدو عليه آثار التفكير العميق ، وفى عينيه احتقان ظاهر ، وكان عدد أعقاب السجاير الملقاة أمامه دليلا آخر على ما ألم به من هم زائد ..

وألقى « عبد الرحمن » نظرة خاطفة على « تعويرة » ثم أشار إليه كى يجلس على الكنبة بجواره . قال « تعويرة » فى قلق :

ــ ماذا بك ؟.. أراك مهموماً ..

ــ وماذا تنتظر من بائس مثلى عديم الأب والأم ضائع الآمال ؟..

ــ أراك تتكلم جاداً ..

ــ لأنه كفانى تمثيلا ..

ــ ماذا تعنى ؟..

ــ هذه هى حقيقة حالتى التى أحاول مداراتها من زمن .. أنا تعس ، فماذا تريد أن تعرف غير ذلك ؟..

فضحك « تعويرة » وهو يخرج « أجزاء الجوزة » من جيبه حتى يعدها للاستعمال وقال :

ــ معى الدواء الناجع .. حالا يتم الشفاء ..

ــ لاتحاول عبثاً .. اجلس بجوارى يا « تعويرة » . أريد أن أحدثك ..

وحاول « تعويرة » بشتى الطرق أن يصرف الحزن عن « عبد الرحمن » ولكن لم تجد النكات الفطرية التى جعل يصبها فى أذنه ، ولم تضحكه لأول مرة منذ تآلفا وتعاهدا على اللقاء فى جلسات « المزاج » .. وظل « تعويرة » غارقاً فى الدهشة ، فهو يعجب كيف أن إنساناً مثل « عبد الرحمن أفندى »

يشقى فى الحياة رغم المرتب الميرى ، والمركز المحترم ، ورغم امتلاكه لفدانين ونصف من أجود أراضى شرشابة ... وتساءل « تعويرة » بينه وبين نفسه ..

ـ هل صحيح أن « عبد الرحمن » أفندى يشعر بالحزن من أجل والديه ؟.. لم لم يحزن من أجلهما منذ زمن بعيد ؟ لقد مرت عليهما سنوات منذ أن ضمهما القبر ، وسارت الأيام فى مجراها الطبيعى .. فكيف تحرك الحزن الدفين ؟ أترانا نبكى أنفسنا ومآسيها ثم نزعم أننا نبكى من أجل الآخرين ... لعل إفلات « نهرة » هو السبب المباشر لما يعتوره من أحزان مفاجئة .. لكنه أخبرنى أنه وطد نفسه على قبول الأمر الواقع ومسح هذا الغرام من قلبه إلى الأبد ، ترى هل ما فتئت ذكرى حبه الراحل تؤرق عليه الحياة ؟؟.. لا أصدق ذلك فضحكاته فى الليالى الماضية كانت ترن فى جو الحجرة ، تملأ آذان المارة فى الشارع ، هذا بالإضافة إلى ما أظهره من عدم اكتراث ، وما أبداه من زهد فيها . ومثله لن يعدم أن يجد الكثيرات اللاتى يتلهفن على مرتبه وأرضه وشبابه ... إن أمره لغريب ..

وأفاق « تعويرة » من أفكاره ، ثم قال :

ـ أرص الجــوزة ؟..

ـ انتظر قليلا ..

ـ حتى يأتى الأصحاب ؟؟..

ـ لا ، لن يأتى أحد منهم الليلة ..

ـ لم هذا ؟..

ـ لقد أخبرتهم أنى مشغول ولن أستطيع مقابلتهم ..

وصمت « تعويرة » ولم يتكلم ، بينما استطرد « عبد الرحمن » افندى قائلا :

ـ أنت تعلم يا « تعويرة » أنى أحبك من كل قلبى .. أحب فيك أبى الفلاح المكافح الذى مات من سنوات ، ذلك الذى لم يكن جلبابه

الأزرق يختلف كثيراً عن ملبسك ، وأحب فيك عطفه وبساطته ورجولته ، وإن كان هو أكثر سذاجة وفطرة منك ، ذلك لأنه لم يجرب الحشيش ولم يدخن السجاير .. الله يرحمه كان يقضي أيامه من بيته إلى غيطه .. وظل هكذا دأبه حتى غاب عن قافلة الحياة فى صمت وهدوء ، وكأن لم يحدث شئ ، وتركني فى سنى تعليمى . وأنا الآن أنظر فى وجهك الذى يبدو عليه التأثر والحزن من أجلى ، فأتذكر أمى التى كانت كالجهاز الحساس الذى يسجل ما اعتمل فى قلبى ، كنت إذا تكدرت فى طنطا يدلها إحساسها الغريب ، ورؤياها بالليل على حقيقة انفعالى .. كانت طيبة مثلك .. كنت أحبها كثيراً ..

لكن حياة الغربة التى عشتها وحيداً يتيما فى طنطا حينما كنت أتعلم هناك تركت فى نفسى حفرات غائرة .. عشت بين ذئاب من الطلبة يتسلون بالحرام ، ويتخطفون اللقمة بل ويسرقونها من بعض .. ولا بأس من أن تقوم المعارك بينهم وتسيل الدماء من أجل المنافسة على حب ساقطة ، أو الخلاف على ثمن ربطة فجل ، وكنت بينهم صغيراً ، وسيما ، ووارثاً.. ولك أن تدرك مدى ما قاسيته من هؤلاء الشياطين من آلام .. ألم أقل لك أننى كنت أعيش وسط ذئاب متمردة لا رقابة عليها ؟ فاذا ما عدت إلى القرية ، وجدت نفس الصورة مع قليل من الاختلاف ، كان أقاربى يقابلوننى بابتسامات كلها رياء ونفاق وسموم ، ولا أكاد أحصل منهم على شئ يذكر من إيجار الأرض.. حتى خالى الذى عشت معه ، وسلمته معظم ما أملك ، كان يحرمنى أبسط لذات الحياة ، ويميز أولاده عنى فى كل شئ .. الملبس .. والمأكل .. والمسكن.. وكنت ضعيفاً لا أستطيع أن أرد عن نفسى ما يقع على من غبن وحيف ، فاختزنت قدراً هائلا من المقت والحقد فى قلبى لكل الناس .. لزملائى فى طنطا ولأقربائى فى شرشابة .. لكل من حام حولى لينهش له نهشة منى .. ونمت أحقادى وأحزانى فى الليل الطويل ، والوحدة النفسية التى زرعتها الظروف والبيئة

فى نفسى ... خذ سيجارة يا « تعويرة » !..

وتناول « تعويرة » منه السيجارة بينما أشعل « عبد الرحمن أفندى » سيجارة للمرة الثانية منذ جلس ، واستطرد « عبد الرحمن » :

— وتخرجت ، وعينت مدرساً ، وبلغت سن الرشد ، ثم نقلت إلى بيتى الخاص ، وتسلمت أرضى وأجرتها لك .. لك أنت يا « تعويرة » لما لمسته فيك من إخلاص وصدق واهتمام بالأرض ... وأرضنا يا « تعويرة » كما تعلم بالنسبة لنا نحن الفلاحين تعتبر كأبنائنا أو أعز منهم ، فمن يكرمها يحظ باحترامنا وحبنا ، لأننا نحب دائماً أن نراها تجود بأطيب المحصول وأنضر النبت ، وهل هناك من يحب أن يرى أولاده شاحبى الوجوه ذابلى النظرات ؟.

— كلا ..

— هكذا نحن وأرضنا .. هذا بالإضافة إلى أنك كنت صديقاً لوالدى منذ ولادتى ..

— بل من قبل أن تولد بزمن طويل ..

— طيب .. وخيل إلى أن الوظيفة والحرية الجديدة « وشئ آخر » على وشك أن يخلق منى إنساناً جديداً غير « عبد الرحمن » الساخط الحاقد الناقم ، الذى قاسى الأهوال فى الحجرات المظلمة فى الأحياء الشعبية فى طنطا وبين الأقرباء فى شرشابة .. وأحسست للحياة طعماً حلواً وداعبت أحلامى نسمات رخية جميلة كتلك التى تداعب أعواد الذرة وهى تتفتح للوجود وتوشك أن تمتلىء كيزانها بالحياة والنماء .. كان ذلك من جراء هذا « الشئ الآخر » الذى ذكرته لك ..

— وماذا تعنى بهذا الشئ الآخر ؟..

وأشعل « عبد الرحمن افندى » سيجارة أخرى ، وقد سرت الرجفة فى أصابعه حتى أنه فشل مراراً فى تثبيت شعلة عود الكبريت عند طرف السيجارة ، ثم قال :

— « نهرة » .. لا أحد غيرها .. ومرت فترات حلوة عامرة بالسعادة خيل إلى فيها أن « نهرة » لى وحدى ، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها منى مهما كان ، لقد كنت أظن وأنا أخطو فى طريق حريتى الجديدة التى انتزعتها انتزاعاً أننى أستطيع أن أنال ما أريد ، مركزى وشبابى وأرضى فى وسط قرية متواضعة ، غالبية أهلها من الفلاحين المساكين ، هى خير المؤهلات للنجاح ، وفجأة شعرت بأن المركز والشباب والأرض كلها عدم .. فراغ .. موات .. أو سلاح صدئ لأنها لم تستطع مجتمعة أن تجعلنى أحصل على ما أريد .. أعنى « نهرة » .. وكان أن لعنت الناس .. والمركز .. والشباب والأرض .. ولعنت نفسى .. لكن كيف أقابل الناس بهذا الضعف والانهيار ؟.. وحاولت محاولات اليائسين ، وتشبثت وتوسلت وسألت نفسى عن الفرق بينى وبين « فريد الحلوانى » .. بماذا يمتاز عنى؟ .. ليسانس الحقوق .. قد يكون قاضياً ثم مستشاراً .. وقد يصير وزيراً.. هكذا يقولون . أما أنا فمدرس طول حياتى ، الشهادات والمال والمركز هى المؤهلات ويشترى بها كل شئ فى هذا العصر حتى العواطف الغالية .. المهم « فريد الحلوانى » حاز قصب السبق ، وفاز فى الشوط النهائى وتركنى على الطريق ألهث وأبكى ، تختلط أنفاسى بالتراب المثار ، وتمتزج دموعى بعرق جبينى المتقاطر ، وقمت كالجواد الجريح ، وإن كنت اصطنعت على ثغرى ابتسامة وزعمت للناس أننى أنا لم أتبدل ، بل سخرت وضحكت .. وكنت كاذباً ..

فقال « تعويرة » فى بساطة وسذاجة :

— ياه !.. إنك تجعل من الحبة قبة .. أكل ذلك من أجل امرأة؟ .. أنا على استعداد أن أزوجك بنت عمدة ...

فضحك « عبد الرحمن » فى مرارة وقال :

— لست أدرى كيف أوضح لك الأمر .. لا عمدة ولا باشا .. قد تهفو نفوسنا لمآرب معينة فاذا أخفقنا ، زاد شوقنا إليها ، وأحسسنا بالتعاسة والمرارة حتى ولو كان ما نطلبه تافهاً ..

— ربنا وهبنا العقل وأنت سيد العارفين .. اطلب الشئ ، فاذا حصلت عليه فبها ونعمت وإن طار يا جميل من يدك فمع ألف سلامة .. ماذا تعمل ؟..

ألقى « تعويرة » بهذه الكلمات فى حماس ، بينما كان « عبد الرحمن » فى شغل عنه ثم قال فجأة :

— أنا راحل من هنا ..

— ماذا تقول ؟..

— راحل .. راحل .. أسمعت ؟..

فقال « تعويرة » باندهاش :

— إلى أين ؟؟..

— أى مكان .. بلاد الله واسعة .. عشت غريباً طوال حياتى التعليمية ، فلا بأس من أن أواصل رحلتى فى بلاد الغرباء .. رحلة محزنة يا « تعويرة » ، أليس كذلك ؟ لكنها قد تنسى ، فيها تعب وتجديد ، وكلاهما قد يشفى..

فقال « تعويرة » فى تململ ونفور كمن يريد أن يحول مجرى الحديث :

— سأبدأ فى رص « الجوزة » .. خلنا هنا .. دنيا خائنة.. دعها ولا تلتفت إليها ، بل اركلها بقدمك فى ازدراء واحتقار ، وستراها تزحف نحوك تعفر جبهتها بتراب نعليك .. جرب هذا مرة واحدة .. ألم تسمع قول القائل : ألا بالصبر تبلغ ما تريد ؟.. غداً تفرج ..

فهز « عبد الرحمن » رأسه فى يأس :

— قد تثمر شجرة الجميز خوخاً أو رماناً .. غداً تفرج .. أجل تفرج .. وتنجب « نهرة » من « فريد » ولدين أو ثلاثة .. رص « الجوزة » « يا تعويرة » .. ألم أقل لك أنك رجل طيب وإنسان فطرى سليم النية؟ .. رص « الجوزة » ولنجعلها ليلة الوداع ..

— فأل الله ولا فألك يا شيخ !..

— أنا لاأهذر .. ألم أقل لك إنى راحل ؟ لقد تقرر نقلى من مدرسة

شرشابة ، سأذهب بعيداً عن هنا .. أتتصور أنى طلبت هذا النقل وسعيت فيه جدياً ؟ ..

ــ إن غيرك يدفع الأموال ويتوســـل بالواسطات حتى يقترب من بلده ، وأراك أنت تتصرف هذا التصرف الغريب .. ماذا تنوى أن تفعل ؟.. إنى لا أكاد أفهمك ..

ــ سأرتاح وأريح .. هذا أمر انتهى ، وقرار لا رجعة فيه ، أما أنت يا « تعويرة » ، فستجد عنى العوض أثناء غيابى ، فما أكثر أولاد المزاج فى قريتنا .. سأعود إليك فى نهاية العام الدراسى ، وقد نكون أسعد حالا أو أسوأ حالا .. سيان عندى .. هات « إلجوزة » .. إننا ننسى أشياء كثيرة حينما تتراقص حول رءوسنا وفى خياشيمنا سحب الدخان الأزرق ، لكنى أعتقد أنك لن تنسانى مع ذلك .

فبان الحزن فى عينى « تعويرة » ، واغرورقت عيناه بالدموع وارتعشت شفتاه ، ولم ينطق بكلمة ، فربت « عبد الرحمن » على كتفه :

ــ لا تحزن .. لا تحزن يا «تعويره» .. إننا نهرب من أنفسنا لنراها أمامنا حيث ارتحلنا ، لكننا مع ذلك نشعر بشئ من الرضى والراحة لأننا جرينا فعلا وتعبنا ..

ــ أجاد أنت فى رحيلك ؟..

ــ عجباً لك ، وما وجه الغرابة فى ذلك ؟..

ــ غربة بلا أهل جحيم لا يطاق ..

ــ وماذا نعمل ؟...

ــ لابد أن تتزوج ..

ــ هذا أمر بعيد التحقيق ..

ــ لن تعيش راهباً ، كما أنك لن ترتكب إثماً ، وتشرب كأساً محرمة . أتراك تتلذذ بالحرمان ؟.. انك تعذب نفسك ..

– مرحى مرحى ، لقد صرت فيلسوفاً يا « تعويرة » .. رص . رص « الجوزة » رص !.. هيه !.. أيام !..

– لست أدرى كيف أتصرف معك ؟.. إنك لم تعد صغيراً ..

– أجل ، لم أعد صغيراً .. لقد كبرت قبل الأوان ... الأحداث .. يا لها من عقار عجيب ، تقلب اليوم شهراً ، والشهر سنة بل سنوات ... إنها تثب بنا خطوات وخطوات فأبدو وكأنى فى الأربعين مع أنى فى السابعة والعشرين ... يا « تعويرة » ...

الفصل الحادى عشر

المرض ، أعدى أعداء الإنسانية ، وخاصة إذا هصر عود الشباب ، وداس حرمة الجمال .. « ريحانة الحلوانى.» أخت « فريد » ، والزوجة الطيبة المحبة لزوجها وأولادها ، سقطت فريسة الداء ، والأدهى من ذلك أنه السرطان الذى أصاب جزءاً حساساً من جسمها .. سيسافر « فريد الحلوانى » غداً لأن الدراسة فى المدارس قد بدأت ، كما أنها على وشك البدء فى الجامعة أيضاً ، ولن يسافر « فريد الحلوانى » هذه المرة وحده فستكون معه أخته « ريحانة » التى قد يجد سريراً خالياً فى القصر العينى وتتاح لها فرصة العلاج ..

قالت أم « نهيرة » « لفريد » :

– هل ستأخذ أختك معك ؟

– أجل ، وهل تعتقدين أنى سأفعل غير ذلك ؟..

فردت الأم فى حرج :

– يقولون يا « فريد » أنه لا علاج للسرطان ..

– وهل معنى ذلك أن نتركها تموت دون أن نحرك ساكناً ، من يدرى ؟.. لعل الله يكتب لها الشفاء ..

– وأين زوجها ؟؟ أما كان الأحرى به أن يحمل العبء الأكبر فى ذلك ؟..

– لا يصح أن تسألى عن زوجها ، ما دمت أنا موجوداً .. أليست أختى ؟..

– ما قصدت ذلك ، لكنك مشغول فى الجامعة وفى المدرسة ..

– ليكن ، انني على استعداد لأن أهب أختى أعز ما أملك حتى تعود سليمة لأبنائها وزوجها ..

– أما زلت تقول زوجها ؟.. إنه جاحد متنكر لأبسط حقوق الزوجية .. لقد امتص رحيقها فاذا ما ذبلت وجف عودها حملها إليكم وعاد إلى الحياة لينغمس فى تيارها ، بل لقد سمعت أنه يفكر فى الزواج..

– لايكلف الله نفساً إلا وسعها .. إنه مسكين أنفق ماله على علاجها، ولم يدخر وسعاً فى عرضها على الطبيب حتى لم يبق فى جيبه مليم فعاد عاجزاً باكياً لايدرى ماذا يفعل ، ففكرت أنا فى أخذها معى إلى القصر العينى ..

وغشيت « فريد » موجة من الحزن القاتم حينما تذكر شبح أخته وهى ترقد شاحبة ذابلة غائرة العينين ، ضامرة الوجه ، لاتستطيع حتى أن تطلق الأهات التى سرعان ما تموت على شفتيها وحولها بنتاها الصغيرتان وطفلها الذى ما زال يحبو .. لقد كانت « ريحانة » وادعة جميلة مرحة ، وفجأة ارتمت على فراشها بين الحياة والموت ... يا لك من دنيا عجيبة .. الشارع كما هو ، والناس هم الناس والحياة تمضى على عادتها متأرجحة . وكأنه ليست هناك بائسة تتلوى من الآلام والإنهاك .. يقولون أنها تحتاج إلى علاج بأشعة الراديوم ، والجلسة تتكلف كثيراً ، ومالية زوجها المدخرة قد نفذت .. وممتلكاته لا تكاد تكفى ثمن الجلسات المقبلة .. وبعد ذلك يقولون قد تشفى وقد لاتشفى ماذا يا إلهى ؟ نحن نعيش فى الظلام .. الظلام الذى لا يرحم .. حياة ضائعة تعسة ، لا يجد فيها المرأ الطريق إلى العلاج الكافى ، و « ريحانة » تريد أن تشترى الحياة . لكن ليس فى يدها مال ، إذن فلتمت بحزنها وغيظها وآمالها وآلامها . وستذوب تأوهاتها فى الظلام مع أنفاسها الأخيرة .. حتى زوجها يا له من جبان .. لقد أنفق عليها حقاً الكثير ، لكنه يبدو أنه قد ضاق ذرعاً بها ، وهذا واضح فى تصرفاته وزياراته القليلة لها فى بيتنا ، بل يخيل إلى أنه يتعجل منيتها ما دامت لامفر منها .. أليست هذه هى « ريحانة » الجميلة المؤدبة التى كان يعبدها

عبادة ، وكانت تشير عليه فلا يستطيع أن يخالف لها أمراً ، أو يحرمها من أى رغبة حتى أننا كنا نسخر من انقياده لها ، ونتهمه فى رجولته ، ونقول أنها تسحبه وراءها مثل الثور ، وظننا آنذاك أنه إذا حدث أن حجبت « ريحانة » عنه فسوف يجن من أجلها ؟.. لقد أصبح اليوم جامداً بليدا .. يا إلهى ما أعجب الحياه ...

وترقرقت دمعة فى عينى « فريد » : ولاحظت أم « نهيرة » ما ألم به من انفعال فقالت وهى تحاول أن ترفه عنه :

— أرجو أن يشفيها الله .. لكن ما هكذا يكون الوداع يا « فريد » ، يجب أن تبتسم وينشرح صدرك حتى تفارقنا ونحن مطمئنون عليك ..

— أى انشراح ، ونحن فى صراع دائم مع الزمن ؟ أنا شخصياً لم أجد فى حياتى إلا الشوك والآلام حتى لكأن الأقدار لم تجد لها هدفاً سواى ..

— أوه ألا تزال تصر على أن تضرب على هذا الوتر الحزين ؟.. أعترف بأنى قد فشلت فى إدخال السرور على قلبك .. وسأترك المجال لغيرى .. سأترك « نهيرة » تتصرف معك ..

° ° °

حينما دخلت « نهيرة » ، كان « فريد » قد تخفف قليلا من الأحزان التى تثقل على قلبه وتضغط على أنفاسه ، وتبلل عينيه بدموع تأبى أن تتخذ طريقها على خديه ، واقتربت « نهيرة » منه ، وجلست بجواره ، وهى كالوردة المتأنقة الباسمة ، واتسمت حركاتها وابتسامتها بشئ غير قليل من الاحتشام والوقار تقديراً لدقة الموقف واحتراماً لمشاعر « فريد » وهمست فى رقة :

— إذن فهذه ليلة الوداع .. لكم يؤلمنى ذلك ، غير أنه مما يخفف عنى أنه وداع إلى لقاء قريب ، أليس كذلك ؟..

فرفع « فريد » بصره إليها ، ولم يكن من الصعب عليه أن يستشف المعانى المستترة فى نظراتها المتلهفة ؛ ولم يتكلم ..

ـ أرجو أن تكون مرتاحاً ولو لحد ما لأنه مما يونى أن أراك على هذه الصورة من الكآبة !...

وهمس « فريد » لنفسه :

ـ إنها صادقة ، ويبدو أنها قلقة من أجلى وتشاركنى نفس الشعور ، ما أسعد الإنسان إذا ما رأى قلباً وفياً يخفق جواره بما يعتمل فى قلبه هو .. إنه شئ جميل ، إننى لم أقع على هذا الشئ كثيراً فى دنياى .. يا لك من طيبة يا « نهيرة » ، لكم أحبك ..

وهمست « نهيرة » :

ـ ألا تؤمن بالله ؟؟..

فالتفت إليها « فريد » وكأنه يفيق من حلم :

ـ بلى إننا لا نجد سواه إذا اكفهرت الحياة ، وتعقدت المشاكل ..

ـ إذن فلا تحزن واترك الأمر لله ، وخاصة فى هذه الأمور التى لا دخل لنا فيها والتى لا يستطيع الإنسان أن يتصرف فيها مهما أوتى من الحذق والمهارة ..

ـ كلامك حق ، لكن الحزن كثيراً ما يأخذ بخناقنا ولا نستطيع منه فكاكا ، إنه ذو سلطان قاهر .. لكم أتمنى أن أخلص منه ، فأفشل مراراً وقلما أنجح ، لقد تعودت أن أستسلم لغمرته حتى تنجلى ...

ـ يقولون أن اصطناع السرور يؤدى إلى السرور الحقيقى ..

ـ ليس دائماً ، وعلى أى حال فاصطناع السرور يحتاج إلى جهد ومهارة ..

ـ أعتقد أن كليهما يكمن فى روحك الفتية يا « فريد » ..

فابتسم « فريد » وقد أعجب بدقة منطقها وسرعة ردها ، فانتهزت « نهيرة » هذه الفرصة وأصلحت له بعض شعرات كانت نافرة وهى تقول :

ـ إننى دائماً أوصيك بأن تحسن ترجيل شعرك ، لكن نصائحى تذهب أدراج الرياح .. يا لك من طفل مشاكس ..

فرمقها بنظرة حانية وقد شعر بكتفها يمس جسده ، وزانحة شعرها المنساب على كتفها تملأ خياشيمه فتنقله رويداً رويداً إلى جو وردى حالم جميل ، ثم تنهدت وسألت سؤالها التقليدى الذى سمعه منها طوال الشهرين المنصرمين :

— ألا تشعر بأن الجو هنا خانق ؟..

وكان « فريد » يعرف سلفاً ما يتبع هذا السؤال عادة من تصرفات حفظها عن ظهر قلب :

— وماذا ترين ؟..

فقالت وقد تضرجت وجنتاها ، وخفق قلبها ، ورقت نبراتها :

— ألا تعرف ؟..

فقال وهو يغمز بإحدى عينيه :

— ومن أدرانى ؟.. إننى لا أعرف شيئاً ..

— إذن فقم بنا يا لئيم إلى السطح .. إنها ليلة الوداع .. ثم إنى عندى لك خبر سار ..

نسيت أن أقول أن « نهيرة » لم تعد عذراء ...

أجل لم تعد عذراء ..

فبعد حفلة الخطبة كثر تردداه عليها ، واستمتع معها بالحرية المطلقة ، وحظيا بفترات هادئة وهما على انفراد ، وقد أسكرتهما نشوة الشباب ، وحمى السعادة ، وأفاقا على حقيقة واضحة لا يمكن تجاهلها ، أصبحت هى امرأة وأصبح رجلا .. وكان لا مفر من عقد القران على أن يؤجل الزواج الحقيقى إلى عام أو أكثر ..

واندفع « فريد » فى الطريق ، واندفعت معه « نهيرة » ، وشهد لهما السطح والحجرة العليا أويقات تجردا فيها من كل خوف ، وتخلصا من كل قيد ، ولم يعد شبح التقاليد والمحافظة يدخل فى روعهما شيئاً من الخوف .. وكثيراً ما سأل « فريد » نفسه كيف حدث هذا ؟.. يا لى من أحمق

متعجل ، لم أكن أحلم بمثل هذه التطورات فاذا بها حقيقة مخيفة سوف تقلب برنامج حياتى رأساً على عقب .. لكن الوزر الأكبر يقع على عاتق أمها تلك المستهترة التى هيأت لنا الفرص ، وتركت الحبل على الغارب فانطلقنا فى ميدان اللذة واللهو دون تفكر أو تدبر لما يطرأ فى المستقبل .. وأنا ؟؟.. وا عجباً كنت كالمجنون لاأعبأ بشئ ، وكالجائع الذى لا يسد له رمق ، وكالظامئ الذى لا تنقع له غلة .. كانت تجربة لذيذة جديدة. أقبلت عليها مسلوب الإرادة ، ولو وقف أحد فى طريقى وحال بينى وبينها لضحيت من أجلها بأى شئ ، حتى ولو طلبوا منى الزواج ، لكن هذا لم يحصل ، ومع ذلك كنت أشعر فى أوقات كثيرة بتأنيب الضمير ، ووخز اللوم والتقريع ، وسرعان ما يأتى الميعاد ، وأشعر أن فى بدنى كله تيارات جياشة وأمواجاً مصطحبة ، وأندفع بغريزتى إليها .. كانت أخطاء جميلة ، ولم أكن ألتمس لنفسى عذراً سوى أن « نهيرة » هى زوجة المستقبل والدليل على ذلك عقد القران الذى جعل منها زوجة شرعية لى ...

قال « فريد » « لنهيرة » :

— إن أمك ما زالت هنا ..

— ستخرج ، ولعلها خرجت فأنا متأكدة من ذلك ..

— إنى خائف ..

فضحكت وهى تمسك بيده قائلة :

— إذن فسآخذ بيدك يا صغيرى العزيز .. ألا تستطيع أن تصعد السلم وحدك؟.. أنسيت أنها ليلة الوداع ؟..

وما أن لمسته يدها يده حتى استسلم لسلطانها ، ومشى وراءها ، ووقفت لتفتح باب الحجرة لكنها التفتت إليه فى إغراء لتستقبل شفتيه النهمتين فى قبلة طويلة ..

السطح .. ثم الحجرة العليا بأساسها البسيط ، وذكرياتها المجنونة ..

والصمت .. ونسمات الصيف العليلة التى تحمل إليها رائحة الحديقة بأزهارها المختلفة وثمارها المتباينة .. وشباب وثورة ، ووداع حار ، وانطلاق دون خوف من نتائج أو عواقب ..

فقال « فريد » فى النهاية :

— ألا نعود من حيث أتينا .. فقد أوشكت أملك أن تعود ، وأظن أباك كذلك ..

— وماذا فى ذلك ؟.. لسنا صغيرين يا حبيبى الخائف ، أعلم أنه لا يجوز الخوف فى مثل حالتنا إلا للسارقين ..

— نحن لصوص العرف والتقاليد ..

— قلت لك لم نعد صغيرين .. ألا تعلم أنى .. أنى ..

— ماذا ؟؟ فيم التردد ؟..

— إنى حامل يا « فريد » !...

وأيقظته هذه الكلمات من أحلامه ، فانتفض واقفاً :

— لعلك تمزحين ..

— لامزاح يا عزيزى ، فبعد سبعة شهور ستكون أباً وسأكون أماً .. بذرة وضعناها سوياً ورويناها بحبنا ، فلا وجه للغرابة ولا محل للكلام .. فماذا أنت قائل ؟..

— ما معنى ذلك ؟..

— أن نتزوج فى أمد قصير فالوضع حرج ..

فدفعها « فريد » بعيداً عنه ، وقد عصفت به الثورة ، ودهمه القلق ، وفكر فى الزواج العاجل الذى لم يكن له حساب فى ذهنه فهتف فى غيظ :

— مستحيل أن أتزوج ..

فبكت « نهيرة » وصدرت عنها شهقات خافتة ..

– إذن فأنت تريد أن تعذبني ، وتضعني في مأزق أمام الناس وأمام أبي بالذات .. ماذا أقول له ؟.. تكلم ..

– أمجنونة أنت ؟.. أنسيت أنني ما زلت طالباً وابن فراش لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ولا أدخر ما يمكن أن يسمى مهراً ..

– لك أن تأمر فأنفذ .. لا تفكر في المهر كثيراً ستدبره أمي ، فماذا ترى ؟ ما ذنبي أنا ؟.. نحن شريكان .. ولا تنسى أن أمي قد عرفت الحقيقة ..

– أمك تعلم كل ذلك ؟..

– أجل ، لاوجه للغرابة ..

وصمت « فريد » بينما أخذ يذرع السطح جيئة وذهاباً في عصبية . ثم وقف فجأة وقال :

– إن النساء يستطعن أن يتصرفن في مثل هذه الأمور ، وما أظن أمك عاجزة عن تخليصنا من هذه الورطة .

– تقصد الإجهاض ؟..

ثم بكت مرة ثانية وهي تقول :

– أنسيت أنني حامل لأكثر من شهرين ؟ إنها جريمة قتل أن أريق دم ذلك الجنين البريء ؟

فقال « فريد » في حدة وصياح :

– أتريدينني أن أتزوج وأختي على فراش الموت ؟.. و ..

ثم تناهى إلى سمعها صرير الباب وهو يفتح في الدور الأرضي، فهتفت « نهيرة » في ذعر ووجل :

– لابد وأن أمي أقبلت .. أسرع ما رأيك النهائي ؟. لاتتركني للعذاب والموت وتسافر . ألا تحبني يا « فريد » ؟..

فأطرق « فريد » ، ونظر إلى الأرض وهو يهمهم :

– من كل قلبي يا « نهيرة » ، وأنت تعلمين ذلك ، لكن لم أكن

أتوقع هذه السرعة فى توالى الأحداث .. نحن كالواقفين بين نارين إن تقدمنا خطوة إلى الأمام أكلت النار وجوهنا ، وإن تقهقرنا إلى الوراء احترقنا أيضاً .. لكن ..

وسادت فترة صمت ، فقالت « نهيرة » فى تلهف :

– لكن ماذا ؟؟..

فرد « فريد » فى استسلام وألم :

– سأعود بعد شهر ولا مفر من الزواج حينذاك ، وسأخبر أبى بذلك ، ثم ننقذ ما يمكن إنقاذه ، وأدعو الله ألا يحدث « لريحانة » شئ يعوق ما اعتزمناه ..

فأقبلت « نهيرة » عليه تحتضنه وتقبله فى كل جزء من وجهه وهى تقول :

– لن أنسى لك هذا المعروف ما حييت .. لاتخف أبداً فالله معك ..

واتخذ « فريد » سمته ناحية السلم وهو نهب للتفكير العميق ، وأخذ يطوى درجاته فى تمهل وشرود لا يستطيع منه فكاكا ...

الفصل الثانى عشر

ـ أتحسين بشئ يا « ريحانة » ؟...

فتململت فى فراشها ، وحاولت جاهدة أن تفتح عينيها ، ثم جالت بنظراتها فى جنبات الصالة الفسيحة ،وأخذت تحملق كالحالمة فى الأسرة البيضاء المرصوصة على الجانبين ، وفى الأشباح الشاحبة التى يجلس أصحابها فوقها فقالت فى صوت خفيض :

ـ ما الذى أتى بى إلى هنا ؟.. أين أنا يا « فريد » ؟..

فاقترب « فريد » بوجهه من أخته « ريحانة » ، وهو يحاول الابتسام وقال فى رقة :

ـ أنت فى القصر العينى ..

ـ القصر العينى ؟..

ـ أجل يا أختى ..

ـ لم كل هذا التعب ؟. أما كان الأجدر بى أن ألقى الله هناك بين أولادى وأسرتنا ؟ لاحق لك فيما فعلت يا « فريد » !...

ـ لاتيأسى ، ولا تستسلمى للمرض هكذا ، إن ثقتك بالله ، وإيمانك بالشفاء لما يقربك فعلا إلى شاطئ السلام .. وقد سبق وأفهمتك هذا من قبل ..

ـ أجل لقد أفهمتنى ذلك ، لكن حالتى تتقهقر دائماً إلى الوراء ، وأرانى أتفانى كالشعاع الخابى ، فلا تحاول أن تجاملنى ..

ـ لا .. لا ، ليست هذه هى الحقيقة .. لقد قضيت عدة ساعات وأنت مغمى عليك فقام الطبيب بنقل الدم إليك ، وأعطاك عقاقير مغذية ومقوية ، وها أنذا أراك قد تحسنت .. أليس كذلك ؟..

وكأن هذه الكلمات رغم قلتها قد تركت على وجهها آثار المجهود الذى بذلته فى النطق بها : فأومأت برأسها ولم تجب ، ولم ير « فريد » حاجة إلى الاستطراد فى الحديث أكثر من ذلك فآثر الصمت ..

وبعد فترة وجيزة مال « فريد » عليها قائلا :

— إنى مضطر يا عزيزتى لأن أتركك إلى حين ، فالوقت متأخر ، ولا يسمح ببقاء الزوار مع المرضى أكثر من ذلك .. لقد قمت بالتوصية اللازمة عليك ، وستجدين من الأطباء كل اهتمام ورعاية ...

وترقرقت الدموع فى عينيها وهى تقول :

— أهكذا تتركنى وحدى ؟..

وتذكر « فريد » آنذاك أن أخته تمارس هذه التجربة لأول مرة فى حياتها فلم يحدث أن تركت هكذا وشأنها فى مكان لا يعرفها فيه أحد ، بل إنها لم تغادر « شرشابة » طول حياتها قبل مرضها .. ولطالما حامت بزيارة السيد البدوى ، وكم هفت نفسها للصواريخ التى يطلقونها هناك ولساعات المرح والكرامات والمعجزات التى يحكون عنها ولكنها لم تستمتع بهذه الأمنية إلا بعد أن دهمها الداء ، وذهبت للطبيب ، وتذكر « فريد » أيضاً أن أخته عاجزة عن القيام من رقدتها ، وفى حاجة إلى من يطعمها ويسقيها ، ويقضى لها حاجاتها ، وضميره لا يرتاح إذا ما تركها فى رعاية الممرضات ، فغالباً ما يدركهن شئ من الفتور ، وينتاب تصرفهن بعض الإهمال ، فهمس فى إشفاق :

— إننى أتركك فى رعاية الله .. وسأحضر لزيارتك كثيراً ...

ولم ينصرف « فريد » قبل أن ينفح المريضات المجاورات لها بشئ من المال ، حتى يجبن طلبها إذا أرادت شيئاً ، كما أكد توصياته للممرضات.

وقطع « فريد » طرقات القصر العينى القديم بخطوات واهنة متعبة ، وهو يشعر فى أحنائه بأحزان متراكمة تكاد تزهق أنفاسه ، ومرت بخاطره — وهو يدلف ناحية المنيرة — صورة ما مر به فى اليومين السابقين من

منغصات ومتاعب لا قبل له بها ، فادخال مريضة فى القصر العينى ليس بالأمر السهل كما كان يتصور .. وهل ينسى وقوفه فى الطابور الطويل – طابور المرضى – الذى يربو على المائة ، وأغلبهم فى مسيس الحاجة إلى العلاج الداخلي ، وعندما أتى دوره – أعنى دور أخته – نفخ الطبيب دخان سيجارته الأنيقة ، وأشر على بطاقتها قائلا : « تحضر المريضة بعد أسبوع » وعندما قرأ « فريد » المكتوب ، التفت إلى الطبيب وهو يتقد غيظاً :

– إنها تموت يا سيدى ..

– إذن فخير لها أن تموت فى بيتها ..

– أهكذا تعاملون الناس وتداوون الجراح ؟..

فرد الطبيب فى صبر نافذ :

– لاتضيع وقتنا ، ليس الذنب ذنبي ، وماذا أعمل إذا لم يكن لدينا سوى سريرين خاليين محجوزين منذ أكثر من أسبوعين دبرنى كيف أتصرف ..

– أعتقد أن حالة أختى لخطورتها أدعى للاهتمام ..

فقال الطبيب ضجراً :

– عندك حق ..

ثم استطرد فى سخرية مرة :

– أنظر هناك وقل ما رأيك ..

فالتفت « فريد » ليرى فتاة منتفخة البطن بصورة مخيفة من أثر الاستسقاء ، وقد أنهكها الداء وخلق منها الهزال هيكلا شاحباً :

– لا حول ولا قوة إلا بالله ..

فقال الطبيب وهو ينظر فى بطاقة مريضة أخرى :

– والآن ما رأيك ؟.. أترانى محقاً ؟..

ووقف « فريد » حائراً لا يدرى ماذا يفعل ، ثم هداه التفكير إلى

الاتصال ببعض ذوى النفوذ والكلمة المسموعة ، وفى اليوم التالى ، أدخلت « ريحانة » قسم الاستقبال حتى يخلو لها سرير فى القسم الخاص بعلاج السرطان فتنقل إليه . وهكذا دخلت القصر العينى ..

تذكر « فريد » وهو يدلف إلى المنبرة فى طريقه إلى شارع الصليبة ما بذله من مجهود شاق وسهر طويل ، ومقابلات هنا وهناك . وما تحمله من صبر أو على الأصح تذلل ، ففاضت نفسه بالمقت والثورة العارمة . فمشى فى طريقه وسط ضجيج العربات . ونداءات الباعة . وأجراس الترام وضوضاء المذياع . دون أن يشعر بما حوله . كان يفتح أذنيه دون أن يسمع . ويحملق بعينيه دون أن يرى . كل ما هنالك صور مختلطة وأصوات لاتكاد تميز ؛ أما الذى ملأ سـمعه وبصره فهو « ريحانة » المسكينة الباكية التى ترقد غريبة حزينة وكأنها لاتعى ما حولها : أواه .. ما أكثر الآلام .. إننا نعيش فى ظلام لانهائى .. يا رب بصيصاً من النور .. وقدراً من الهواء .. إن الحياة مرة المذاق ، شائهة المعنى والمبنى : ترى ألهذا كله نهاية ؟.. طبعاً .. لابد من نهاية . لكن ما لونها ؟.. كل ما أعرفه أنها لن تكون أسوأ مما نحن فيه .. يا لطيف ألطف ..

لكن أكان هذا كل ما يفكر فيه « فريد » ؟..

كلا .. هناك « نهيرة » . وهو لايستطيع أن ينساها . وكيف النسيان أو التجاهل . وفى بطنها ترقد بذرة غرامها المشبوب . وبعد شهر واحد يأتى الميعاد المضروب . للزواج و « ريحانة » و « نهيرة » مرتبطتان .. فكلتاهما مأساة وإن اختلفت المأساة فى طبيعتها ..

ثم هناك المدرسة الابتدائية التى يدرس فيها . فهى الأخرى لها نصيب من تفكيره وإذا ما ذكرت المدرسة ذكر الطلبة والكراسات والتحضير والتصحيح والشرح وذكر الناظر والمدرسين وما إلى ذلك ...

وتأتى الجامعة فى الآخر . ورغم ذلك فلها مطالبها واستعداداتها .. شئ واحد لم يتذكره فريد ، أو لعله كان على وشك أن يتذكره

ويضيفه إلى قائمة المسئوليات الثقال الملقاة على عاتقه ، لولا أن أحس « فريد » بيد الشيخ « بسطويسى » تربت على كتفه فجأة ويصيح فى ابتهاج :

— أشرقت الأنوار ..

وطرح « فريد » كثيراً من آلامه فى غمرة العناق التى ضمتهما معاً ، وتزاحمت تعليقات « بسطويسى » وضحكاته ، وهو لا يفتأ يصلح من وضع نظارته ، وحبك عمامته ، ولم قفطانه الفضفاض :

— يا أهلا .. يا أهلا .. أهكذا تحجبك « شرشابة » عنا هذه المدة الطويلة ؟ إن لى معك حديثاً طويلا ، متى وصلت القاهرة ؟..

— من يومين فقط ..

— يا لقلبك القاسى .. يومان دون أن نراك .. أقسم أنك تستحق الضرب ..

— أعذارى كثيرة يا « بسطويسى » ..

قالها « فريد » فى تأن ينبى عن الهم والألم ..

فقال « بسطويسى » مقهقهاً :

— وافرحتاه .. إنك تجيد التمثيل يا صديقى ، تستطيع أن تتزى بسمت المحزونين وفى قلبك جوقة تعزف أجمل الألحان ..

ثم غمز باحدى عينيه من خلف النظارة وهو يقول :

— إن مظهر الأسى يتنافى مع هيئة العرسان يا لئيم ..

ولما لم يجد « بسطويسى » استجابة لنكاته وضحكاته همس فى قلق :

— ماذا جرى يا « فريد » ؟.. أهناك ما يدعو إلى كل هذا النكد ؟..

— أبداً .. لا شئ ..

— أقسم أنك فى حالة غير طبيعية .. ليس هذا دأبك معنا ..

فتنهد « فريد » أسفاً وقال :

— تتعدل ...

— ها قد وصلنا إلى البيت .. أسرع لتخبرنى بقصتك كاملة قبل أن يأتى « فرحات السروجى » فان له معك حساباً عسيرا !...

ثم غابا فى داخل البيت بعد لحظات ...

° ° °

بعد أن انتهى « فريد » من سرد ما يمكن سرده « لبسطويسى » قال :

— أجل يا « فريد » ، نحن نعيش فى الظلام ، ويجب أن تكون هذه الحالة مدعاة إلى إصرارنا وتضحياتنا حتى نحمل المشعل لشعبنا .. وعلى ضوء هذا المشعل سينظر الناس الحقيقة .

— أتعتقد أن هناك من يجهلون الحقيقة ؟..

— لا شك أن الجهل أخطر الأدواء فى بلدنا ..

— يؤسفنى يا « بسطويسى » أن أقول لك إننا فى أمة ميتة ، ترى الحق ثم تحيد عنه دون استحياء أو خجل ، يسيرها الوعد والوعيد ..

فزمجر « بسطويسى » :

— إنك تهذى ولا شك ، كيف سولت لك نفسك أن تنطق بمثل هذا الكلام ؟..

— إنها المرارة التى نقاسيها فى شتى مرافق حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية ..

— إنى أومن معك بأن هذه المرارة عرض طارئ وليست داء أصيلا ، وشتان بين الحالين يا صديقى .. إن أمرك جد غريب ...

— إننا كما يقول المثل ننفخ فى قربة مقطوعة ..

فهب « بسطويسى » واقفاً وقال :

— دع هذا الهراء .. أنسيت أننا بدأنا كفاحنا على أساسين اثنين .. أولها أن شعبنا شعب حى ، وأمتنا العربية ذات طاقات هائلة مذخورة لا تحتاج إلا إلى من يكتشفها ويحركها نحو الطريق الأفضل ، وثانيهما أن ما حل بنا نكبة عابرة ، دهمتنا ونحن فى سنة من النوم .. هكذا بدأنا

كفاحنا يا صديقى على أساس واع فاهم لمشاكلنا ، مقدر لتاريخنا وقوميتنا .. فهل تراك نسيت ؟..

فرد « فريد » فى تذمر :

ـ دع عنك هذه الجمل الخطابية الرنانة ، إننى أشعر بالضيق والغثيان كلما طنت فى أذنى عباراتك الطنانة .. فكفى .. كفى ، إننا نضحك على أنفسنا .. لقد ذقت الأمرين حتى أدخلت أختى القصر العينى ، ولاقيت ما لاقيت طوال حياتى التعليمية ، وصدمت أيما صدمات فى علاقاتى العاطفية مع الناس .. لست أدرى ماذا بقى بعد ذلك ؟

فضرب « بسطويسى » كفاً بكف ، وأخذ يقطع الغرفة جيئة وذهوباً ، وهو نهب لتفكير صاخب وحيرة محتدمة ، ثم توقف عن السير وقال وهو يضغط على الكلمات :

ـ إسمع يا « فريد » .. إن حرصى على توضيح الحقيقة لك أسمى من حرصى على بقائك معنا كجندى فى معركة الجمهورية التى نحلم بها .. لهذا سأكون واضحاً معك منطقياً فى إيرادى الأسباب والعلل ..

فرد « فريد » بسرعة وكان قد أدرك ما انتابه من الاندفاع والشطط ، وعاد إليه قليل من السكينة :

ـ أتتهمنى بالنكوص والجبن ؟..

ـ لا أكتمك الحقيقة ، لقد توهمت ـ نظراً لما قلت ـ أنك تنوى اعتزالنا . وقد أكون مخطئاً فى توهمى ..

فأطرق « فريد » وقال بصوت خفيض :

ـ سامحك الله يا « بسطويسى » !...

ـ معذرة يا صديقى ، لقد نمت شكوكى لما سمعت منك ، وخاصة أنك لم تحرص على الحضور إلى القاهرة رغم الخطابات الكثيرة التى كنا نلاحقك بها فى « شرشابة » .. وهذا جديد لم نعهده فيك .. شيئان نخاف

مهما على رجل المبادئ — كما قال فرحات — الزواج والوظيفة ، كلاهما قيد ، ولسوء حظنا حظيت أنت بالقيدين معاً ...

ولم يجب « فريد » بل تمادى فى صمته ، بينما استطرد « بطسويسى » قائلا :

— هناك نصيحة أرجو أن تحفرها فى ذهنك يا « فريد » .. إن طريقنا كله دماء وأشواك وفشل وأهوال ؛ والفشل قد يكون أداة خبيثة للإجهاز على آمالنا ، وابتعاث اليأس فى حياتنا وقد يكون دافعاً لبداية جديدة ، ومعركة تالية ؛ وأنا أعلم أن ما صادفك من عقبات شخصية قد ترك فى نفسك أثراً سيئاً .. ويجب على أن أقدر ظروفك .. لكن لاتنس أننا يجب أن نسير رغم هذا ..

ويبدو أن « فريد » قد انجابت عنه الغمة ، وشعر بشئ من الانتعاش والإقبال على حديث « بسطويسى » الذى كان موفقاً فيما ردده من أقوال ، وهمس « فريد » فى استسلام وصراحة تدعو إلى الدهشة :

— الحقيقة يا « بسطويسى » أننى شعرت بكثير من الاضطراب فى الفترة الماضية التى قضيتها فى « شرشابة » .. كان لى كل يوم رأى جديد يناقض سالفه ، كنت أضع بعض الخطوط لمشاريع فى ذهنى فاذا بى أنقضها فى اليوم التالى وأثور عليها .. كنت ضائقاً متبرماً .. حتى ساءلت نفسى مراراً : ترى ماذا بى ؟.. إن الحياة جحيم لا يطاق .. لا شئ فيها يسر ، وكنت أضع يدى على جبهتى فأشعر بأنها تلتهب كالجمر المتقد .. اهتزت القيم فى عينى ؛ وزاغت معالم الطريق من أمامى ، واسودت الدنيا حتى خيل إلى أن النهار لا يفترق عن الليل فى كثير .. لكنى مخلص .. أجل والله مخلص يا « بسطويسى » من كل قلبى .. إن تحليلك لموقفى فيه كثير من الصحة .. أنا معكم .. لن أترككم روحى فداؤكم ..

وطافت بذهن « فريد » فى هذه اللحظة صور متعددة « لنهيرة » وأمها والحجرة العليا حيث الأساس البسيط ورائحة الشباب التى تسكر ، والليل

والألم واللذة ، ثم صورة القصر العينى .. الطبيب .. « ريحانه » .. الواسطات .. أبوه .. أمه .. زوج أخته .. « عبد الرحمن افندى » .. ما هذا ؟... لا مكان للراحة والهدوء .. يا عجباً . وهمس « بسطويسى » وقد افتر ثغره عن ابتسامة عذبة مطمئنة :

— سأعمل لك كوباً من الشاى المضبوط حتى تستعيد انسجامك ..

وقبل أن يتحرك من مكانه كان « عبد المجيد » قد دخل الحجرة دون أن يشعر به أحد ، وصاح فى مرح :

— هذه أول مرة يبادر فيها « بسطويسى » بتقديم الشاى تلقائياً .. إنه حدث ضخم لا يقل أهمية عن عقد معاهدة الزعفران !..

ووضع « عبد المجيد » ماكينة الطباعة « رونيو » على أحد المقاعد ، واندفع نحو « فريد » مرحباً وأخذ يقبله ويعانقه فى شوق ولهفة ، بينما تمتم الشيخ « بسطويسى » :

— لعنة الله عليك وعلى معاهدة الزعفران ، وعلى سكان قصر الزعفران إنكم تخلقون من الأحداث التافهة أشياء يضرب بها المثل ...

فالتفت إليه « عبد المجيد » فى سخرية ضاحكة :

— أسرع كى تجهز الشاى ولا داعى للتمحك الفارغ .. لقد كدت تسبب لى الهوس والجنون طوال المدة التى قضيتها معك .. ما كان أكثر خطبك وأقل طعامك .. طويل اللسان قصير اليد .

فهمهم « بسطويسى » وهو يتوارى عن الأعين :

— مفاجيع .. فما ذنبى أنا ؟..

والتفت « عبد المجيد » إلى « فريد » فى سرور :

— ما هذه الغيبة الطويلة يا رجل .. سبحان من رزقنا الصبر على فراقك .. تركتنى « لبسطويسى » فأذاقنى الهوان والذل .. كان يطعمنا الفول صباحاً والطعمية ظهراً والجبن مساء مع الخبز .. فاذا ثرت أو أبديت احتجاجاً قال : « إن من قبلكم من العرب فتحوا الأمصار وملكوا الدنيا

وبعضهم لم يكن يحمل فى جرابه غير التمر » .. فاذا صحت وتبرمت قال لى : « خير الزاد التقوى » وإذا ما طلبت منه زجاجة من الكوكاكولا زعم أن هذا ترف وتبذير ، بل ورجس من عمل الشيطان ، وإذا ما طلبت منه نقودى .. نقودى أنا .. أبى وادعى أننى قاصر .. الحمد لله انك قد أتيت سأخرج حبات عينيه ، وأذيقه العذاب ألواناً ..

وأخذ « فريد » يستمع « لعبد المجيد » وهو يروى عن « بسطويسى » مستعملا لسانه ويديه ورأسه وكل أعضائه تتحرك بطريقة تمثيلية مضحكة ثم يفاجئ « فريد » بقوله :

— طيبون ؟.. سلامات ..

فيرد « فريد » مبتسما :

— الحمد لله .. لكنك تقسو على « بسطويسى » ..

— لأنه لا يرعوى ، ان هذه الرأس المملوءة بألفية ابن مالك وشرح ابن عقيل — صلبة لا تلين ولا تتحول ولو تحول المقطم .. إن الشيخ « بسطويسى » ظاهرة من ظواهر الطغيان الملكى الاستعمارى ...

فضحك « فريد » مرة ثانية وقال :

— حرام عليك ، لو صار كل الأزهريين على نمطه لتغيرت الأحوال أيما تغير !...

— بل لهاجرنا من مصر ، ولأصبحت الديار المصرية بقدرة قادر الديار الأزهرية وهكذا ينقلب المقطم جبلا من الطعمية ، والنيل بحراً من السلطة ..

— لسانك حاد يا « عبد المجيد » ، وتزعم أنك من أعدى أعداء الطائفية والتعصب فى حين أنك تشن حملة شعواء على الأزهريين .. لست أفهمك .

— وماذا أعمل « لبسطويسى » ، لقد جعلنى أكفر بكثير من المثل التى أعتنقها ولو سار على هذه الخطة لخفت على عقيدتى أن تهتز ..

– إنك تبالغ ولا ..
وقطع « عبد المجيد » حديث « فريد » وقال فى عجلة :
– صه .. لقد عاد « بسطويسى » ، ولو سمعنى لكان جزائى الحرمان من الشاى ..

وانقضت الليلة فى لهو ومرح برئ ، « عبد المجيد » يحكى عن نوادره وعن قصته فى شارع خيرت بأسلوب تهكمى ساخر ، و « بسطويسى » يدس أنفـــه فى كل موضوع ويسهم بنصيب موفور فى كل حديث و « فريد » يعلق تعليقات مقتضبة ..

وكان جلياً أن « عبد المجيد » قد انصرف كلية عن موضوع « نهيرة » . ووجه طاقته نحو الكفاح مع زملائه ، والانغماس فى العمل ، والإسهام بنصيب موفور فى الجلسات المرحة ، فلم يبد من لقائه وأحاديثه مع « فريد » شئ غير عادى ، بل كان كدأبه وفياً مخلصاً مرحاً ..

الفصل الثالث عشر

مضى على وجود فريد « الحلوانى » فى القاهرة أسبوع ، التقى خلاله بالضابط « فرحات السروجى » الذى كال له العتاب العنيف ، واللوم الحاد على تقاعسه وإهماله ، لقد قال له « فرحات » :

– شتان بين اليوم والأمس يا « فريد » ..
– إنك ولا شك قد ألممت بكافة ظروف ..
– لم يكن ذلك مبرراً كافياً لغيبتك الطويلة ..
– هكذا أنت تقسو دائماً فى حكمك ، رغم حرصى على إطاعة أوامرك ..
– ترى هل ستعود إلى سابق اهتمامك بما تعاهدنا عليه ؟..
– لا شك فى ذلك ..
– أأعتبر هذا عهداً منك ؟..
– طبعاً ما دامت الظروف مواتية ..

فقال « فرحات » فى تذمر :

– يا لك من كسول متردد .. نحن الذين نخلق الظروف ، ونحن الذين نستطيع أن نفى بالتزاماتنا متى بيتنا النية وعقدنا العزم ..
– ليست إرادتنا بهذا القدر من القوة والسيطرة ، أننا فى كثير من الأحيان دمى تحركها الأقدار .. حذار أن تغالى فى الفخر بقوتنا .. لقد رأيت فى الشهور القليلة الماضية ما جعلنى أشعر بأنى إنسان محدود الطاقة ..
– تلك فلسفة الضعفاء والعاجزين ، ومشاعر المترددين .. أليس كذلك ؟..
– كلا ، بل هى فطرتنا وطبيعتنا فى طريق الحياة ..

فاعتدل « فرحات » فى جلسته ، وبان على وجهه الحد والإصرار ، وقال فى لهجة صارمة حادة :

– إسمع .. لاتجرنى معك فى تلك الدائرة المفرغة من الجدل العقيم .. ليس هذا دأبنا افهمنى جيداً .. أمستعد أنت لتنفيذ ما آمرك به ؟..

فرفع « فريد » إليه وجهه ورأى ما ارتسم على ملامحه من انفعالات وحاول أن يتكلم فأسرع « فرحات » السروجى قائلا :

– الوقت ضيق والأحداث تجد فى سيرها مسرعة ، والبلد على شفا الهاوية والأعذار غير مقبولة ، أفهمت ما أقصد ؟..

قال « فريد » فى تردد :

– لكن أنا مشغول ..

– ماذا تعنى ؟..

– أختى فى القصر العينى تموت ، والله وحده يعلم متى تكون النهاية ، وظروفى العائلية فى منتهى الضيق والحرج ..

قال « فرحات » متبرماً :

– أهناك شئ آخر .؟

– كلا ..

– أفهم من ذلك انسحابك من الميدان ؟..

– أبداً أبداً ، ما قلت ذلك .. كل ما أقصده هو إعطائى شبه أجازة لفترة قصيرة لا تتجاوز شهرين ..

فأعطاه « فرحات » ظهره غاضباً وهم بالانصراف ، لكن « فريد » اعترض طريقه واقترب منه مطأطئ الرأس وقال :

– « فرحات » ..

– نعم ..

– لا داعى للإجازة .. أهناك أوامر جديدة ؟.. أتكلفنى بأى عمل الآن ؟..

فأضاء وجه « فرحات » بابتسامة عذبة وأقبل على « فريد الحلوانى » يقبله قبلة حانية فى جبهته ورفع « فريد » رأسه ليقول له فى دعابة :

ـ أما أنا فسأقبلك فى صلعتك .. إنها أعز وأكرم صلعة صادفتها فى حياتى ..

ـ شكراً يا « فريد » .. إنك شاب طاهر المعدن . نقي القلب . ما أشرف أن يكافح المرء فى جبهة واحدة مع أمثالك .. كلما رأيت طيبتك وصدقك آمنت بالقوة المذخورة فى بلدنا .. أنت رجل يا « فريد » ..

ـ العفو .. يا فرحات » أنت قدوتنا وأستاذنا ؛ ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك ..

فابتسم فرحات وقال :

ـ لقد كنت أتلهف على رؤياك . أتدرى لماذا ؟..

فوقف « فريد » منتظراً لما يقول :

ـ لم هذه اللهفة ؟..

ـ كنت أود أن أشتمك .. أضربك .. أضغط على عنقك ، لأنى كنت فى منتهى الضيق والغيظ لإهمالك وغيابك عنا .. لم أكن أتصور أن عروسك تشغلك عنا لهذا الحد ، لقد شعرنا بأن هناك منافسة خطيرة على وشك أن تنتزعك منا ونحن فى مسيس الحاجة إليك ..

ـ ألهذا الحد يا « فرحات » ؟..

ـ وأكثر من ذلك .. لكن الله سلم ، لم أستطع إلا أن أعاتبك عتاباً أقل بكثير مما كنت أنتويه لك ..

ـ الحمد لله ..

وفى هذه اللحظة دخل « عبد المجيد » ، وكان على غير عادته مضطرباً مصفر الوجه ، قد غاض البشر من وجهه ، وغامت عيناه بالدموع ،مرتبكاً لا يدرى كيف يدارى ارتباكه .. فوقف « فريد الحلوانى »

جامداً لمرآه ، بينما أقدم عليه فرحات في خطوات ثابته . وفي صوت خفيض قال :

— ماذا هناك ؟.. هل حدث مكروه « لبسطويسي » ؟.. إنه لم يعد حتى الآن من مهمته منذ الصباح ..

فتلفت « عبد المجيد » يمنه ويسرة لا يدري ماذا يقول ثم همس في أذن « فرحات » :

— « ريحانة » ماتت ..

فرد « فرحات » في فزع قائلا :

— ماذا ؟.. أخت « فريد » ؟..

— أجل . ذهبت لأعودها ، فلم أجدها في مكانها المعتاد ، وسألت المرضى فأجابوا بعيونهم الحزينة ، ونظراتهم الحائرة : « أن ماتت » فسارعت بالخبر ..

ولمعت قطرات العرق على جبهة « فرحات » وصلعته، وأخذ يضغط بأسنانه ، ويعبث بأصابعه هنا وهناك ، ولا يستطيع أن يتجه ببصره إلى « فريد » .. وخفق قلب « فريد » وهرول نحوهما في لهفة :

— ماذا هناك ؟.. هل حدث شئ ؟..

فلم يجيبوا .. فأمسك بذراع « عبد المجيد » يستحثه كي يتكلم . لكن « فرحات » في هذه اللحظة قد تمالك نفسه وأفاق من حيرته وتقدم نحو « فريد » قائلا في نغمة حزينة باكية :

— البقية في حياتك .. شد حيلك .. كلنا إلى زوال ..

وهتف « فريد » في رعب :

— « ريحانة » ؟؟...

فأومأ « فرحات » برأسه قائلا :

— أجل ..

ودارت الأرض « بفريد » ووقف مذهولا .. لا دموع .. لا صراخ ..

بل صمت ثقيل رهيب .. الناس فى شارع الصليبة هم هم لم يتبدلوا ، وضجيج العربات لم يتحول ، ونداءات الباعة ، وصياح الأطفال ، وضوضاء الراديو كلها كما هى .. وهناك فى ركن قصى من القصر العينى جثة خامدة الأنفاس ، شاحبة نحيلة ترقد فى برود وجمود .. صمت وألم وغرور ، تلك هى الحياة .. غربة وأحزان ، تلك هى رحلة العمر .. والقدر يا لشأنه العجيب ، يفتح إحدى أذنيه على أنغام الحب والمرح والسعادة ، ويفتح الأذن الثانية على الآهات والأنات والألحان الجنائزية الرهيبة ...

وهمس « فريد » مرة ثانية ..

— إذن ماتت « ريحانة » ..

فلم يجب عليه أحد ، ودار بعينيه فى أنحاء الغرفة دون أن تلحظ نظراته الشاردة شيئاً مما بها ، وتذكر أخته وهى ترقد على سريرها وحيدة غريبة ، وتذكر كلمتها التى قالتها له يوم دخولها القصر العينى : « أتتركنى هنا لوحدى » فشعر بما يشبه المدى الحادة تمزق فى أحشائه وتقطع فى شغاف قلبه .. ففاضت مشاعره ، وهاجت عواطفه ، فلم يستطع أن يكبحها فانفجر باكياً وأخذت شهقاته يتردد صداها فى أجواء الغرفة الساكنة الحزينة ..

وصوت « عبد المجيد » يهمس بطريقة تقليدية ولكنها حزينة :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .. العاقبة للمتقين ..

• • •

إن المصائب لا تأتى فرادى ...

ويبدو أن أعداء الإنسان فى هذه الحياة كثير ، وكل خصم ينتهز الفرصة السانحة حتى يضرب ضربته ، وليس أوفق للنكبات من أن تسدد سهمها إذا حلت بالإنسان كارثة ، فسيكون ذلك مدعاة لضمان النتيجة

والقضاء التام على كل مقاومة .. والأقدار تحسن سياسة الإجهاز على ضحيتها .

مرت نصف ساعة على هذا الخبر المفجع ، وعقرب الساعة قد اقترب من الثامنة مساء ، والثلاثة : « فرحات » و « عبد المجيد » و « فريد » جلسوا يدبرون أمر الراحلة ويفكرون فى طريقة نقلها إلى « شرشابة » ...

لكن هناك ضجة واضحة ، وخطوات متلاحقة سريعة تدب على السلم ، ورغم ذلك فالثلاثة لا يهتمون كثيراً بما يسمعون انهم مستغرقون فى المصيبة التى حلت « بفريد » ... ثم يفتح باب الشقة بعنف ... وصوت أجش يصيح فى قوة وعنف :

– لا تتحرك من مكانك .. سأطلق الرصاص إذا بدرت أية حركة ..

وتقدم ضابط شاهراً مسدسه ، يبدو فى عينيه اليقظة التامة وقال لمن معه من الجنود :

– ضعوا الحديد فى أيديهم ..

ثم التفت إلى الأصدقاء الثلاثة وقال :

– متأسف هذه أوامر لا مناص من تنفيذها ..

وأسرع الجنود فى تنفيذ ما طلب منهم ، وانفلت بعضهم هنا وهناك يفتشون الأثاث ويقلبون فى الكتب ، وأدراج المكتب والدولاب ، باحثين عن أوراق أو أسلحة ، ثم عثروا ببعض الأوراق الخاصة وماكينة الطباعة « الرونيو » وقليل من المنشورات القديمة ..

وقال الضابط « فرحات السروجى » :

– ترى ما الداعى لكل هذا ؟..

– إنها أوامر كما قلت لسيادتك .. أليست هذه شقة « بسطويسى فخر الدين » الطالب بكلية اللغة العربية ؟؟..

– أجل ..

— ها هو الأمر بتفتيش الشقة تفتيشاً دقيقاً ، والقبض على كل من نجده فيها ..
— لكن ما صلتنا نحن بذلك ؟..
— لقد تم القبض على « بسطويسى » ..
— أمعك أمر بالقبض علينا شخصياً ؟..
— كلامى واضح ... المسألة ليست سهلة ..
— لا دخل لنا ، ولا محل للقبض علينا ..
— سرى ، ما هى إلا دقائق ثم تعودون ..
— أحب أن أعرف سيادتك بأنى ضابط فى الجيش ..
— تشرفنا ، لكن هذا لا يغير من الأوامر الصادرة إلينا ..
وفى هذه الآونة كان « فريد » يقف دون أن يكترث لشئ ، والأحزان قد أطبقت عليه من كل صوب ، وفجيعته فى أخته قد جعلت الدنيا سوداء مقفرة أمام عينيه ، وأخذ ينظر إلى ما أمامه بذهول ولا مبالاة ، حتى لكأن الجنود والضباط الموجودين أشباح تتحرك ، لا آدميون يقومون بعملية كبرى وهى القبض على جمعية خطيرة تعمل على إقامة جمهورية مصرية مستقلة ..
وهتف الضابط :
— هيا بنا لو تكرمتم ..
ووقف « فرحات » فى حيرة وثورة عارمة لا يدرى ماذا يفعل ، وهمس لنفسه : « يبدو أننا قد وقعنا فى الفخ ، قلبى يحدثنى بأن هناك أموراً خطيرة ... أجل ، لقد وقعنا قبل أن يكتمل نضوج الثمرة .. لكن من يدرى ؟ لعلها حادثة ضئيلة نعود على أثرها إلى الكفاح من جديد ..
وقال الضابط للمرة الثانية :
— هيا بنا أرجوكم ..
وتلفت « فريد » وكأنه يفيق من حلم وقال :
— إلى أين أنتم ذاهبون ؟..

وتذكر « فرحات » مأساة « ريحانة » ، وكان قد نسيها فى خضم المفـاجأة التى دهمتهم من جراء القبض على « بسطويسى » ، ولم يدر « فرحات » بماذا يجيب ..

وقال الضابط :

— مرة ثالثة أقول انكم مقبوض عليكم بأمر الداخلية .

— لكن أختى ..

فالتفت إليه الضابط فى اندهاش :

— وما شأننا بها ؟..

— إنها فى القصر العينى ..

فزاد الأمر إبهاماً وغموضاً أمامه وقال :

— لست أفهم ما تقول ..

وهنا تدخل « فرحات السبروجى » قائلا :

— منذ نصف ساعة توفيت أخته فى القصر العينى وكنا على وشك نقلها إلى قريتهم فالأمر يحتاج إلى تصرف عاجل ، فما الحل ؟..

— البقية فى حياتكم .. شئ محزن حقاً .. لكن الأنكى من ذلك أننى لاأدرى كيف أتصرف إزاء هذه المشكلة العويصة .. أليس للفقيدة أقارب هنا ؟..

— كلا ..

وبان الأسى والحزن العميق فى عينى الضابط وقال :

— هيا بنا .. سنتصرف بما يرضيكم ..

وحينما تحركوا خارجين من مسكن الشيخ « بسطويسى » ، كان « فريد » يقول بنبرات متحشرجة باكية :

— حرام عليكم .. ألا تقدرون حرمة الموتى ؟.. أأتركها وحيدة حية وميتة ؟..

ورمقه الجنود بنظرة أسف ولم يدروا بماذا يجيبون ...

الفصل الرابع عشر

زنزانة ضيقة تحمل رقم ١٢ ، أربعة جدران ، « مبولة » ، جردل لمـــاء الشرب ، وبرش وبطانية ، ونافذة صغيرة ذات قضبان متقاطعة وشبكة من الأسلاك الصدئة ، وباب مغلق مكتوب عليه بعض الكلمات المحفورة فى الخشب ما بين أسماء وآيات قرآنية وعناوين :. المعلم دسوقى العريان رئيس عصابة مخدرات ومن كبار التجار :. قحافة غربية .. الصبر طيب .. يا كريم والله لتفرج ... بقلط الحناوى تاريخ إفراجه ٧ شهر ٧ سنة « ••• » من أعيان كفر البلاص .. هذه هى بعض العبارات المكتوبة على باب الزنزانة من الداخل ...

وكان « فريد الحلوانى » يجلس فى هذه الزنزانة فى شبه ذهول ..

ما أقسى الحبس الانفرادى وخاصة إذا سيطر القلق على الإنسان وكان ينتظر شيئاً ما .. شيئاً خطيراً سوف يحدد مصيره إما إلى السجن وإما إلى عالم الحرية .. وكان الصمت والسكون الرهيب يضفى جواً غريباً على الزنزانة ، وشعر « فريد » بهذا الجو الخانق ، وكأنما كانت هناك يدان غليظتان تحاولان خنق أنفاسه ، حتى الضوء الباهت شارك فى إيجاد ذلك الجو المتعب ..

هل كان « فريد » يتصور أن نسق حياته سينقلب رأساً على عقب ، فيبدله الله « بشرشابة » وأراضيها وسعتها زنزانة مقيتة ضيقة .. وهل خيل إليه يوماً ما أن يترك جو الجامعة وطلبتها وطالباتها وأساتذتها ويأتى هنا ليشقى بوجود السجانين ذات السحنة الصارمة ، والتعبيرات الغليظة ؟؟..

كان « فريد » — كرجل كفاح — يفكر فى اليوم الذى يقدم فيه بعض التضحيات ، وقد تصل هذه التضحيات إلى الذهاب إلى السجن ، لكن

التفكير فى بذل التضحيات شئ ، وملاقاتها فعلا شئ آخر .. ما أكثر ما يصطدم الإنسان بالمرارة والأسى عندما يحاول أن ينقل الأفكار إلى المجال العملى ..

همس « فريد » فى حزن :

« الحرية .. الآن أستطيع أن أهتف بها فى شوق وإلحاف وتقدير لحقيقتها .. لطالما تغنيت بها ودعوت إليها .. لكن كل ذلك كان عن تقليد وطموح إلى المثل العليا .. أما الآن فقد تغيرت مفاهيمها فى ذهنى وأصبح لها ظل جميل تهفو إليه نفسى .. »

وتأوه « فريد » ثم كور كفه وضرب بها على حائط الزنزانة فى تذمر وقال :

« ما أضيق هذا المكان .. أكاد أختنق .. أما لهذا العذاب من نهاية يا رب ؟ !... إنى أفضل الموت على ذلك الوضع ، ما أتعس أولئك الذين يقضون السنوات الطوال وراء الأسوار .. ألست « ريحانة » الآن أهنأ بالا ، وأسعد مضجعاً منى ؟.. أجل « ريحانة » المسكينة رحمها الله .. آه يا أختى لقد أبت الأقدار على أن أشيعك إلى مقرك الأخير .. »

وسالت الدموع على خديه فى غزارة .. أكان يبكى نفسه . أم كان يبكى أخته الراحلة .. أم الاثنين معاً ؟... وطافت بذهن « فريد » صورة سريعة متلاحقة لما مر به منذ أن قبض عليه حتى الآن .. سبعة أيام طويلة حتى ليخيل إليه أن كل يوم يوازى عاماً كاملا لما فيه من الآلام والعذاب وهل ينسى أول يوم ؟.. لا يمكن أن ينساه أبداً .. ماذا حدث فيه ؟ « يا إلهى ما أقسى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .. » هل يستطيع أن يحصى الركلات والصفعات واللكمات التى تناولت كل جزء من جسمه ؟.. والسياط التى كانت تهوى على قدميه وعلى جسده ، وحرب الأعصاب التى شنها عليه المحققون .. والسخرية المرة التى حاول « بعضهم » أن يصبها عليه حتى يهدم مقاومته ويحطم أعصابه .. ثم أخيراً المفاجآت التى واجهوه

بها ... أجل إنها المؤامرة الكبرى كما سموها ضد الملكية .. والأوراق التي أمسكوا بها لدى « بسطويسى » .. والخطط والتدبيرات التي عثروا عليها عند « فرحات السروجى » .. ماذا كان يعمل « فريد » إزاء ذلك ؟.. ثم ماذا يعمل الآن ؟.. لم يبق إلا دقائق ثم يجرونه جراً إلى حيث التحقيق وإذا ما ذكر التحقيق ذكرت الآلام التي فوق طاقة البشر .. وشعر « فريد » بالضيق ونفاذ الصبر .. وهتف من أعماقه :

« لقد ضعت .. حتى الصحف قد خلقت جواً كاذباً مبالغاً فيه حول قضيتنا .. والسراى نفسها تشرف على التحقيق .. ومندوب جلالة الملك .. وراء التحقيـــق خطوة خطوة حتى يبلغ القصر بالتفاصيل أولا بأول .. و « عبد المجيد » هو الآخر مسكين لقد ازداد شحوباً ونحولا .. بل إنهم حملوه بالأمس إلى مكان التحقيق .. أما « بسطويسى » يا لمقاومته وصلابة رأسه ، إنه لا يكل ولا يمل من الضرب بل يكيل لهم السباب في ثورة وجنون .. أما « فرحات » ... سامحه الله .. هو السبب في كل شيء إنه لا ينبس ببنت شفه رغم ما عذبوه وخوفوه ثم منوه ووعدوه .. والأدهى من ذلك أنه يرمقهم باحتقار وعناد .. آه ، أتراني أستطيع أن أتحمل مثل الأمس .. يا إلهي .. بعض الإيمان .. لقد سئمت الصبر .. أوشك أن أنهار .. »

وهنا سمع « فريد » خطوات رتيبة لكنها عجلى تدب على الطريق الضيق الذى يفصل صفى الزنزانات عن بعضها ، إنها خطوات لا يخطئها « فريد » لقد تعودها ، فهى تبعث القشعريرة فى بدنه .. والهلع والفزع فى نفسه .. لكم استسلم لضربات مثل هذا الحذاء الثقيل ... يا للمهانة والذلة .. إن « فريد » لم يكن يتصور أن تمتد يد بالإهانة إليه ، وها هو الآن تمتد إليه عشرات الأيدى بالأذى « الخطوات تقترب .. لقد جاءوا .. وضعوا المفتاح فى ثقب الباب .. يجب أن أسارع وأقف انتباه حتى أوفر على نفسى صفعتين أو ثلاث من كف الجندى الغليظة .. »

وهب « فريد » واقفاً ، وقلبه يخفق بشدة وعنف ..

ـ هل أنت جاهز يا ولد ؟..

ـ جاهز يا أفندم ...

ـ إمش قدامى ..

ومشى « فريد » أمامه فى خوف منتظراً الكف التى تهوى على قفاه كالمعتاد « نزول البلاء ولا انتظاره » ليته يضربه حتى يستريح ، وتكلم الجندى مرة ثانية فانتقض جسد « فريد » . :

ـ هيه .. أتعترف الليلة أم لا ؟..

ـ علام أعترف ؟.. والله أنا مظلوم ..

وكانت لهجته فيها كثير من الذلة والخنوع الذى أشعره بالخجل ، فلم لا يكون مثل « بسطويسى » و « فرحات » و « عبد المجيد » وغيرهم من المجموعة المقبوض عليها والتى يربو عددها على العشرين ؟.. أهو أضعف منهم إيماناً وأقل منهم صبراً وطاقة ؟..

وهتف الجندى وهو يرمقه بنظرات نارية :

ـ سنرى ، وستعترف رغم أنفك .. إسمع يا ولد ..

ـ نعم يا أفندم ..

ـ هل أنت موظف أم طالب ؟..

ـ طالب فى كلية الحقوق و ..

ـ ملعون أبوك وأبو كلية الحقوق .. لم تجدوا من يحسن تربيتكم ياأولاد الكلب ...وأبوك بما يشتغل ؟..

فرد « فريد » بصوت خفيض :

ـ فراش مدرسة يا افندم ..

ـ يعنى ليس لك من يحميك أو يسأل عنك ويتوسط لك ..

ـ لنا رب .. يا افندم .. والله أنا مظلوم ..

— جئتم هنا للتعليم أم لتكوين العصابات ضد الملك ؟.. لا بد وأنكم مجانين ..

— أبداً والله يا افندم ..

وأهوى الجندى بيده على قفاه بقوة مما أدى « بفريد » لأن يتعثر فى مشيته ، وهو يسمع الجندى يقول :

— إخرس يا لئيم .. ربنا برئ منكم ومن أعمالكم .. « تصلون الفرض، وتنقبون الأرض .. »

فالتفت إليه « فريد » متوسلا :

— ألم تكتف بضربى طوال هذا الأسبوع ؟.. أليس لك أولاد ؟..

— حاشا لله أن يكون لى أبناء عاقون مثلك .. (صمت) لكن يبدو عليك أنك مسكين ولست مثل المدعو « بسطويسى » صاحب اللسان الطويل .. ترى ما الذى قذف بك بين هؤلاء الشياطين ؟.. إنهم خلقوا للمشاكسة والسجون ..

وارتاح « فريد » لتلك اللهجة الطيبة الودودة ، وإن كان ألم الصفعة ما زال يؤلمه ، لكنه شعر بالخزى يغمره لضعفه واستذلاله ، وتضاءل أمام نفسه كلما طاف بمخيلته صورة إخوانه الصامدين الذين لا يهتزون للعذاب ، ولا يضعفون أمام التهديدات ..

ويظهر أن المحققين قد وجدوا أن « فريد » يعتبر « نقطة ضعف » أو ثغرة يستطيعون النفاذ منها إلى أسرار زملائه ، لأن الأوراق المضبوطة وحدها لا تكفى ، ثم أن الأوامر جلالة الملك صريحة بشأن الحصول على أقصى ما يستطيعون من أخبار هؤلاء الشباب ، وخاصة أن بينهم ضابطاً له مركزه ونشاطه الخطر ..

وحينما وصل « فريد » إلى حجرة التحقيق أحاطوا به ، فوقف بينهم منكس الرأس ، واجم الفؤاد أشعث الرأس ، ممزق الثياب ، ثم اختلس بعض النظرات لعله يرى أحداً من زملائه ، فوجد « بسطويسى » يقف

فى أقصى الغرفة والدم يلوث ثيابه ، والعناد والإصرار يرتسم على وجهه وفى عينيه ، أما « عبد المجيد » فقد ارتمى أرضاً وقد ازداد شحوباً ونحولا عن الأمس ، ونظارته لم تعد ترى على عينيه ، و « فرحات » لم يكن موجوداً .. لكن هناك بعض الزملاء الآخرين يقفون بالقرب من « بطويسى » لا يقلون عنه سوءاً وجراحا ..

وتقدم أحد المحققين إلى « فريد » وابتسم له متودداً :

— أنت شاب جامعى لطيف .. ولك مستقبل ، ونحن لا نبغى لك الضرر .. لهذا لاتكن مثل ذلك الأزهرى العنيد (وأشار إلى بسطويسى) .. تكلم ، وأقسم لك بشرفى لأجعلنك « شاهد ملك » ولن تدان أقل إدانة ..

ورفع « فريد » بصره فالتقت عيناه بنظرات « بسطويسى » النافذة المتوعدة فقال :

— والله لا أعلم شيئاً !..

— وجمهورية أفلاطون ألا تعلم عنها شيئاً أيضاً ؟؟..

قالها المحقق فى سخرية ، ثم واصل كلامه قائلا :

— والمنشورات التى كنتم تنشرونها فى الأزهر ومسجد السيد البدوى والجامعة والمدارس .. والخطب الرنانة .. بماذا تعلل كل ذلك .. ؟

— انى لم أشترك إلا فى بعض الحركات الوطنية التى كان يقوم بها شباب الجامعة ضد الانجليز فقط .. وهذا لا يدعو إلى محاكمتى وإلا لحاكمتم عشرات الألوف من الشباب ..

وهنا تدخل محقق آخر ورمق فريد بنظرات حادة وقال :

— يظهر أنك غبى سخيف لا تستأهل حسن المعاملة .. انى أفهم تماما الأسلوب الذى يجدى معك ..

وانهال عليه ضربا مبرحا ، وفريد يتأوه ويتألم ، أما عبد المجيد فقد كان يرفع رأسه المتعبة ، ويحاول جاهدا أن يرى ما يحيق بفريد لضعف بصره ،

وتسيل العبرات على خديه ، بينما تتقلص عضلات وجه بسطويسى ويصيح فى عصبية :

ـ يسقط الظلم . .

فيقبل عليه محقق ثالث ويصعد فيه بصره بازدراء ، ويشير إلى أحد الجنود فيأتى اليه مهرولا بينما يقول المحقق :

ـ الشيخ بسطويسى هذا أزهرى قح . . اضربوه . . اضربوه على على رأسه . . ان حشو هذا الرأس عبارات جوفاء عن الحرية والعدالة والمساواة والجمهورية . . اضربوه حتى تخرج هذه الأوهام من مخه المشوش المغرور . . اضربوا هذا الخنزير اللعين . . ماذا تعمل إذا كان شيخ الأزهر ومدير الجامعة يتركان أغنامهما تعيث الفساد فى البلد وتهتف « إلى أنقرة يا ابن المرة . . رأس الأفعى خان الشعب . . من لا يحكم أمه لا يحكم أمة . »

وانهالوا ضربا على بسطويسى الذى أخذ يصيح :

ـ أحد . . أحد . .

فاقترب منه المحقق وقال له فى سخرية وشماتة :

ـ يا ولد يا بلال . . يا مؤذن الرسول . .

ـ يا مجرمين . . يا كفرة . .

ـ اخرس قطع لسانك . . لقد جعلت من مسكنك فى شارع الصليبة وكرا للأفاقين والمغامرين . . ستأخذون جزاءكم كاملا . .

قال بسطويسى فى تحد :

ـ بأى حق تعاملوننا هذه المعاملة الوحشية . . ؟ ألسنا بشرا مثلكم . ؟

ـ بل أنتم حمر مستنفرة فرت من قسورة يا سيدنا الشيخ . . اضربه يا عسكرى . . حتى يكف عن هذا الهذيان والهوس . .

والتفت إلى بسطويسى قائلا وهو يركله :

ـ اللهم اجعلنا من بركاتك يا سيدنا الشيخ بسطويسى . .

* * *

وفى آخر الليل كان الإعياء قد بلغ بفريد مبلغا كبيرا ، بينما ارتمى « بسطويسى » مغمى عليه ، فى حين كان عبد الحميد كالذى يلفظ أنفاسه الأخيرة . .

وهمس فريد فى صوت واه ضعيف :

— يا سيدى المحقق . . كفى تعذيبا . . سأخبرك بكل ما تريد . .

فأسرع اليه المحقق ، بينما رفع بسطويسى رأسه فى دهشة وقال :

— حذار يا « فريد » . . هل جننت . . ؟

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى حملوه إلى الخارج وقذفوا به فى زنزانته ، ثم عادوا إلى فريد ليسمعوا منه ما يقول ، ورفع فريد عينيه إلى السماء وقال فى ضراعة :

— يا رب غفرانك . . انى بشر ضعيف . . لن أستطيع التجلد أكثر من ذلك . .

ثم التفت إلى المحقق وقال :

— والآن ماذا تريدون . . ؟

— هل اشتركتم فى المظاهرات التى كانت تهتف بسقوط الملك . . ؟

— أجل ، واشترك معنا كثيرون من طوائف الشعب . .

— حسنا ، وهل كان لكم تكتيكات خاصة ، وخطوط معينة لاسقاط الملكية واقامة الجمهورية ؟

— لم يتجاوز الأمر بث الدعايات وتوزيع المنشورات ، والحض على الثورة . .

— اذن ففيم وجود بعض السلاح عندكم . . ؟

— كميات ضئيلة تستخدم فى أغراض تافهة . .

— هل تدرى كم عددكم . . ؟

— لا . .

— ماذا كانت مكانة الضابط فرحات السروجى بينكم . . ؟

– الرئيس الفعلى لنا والموجه لأفكارنا وتحركاتنا . .
– وماذا كان دور كل واحد منكم بالتفصيل وعلى وجه الدقة . . ؟
واستمر المحقق يلقى بأسئلته ، وفريد يجيب عليها بصراحة واستهانة غير عابئ بما يجلبه عليه هذا التصرف من نتائج فى غاية السوء . .
وبعد أن انتهوا من استجواب فريد لم يروا بأسا من أن يعفوه من الحبس الإنفرادى ويسمحوا له بالانضمام مع عبد المجيد الذى ساءت حالته الصحية لدرجة تنذر بالخطر ، وأضافوا اليهما زميلا ثالثا . .

* * *

وعاد الزملاء الثلاثة إلى زنزانتهم ، وكان التعب قد أنهك قواهم فارتموا على « أبراشهم » خائرى العزم ، وراحوا فى سبات عميق إلا « عبد المجيد » الذى أخذ يتقلب ذات اليمين وذات الشمال ويتألم . .
وفى الليلة التالية أصيب عبد المجيد بالهذيان على أثر ارتفاع فى درجة حرارته ، وفكروا فى أول الليل أن يطلبوا الطبيب ، لكن عبد المجيد أبى ، وهمس فى حزن عميق :
– انى أموت يا أصدقائى . .
فرد فريد قائلا فى قلق :
– تموت . . ؟ ادفع عنك هذه الأوهام ، يجب أن نفكر فى الافراج عنا . .
فقال « عبد المجيد » وهو يبتسم :
– أجل الافراج . . انى أشعر بأنه قريب جدا . .
– هذا هو الكلام المعقول . . لعلك رأيت فى منامك رؤيا جميلة . .
فتنهد « عبد المجيد » وهمس :
– سيكون الأفراج عنى أنا وحدى . .
– يا لك من أنانى . . ونحن ؟ ألا يهمك أمرنا . . ؟
وقد ظن فريد أن عبد المجيد يهذى ، لهذا آثر أن يتركه يتكلم كيف يحلو

له حتى تخف نوبة الحمى الشديدة التى تنتابه . . وعاد عبد المجيد إلى همسه :

— سيفرجون عنى لكن عن طريق « الباب الخلفى » . .

فهتف فريد فى فزع :

— الباب الخلفى ! ! لا تذكرها على فمك مرة أخرى . .

كانت كلمة « الباب الخلفى » كالشبح الرهيب ، تثير الفزع ، وتبعث الخوف فى النفس ، ان الموتى وحدهم ، حينما يدهمهم القضاء المحتوم فى السجن يخرجون من الباب الخلفى ، وكل نزيل بالسجن يرمق هذا الباب بوجل واشفاق ، وقلبه يهتف فى خشوع وضراعة حتى لا يعبر هذا الممر الكئيب . .

وكان « فريد » يرى أن التهم الموجهة اليه هو وزملائه ليس من السهل الافلات منها لأنها قد أخذت بخناقهم ، كما أن الصحافة قد جسمت الموضوع وهولت فيه ، فضلا عن أن السراى قد أوصت بأخذ المتهمين بالشدة حتى يكونوا عبرة لغيرهم . .

لهذا حاول « فريد » بشتى الطرق أن يتملص مما ألقى على عاتقه من تبعات ، بل سولت له نفسه أن يرمى بالوزر على فرحات السروجى وزملائه مما أخجل هؤلاء الزملاء وجعلهم يعتبرون فريد إنسانا كفر بمبادئه ، وتنكر لعهده ، ولم يحاول أن يؤدى دوره بإباء وشرف حتى النهاية . .

والحقيقة أن عوامل عدة قد أثرت فى موقف فريد تأثيرا خطيرا ، مما جعله يستعجل اليوم الذى يخرج فيه إلى عالم الحرية ، لا لمجرد الحرية فحسب ولكن من أجل أمور أخرى ، فنهيرة حامل لشهرين ونصف وتنتظر الزواج قبل أن يشيع أمرها ، وأخته قد ودعت الحياة ولا شك أنها قد تركت لوعة وجرحا غائرا فى قلب الأسرة التى أصبحت فى حاجة إلى من يواسيها ، ويحمل عنها بعض آلام هذه المحنة ، بالاضافة إلى مستقبله ومستقبل الأسرة الذى أصبح على وشك الانهيار . .

فكيف يتصور فريد اذن الموت أو الخروج من الباب الخلفى للسجن . انها مأساة فظيعة ، وصورة رهيبة يحاول أن يبعدها عن ذهنه . .

وأخذ عبد المجيد يتأوه من جديد فأيقظ فريد من سرحاته : . . قال فريد :

ـ أما زال المغص يعاودك . . ؟

ـ آه . . بل ان جسمى كله كتلة من آلام . . آه . . رأسى يكاد يتناثر . . هناك سكاكين تمزق فى مفاصلى .. ظهرى ملتهب . . آه . . سأموت . .

وقضى عبد المجيد ليلة ليلاء ، وظل يهذى بأشياء كثيرة ، ويستعرض صورا مختلطة متداخلة يتحدث عن شرشابه وسكانها وزروعها وأحداثها ، وعن أمه وأسرته ، بل وتحدث عن نهيرة وغرامه المكتوم الموؤد بها . . وأشار إلى فرحات السروجي والقضية الكبرى . . والجمهورية . .

« أجل الجمهورية . . ستكون بلادنا حرة ، لا انجليز ، ولا وراثة عرش . . ولا تعذيب ولا خيانات وحيث الحرية والحب والسلام والمساواة للجميع . . آه . . انقذونى سأموت . . رأسى . . ظهرى . . مفاصلى . . المغص . . آه أتدرى لم أنا مسلوع ومهكع ؟! أصحيح قالوا عنى ذلك .. افراج . . أجل سوف يفرجون عنا . . اننا نحب بلادنا وأهلها . . وهم يحبوننا أيضا . . الجامعة . . المظاهرة . . يسقط الملك . . رأس الأفعى خان الشعب . . لا ملكية ولا استعمار . . يسقط الرجعية والاستغلال . . آه انهم يضربوننى على رأسى . . امنعهم يا فريد . . كيف تسكت عنهم . ؟ ألسنا أصدقاء . . ؟

ويظل على هذه الوتيرة من الثرثرة حتى تصل اليهم خبطات شديدة على الباب وصوت يقول :

ـ ما هذا الرغى ؟ . . نم يا أخانا أنت وهو وإلا . .

ويهمس فريد فى اشفاق :

— كفى يا « عبد المجيد » كفى . . ان خفير الليل يهددنا . . أرجوك أن تكف عن الكلام وتنام النوم فيه راحة وفائدة كبيرة لك . .

وتقفز إلى ذهن فريد فكرة سرعان ما يعرضها على زميله الثالث :

— لم لا نبلغ طبيب السجن ؟ . . يخيل لى أن حالة « عبد المجيد » خطرة

— لا بأس من ذلك . . قد ينقلونه إلى المستشفى فينجو من أهوال التحقيق ومتاعبه ويشعر بشىء من الراحة والاستقرار . . فلتبلغ الطبيب ولا ضرر من ذلك . .

وينادى « فريد » خفر الليل ويتوسل اليه أن يبلغ الطبيب . .

— دعه ينم حتى الصباح . .

— انه مريض جدا . .

فقال العسكرى فى غيظ :

— لسنا خدما لكم . . الدنيا ليل فانتظروا حتى الصباح . .

— قد يموت . .

— فى ستين داهية . .

— أليس فى قلبك رحمة . . ؟

— رحمة ؟ ؟ أتريدون أن تخربوا بيتى . . ؟ ان معنى التبليغ أن يأتى مأمور السجن ، ويأتى الطبيب ، ويستيقظا من نومهما ، وفى ذلك ما فيه من الإرهاق والمشقة ، وقد أتعرض أنا للإهانة والتجريح . . وما أكثر المسجونين الذين يدعون المرض حتى إذا جاء الطبيب لم يجد شيئاً يذكر . .

— اعمل معروفا يا أخانا . .

— نم والا أخذتك إلى التأديب فى الصباح حتى تلقى جزاءك . .

فثار فريد وانفجر فيه :

— افعل ما شئت . . ان أيامنا كلها تأديب وتعذيب . . أنتم وحوش ، لا تقدرون حياة البشر . . منكم لله . .

فدق العسكرى الأرض بكعب حذائه وصاح فى غضب :

ـ لو كنت شهماً أخبرنى عن اسمك .

ـ اسمى فريد الحلوانى . . ولتفعل ما تشاء . . لن يكون من نصيبى إلا الموت مرة واحدة لا غير . . خير للانسان أن يترك حياة فيها أمثالكم . .

وعاد « فريد » إلى « برشه » وارتمى عليه يائساً ، والشرر يتقد من عينيه ، وقد اصطبغ وجهه بحمرة الغضب ، وارتعشت يداه . .

ـ يا للذلة والهوان . . . أهذا يرضيك يا رب ؟ . .

هذا ما قاله زميله حينما ردد بصره بين فريد الثائر الحانق المهزوم ، و « عبد المجيد » الذى يتلوى من الألم الشديد . .

° ° °

وعند الفجر أحس «فريد» وهو نائم بيد زميله تنهره فى عجلة وعنف ويهتف بصوت متحشرج مبحوح بالبكاء :

ـ مات عبد المجيد . .

كان الظلام يسود الزنزانة ، وعبد المجيد مسجى فى ركن منها لا حراك به ، والسجن يسوده صمت وسكون ، وأصوات مبهمة خافتة تطن من بعيد . . وأشباح ـ ليس لها وجود ولكن ابتدعها الخيال ـ تنطلق مرفرفة فى جو المكان . . وعبد المجيد المرح الساخر المحبوب أصبح جثة تثير الخوف وتوقظ الرعب ، والحزن يغلف المكان بإطار بشع . .

ـ مات . . ؟ ؟

ـ أجل . .

ـ إذن أفرجوا عنه رغم أنف الحكومة . .

ـ لكن من الباب الخلفى . .

« آمال كانت ثم ذابت كالسراب ، وأحلام حلوة بهجة عصفت بها يد الأقدار ، وشباب غض الإهاب اعتصرته يد الطغيان والفساد . . مات عبد المجيد وانتهى كل شيء ، مات وحيداً طريداً جريحاً ما زال جسمه

ينزف دما ، وروحه تئن أنينا موجعا . . آه من هول هذا المصير . . يا للفجيعة . . . يا الهى أنحن الذين جنينا عليه أم هو الجانى على نفسه ، أم أولئك الأوغاد هم الآثمون . . ؟ ؟ لست أدرى كيف أفكر . . اختلطت المفاهيم فى ذهنى . . المهم أنه مات . . « عبد المجيد » مات ولن يعود . . آه أى دم أهرقوه ! ! !

الفصل الخامس عشر

لم يعد للحياة طعم لدى « الحلوانى » .. اللهم إلا المرارة القاسية .. حياته سلسلة من الآلام والنكبات . منذ أن جاء إلى الحياة فقيرا معدما ، يحصل على لقمة العيش بعد الجهد الجهيد .. لم تهدأ العواصف فى حياته أبدا .. فابنه الأكبر غريق فى المحلة الكبرى ، وريحانة لم يختر السبرطان إلا هى فى شرشابة .. وفريد الأمل الذى ذوى ، والنجم الذى خبا هو الآخر ثالثة الأثافى ، والقاصمة الكبرى ...

وحينما عادت جثة « عبد المجيد » إلى « شرشابة » كان لها وقع الصاعقة على أهله خاصة ، وعلى الأهالى عامة . وسارت الشائعات تروى الكثير عن حقيقة موته ، بعضهم يزعم أنه مات من جزاء ضربة قوية مزقت أمعاءه وفجرت أحشاءه ، وآخر يقول انهم خنقوه ، وثالث يزعم أن الملك أمر بضربه بالرصاص .. ولم يهتموا كثيرا بتقرير الطبيب الشرعى الذى يؤكد تأكيدا جازما بأن عبد المجيد مات نتيجة الاصابة بالتيفود ، الذى سبب له ثقوبا فى الأمعاء ، ونزيفا خطيرا لم يكن من السهل ايقافه .. والتيفود قد يتسلل كاللص فلا يكاد الإنسان يشعر إلا بارتفاع بسيط فى درجة الحرارة مع صداع خفيف ، ومغص عادى .. فاذا ما ازدادت حدة هذه الأعراض وابتدأ الشك يساور المريض تكون حالته آنذاك قد دخلت فى طور لا يمكن النجاة منه ...

وحينما بلغ النبأ المشئوم إلى مسامع الحلوانى ضاقت الدنيا فى عينيه ، ومادت به الأرض ، فما حدث لعبد المجيد ممكن أن يحدث لولده فريد .. ويقول الحلوانى لنفسه :

« لقد اختطفوك يا ولدى بقسوة .. ترى ماذا جنيت .. ؟ لم تسرق

ولم تقتل أو ترتكب تزويرا .. وحاشاك أن تكون كذلك .. ثم إن السارقين والقتلة يمرحون ويفلتون من القصاص ، بل ويفرج عنهم بالضمان الشخصى أما أنت فأمرك عجيب . . »

« والحلوانى » رجل أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا يقرأ بالتالى صحفا أو مجلات ، ولا يكترث بالسياسة وقضاياها وألاعيبها ، وإذا ما ذكرت السياسة قفزت إلى ذهنه أسماء لامعة أصحابها من البكوات والباشاوات وأصحاب العزب ، وإذا ما ذكرت الحكومة وثبت أمامه صورة العساكر ذوى السترات الصفراء ، واذا ما ذكر الدستور أو الحرية أو الوحدة والجلاء ، لا يكاد يعى منها شيئاً ، أو يفهم لها مدلولا . . كل أوهامه وتفكيره وأمانيه تدور حول عمله فى المدرسة وخدماته للمدرسين ذوى الملابس النظيفة والجرائد والاحترام التقليدى ، وحول ولده فريد وما ينتظره من مستقبل باسم ووظيفة محترمة . . وكثيرا ما سمع الناس يلقون بتعليقاتهم حول حادث القبض على ولده . . .

فهذا يقول :

— ابنك بطل . .

فيرد فى سذاجة :

— وهل البطولة أن يذهب ولدى إلى السجن ؟ . .

وآخر يهتف فى إعجاب :

— « فريد » قدوة ومثال يحتذى . .

فيرد فى عجب :

— أواه . . انكم منى ومن ولدى تسخرون . .

وثالث يقول :

— يا « حلوانى » لك أن تفخر بفريد فهو خير البنين ، وخير المضحين

فيهمس فى ألم :

— أأفخر بأحزانى وخراب بيتى وضياع مستقبل ولدى . . ؟ ؟

ورابع يؤكد :

– ان ابنك قد ولج باب الخلود ..

وآخرون يتمتمون :

– لقد أصبح من طليعة الكفاح ..

– السجن بداية المجد والرفعة ..

– التضحية فى سبيل الحرية مجد فى الدنيا ، وثواب فى الآخرة ..

ويستمع الحلوانى إلى هذا كله وقلبه يتفطر حزنا وأسى ، فتفيض عيناه وهو يردد :

– لست أفهم ماذا تقصدون .. ؟ أهي عبارات عزاء ومجاملة .. أم حقيقة لا يدركها فكرى القاصر .. ؟ أنتم خاطئون وأحكامكم مجانبة للصواب ، لو جربتم – مثلى – مرارة الفراق ، وفقد الأبناء وعيش الوحدة الكئيب لتغيرت نظرتكم ، ولسالت عيونكم دما بدل الدموع .. خبرونى بربكم ماذا أفاد عبد المجيد إلا الموت والحسرة التى تركها من خلفه لذويه . ؟

– مثواه الجنة عند الله .. وأنعم بالله من جوار ..

ويجفف الحلوانى دموعه ويهتف من أعماقه :

– أجل .. لا حول ولا قوة الا بالله .. ليس لنا سواه ..

– عدت إلى الصواب يا حلوانى ..

– كم آسي عليك يا عبد المجيد .. ان موتك على هذه الصورة خلف فى القلب أحزانا لا تفنى ، وجراحا لا تندمل ..

– عدت للزيغ يا حلوانى .. انه قضاء مكتوب ، وموت الأبطال على قارعة الطريق لا على السرر والوسائد الناعمة .. اينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة .. لن نهرب من قضاء الله يا حلوانى ... استسلم واعتمد عليه ، ومن توكل عليه لا يخيب ..

وتعود دموع الحلوانى إلى الانهمار وهو يردد :

– أستغفرك اللهم وأتوب اليك ..

عاد « الحلوانى » إلى بيته والوحشة تظلله بوشاحها القاتم المخيف ، وأمه أخوات تقبع فى أحد أركان البيت وهى تسعل ، وتندب حظها وحظ حفيدها فى عبارات باكية يتفطر لها القلب ، وزوجته « حميدة » ترقد على الفرن فى القاعة ، وهى تتأوه بسبب المرارة وأمغاصها كالمعتاد ، وإن كان تأوهها من أجل « فريد » هو الغالب والمعقول . . ودخل الحلوانى إلى البيت وكأنه يدلف إلى ساحة قبور يسودها صمت وحزن وضيعة ونسمة راكدة فيها رائحة الموت . .

« ما أقسى الحياة . . إن « ريحانه » ترقد الآن رقدتها الأبدية وهى أهدأ بالا ، وأحسن حالا منا . . »

ولم يتجه الحلوانى إلى زوجته ولم يقصد أمه ، بل جلس مضطجعا على الحائط على بضعة خطوات من الباب ، ولم يحاول أن يفترش الحصير ، أو يبحث عن جوال يجلس عليه كالمعتاد ، ولم يكن بالبيت دخان أو أية حركة تنبى عن أى نشاط على النقيض من المنازل الأخرى حيث الطبخ ولهو الأطفال . . حتى الدجاجات المعدودة كانت تنزوى وكأن الحزن قد طاف بها هى الأخرى . .

وأحست حميده بمجىء زوجها فغمغمت :

— هل أتيت . . ؟

فرفع بصره اليها ثم أطرق برأسه دون أن يجيب ، بينما تحاملت هى وأخذت تخطو نحوه فى خطوات متباطئة واهنة ، واضعة يمناها على مكان الألم من بطنها ، محاولة أن تنتزع أنفاسها بصعوبة ظاهرة ، بينما ازداد اصفرار عينها . . وجلست بجواره دون أن يلتفت اليها وما زال معتصما بصمته . . قالت حميدة :

— هل وكلت المحامى من أجل القضية . . ؟

— لم أفعل ذلك بعد . .

— وما السبب فى التأخير . . ؟

وكانت حميده تعرف سلفا — رغم استفسارها — سبب تخلفه عن توكيل محام . فالمحامى وخاصة فى مثل هذه القضية السياسية ، يحتاج إلى كثير من النفقات على الأقل أربعين جنيها ومن أين يأتى بهذا المبلغ ، لا دخله يوازيه ، ولا مرتبه ازاء المطلوب يساوى شيئاً . . .

وهتفت حميده فى قلق :

— والآن . . ما الحل . . ؟

— ربنا يفرجها . .

قالها « الحلوانى » وهو يتنهد فى أسى ، وأخرجت حميدة من جيبها ورقة من فئة الخمسة جنيهات وقالت :

لقد أرسلتها نهيرة دون علم أمها أو أبيها وحاولت أن أرجعها اليها لكنها أبت وأصرت بل وبكت . .

فتناولها الحلوانى وهو يهمس :

— بنت حلال أعاده الله لها بالسلامة . .

واستطردت حميدة :

— وسنبيع بعض قطع النحاس التى لا حاجة لنا بها . . ولا داعى لبقاء هذه الدجاجات وذلك الخروف . . ثم ان سرير فريد لا فائدة منه الآن ويجب أن نستفيد من ثمنه ، وإذا عاد — ان شاء الله — اشترينا له آخر و .

وقاطعها الحلوانى قائلا :

— نسيت أن أخبرك بأن ناظر المدرسة قد جمع لى بعض التبرعات من المدرسين وأضاف اليها مبلغا من جيبه الخاص ، وأبدى استعداده لإقراضى ما أشاء وألح فى ذلك . . وحاولت الاعتذار عن قبول هذه التبرعات لكنه أقسم على أن آخذها . .

فقالت حميده وهى ترفع عينيها إلى السماء :

— الحمد لله . . . ما زال الخير فى الدنيا . . صبرا يا « حلوانى » لن ينسانا الله ، ان بعد العسر يسرا . .

— أنا على استعداد أن أبيع كل ما أملك حتى ملابسى وحتى لقمة العيش ، بل ان عمرى لو اشتراه أحد لقدمته لأفتدى ولدى به . .

— هذا أمر طبيعي يا « أبو فريد » . . ولن يخيب الله لك رجاء . لكن الست أم نهيرة أخبرتنى بأن الحزب الذى ينتمى اليه فريد يمكنه أن يبعث اليه بمحام للدفاع عنه بلا مقابل . .

— لا أظن ذلك ، فقد أخبرنى من يقرأون الجرائد بأن فريد وأصدقاءه لا يمتون بصلة لأى حزب من الأحزاب . . وأفهمونى أنه حتى لو كان هناك حزب يؤيدهم ويناصرهم لما استطاع الظهور أو الجهر بمساعدتهم فى هذه الآونة الخطيرة ، لأن فريد ومن معه ثوار ضد الملك — وهذا كفيل بأن يبعث الرعب فى النفوس ويجعل الجميع يظهرون بمظهر العداء والنفور من هؤلاء الشبان . .

— ونائب الدائرة ، ألا يستطيع أن ينقذ فريد ؟ . .

— يقولون ان الأمر خارج عن ارادته .

— أليس فى قلب الملك شعاع من الغفران فيعفو عن هؤلاء الشبان الطائشين ؟ . .

— الغفران والعفو من الله يا حميدة . .

— صدقت . . كلما شعرت بأننا نمشى فى هذه الحياة القاسية وحدنا ، وأننا نتحمل من الآلام ما تنوء به كواهلنا . . ظهر لنا فى ظلام تلك الحياة قبسات تمدنا بالأمل وتنير الطريق ، وما الناظر وزملاؤه المدرسون ونهيرة وأمثالهم إلا أشعة الخير فى هذا الوجود . . نحمدك يا رب . . نحمدك حمدا لا نحصيه . .

وتململ « الحلوانى » فى مكانه وأرسل تنهيدة حارة وقال :

— كنا نعيش فى حالنا ، راضين بما يرزقنا به الله ، لا دخل لنا بالسياسة ولا بالمحاكم أنا نفسى لم أدخل دوار العمدة لا جانيا ولا مجنيا عليه ، تشرق الشمس فنقول : يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم ؛ ويقبل المساء فنقول :

أمسينا وأمسى الملك لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم — وننام ملء جفوننا نحلم بالستر ، ونتمتم بالشكر ، ونتوب مما اقترف اللسان وجنت اليدان .. كان ذلك فى الأمس أما اليوم . . آه .. لا نوم ولا راحة . . أهكذا يا رب تكون خاتمتنا ؟ ؟ لا عتاب ولا ملام . .

وتحاول حميدة أن تقوم وهى تمسح دمعة جرت على خدها وتقول :

— ألا تأكل لقمة قبل أن تنام . . ؟

— ما لى شهية لطعام . .

— لكنك لم تذق شيئاً طوال اليوم . .

— وماذا فى ذلك . . ؟

— إنك لا تتحمل . .

— لم أعد أكترث بشىء يخصنى . .

— حرام عليك . . يجب عليك ألا تهمل نفسك ، على الأقل من أجل فريد ، أتظن أنه يسر عند ما يعلم أن أباه فريسة للضعف والمرض . . يجب أن تتماسك وترفع رأسك أمامه ، فمعنى ذلك أن يرفع ابنك رأسه فتشرف ويشرف ، وستمر العاصفة . . فما رأيك . . أتأكل . . ؟ ؟

وكان الليل قد نشر رداءه على القرية وخفتت الحركة ، ولم يكن فى بيت « الحلوانى » غير لمبة « صاروخ » تضطرب شعلتها ، وتنطلق منها الأبخرة القاتمة وكأنها أنفاس حانقة تخرج من صدر غاضب ثائر . .

وتحرك شبح يرتدى السواد ناحية بيت الحلوانى ، ثم دلف الشبح إلى الداخل فهب الحلوانى واقفا بجانب امرأته التى حملقت ثم هتفت فى شوق وحنين :

— « نهيرة » . . لقد شرفت دارنا يا حبيبتى . . تفضلى . .

وتصافحوا وقبلت حميدة رأس نهيرة ثم استقبلها الحلوانى مصافحا فى عطف وتقدير ورضى :

— لم تتعبين نفسك يا ابنتى . . ؟

— كلا بل أؤدى واجبا فى عنقى . . جئت لأطمئن بنفسى على ما تم بشأن فريد لأنك يا عمى لا تزورنا على الاطلاق ، وتأبى الا الانطواء والبعد عنا . .

— أبدا . . لكنها المشاغل الكثيرة . . وأنا لا أكاد أخلو من عمل المدرسة . .

— لك العذر . . لكنى أريد أن أعلم عما إذا كنتم قد انتهيتم من موضوع المحامى أم لا . . ؟

— سيتم كل شيء غدا ان شاء الله . . .

— أظن من الخير والأنسب أن نكون صرحاء ، وخصوصا أننى أصبحت واحدة من العائلة وعلى عبء كبير من المسئولية . . بالاختصار أريد أن أسأل سؤالا . .

— تفضلى قولى ما تشائين . .

— هل أنتم فى حاجة إلى مال . . ؟

— الحمد لله لقد دبرنا أمرنا . . وسننتهى من هذا الأمر فى الغد كما قلت لك . .

— حسنا ، غير أنى سأحضر خمسة جنيهات أخرى غدا باذن الله . .

وحاول « الحلوانى » أن يشكرها ويعتذر عن قبول هذه الهبة الجديدة ولكن دون جدوى . . وبعد قليل قالت نهيرة :

— صحيح ان فريد فى محنة قاسية، لكن أقسم لك أن كثيرين يحسدونه على هذه المحنة . .

— إنك تتكلمين مثلهم يا ابنتى . .

— مثل من . . ؟

— مثل أولئك الذين كانوا يتحدثون عن بطولة فريد وتضحيته وشجاعته . . ولست أدرى لم لا يفعلون مثله ما دام موقفه يفتنهم وينتزع إعجابهم . .

ـ لأنهم لا يستطيعون . .

ـ ولم ؟ . .

ـ لأنهم خلقوا هكذا لأنفسهم ، لا تستطيع هممهم أن ترقى إلى حيث المجد والخلود والتضحية والفداء . .

ـ ما زلت لا أفهم ما تعنين . .

ـ أتعرف الأنبياء ؟ . .

ـ صلوات الله عليهم . . أجل أعرفهم . .

ـ ألم تتمن ويتمن جميع الناس أن يكونوا مثلهم . . ؟

ـ طبعا . . هذه مكانة تتقاصر دونها الرقاب ، وأمرها بيد الله . .

ـ مثل ذلك ـ أو قريب منه ـ دعاة الحرية والإصلاح والخير فى هذه الحياة . . ان هؤلاء الدعاة أقرب إلى الأنبياء فى كفاحهم وصبرهم . . وبالتالى هم أقرب إلى الله بتضحياتهم المباركة . . وكثير يتمنى هذا الشرف ولكن هيهات . .

ـ ان كلامك يا ابنتى حلو على السمع ، جميل الوقع فى قلبى ، وأشعر أنه يخفف عنى كثيرا .

ـ ألم يحدثك فريد عن شىء من ذلك . . ؟

ـ أبدا . . كل ما أذكره له بنوة صادقة ، وطاعة وتقديرا لوالديه واهتماما بدروسه وعباداته لهذا كنت ـ وما زلت ـ أدعو الله له بالهداية والتوفيق . . أما الاصلاح والدستور والحرية فهذه لم يحدثنى عنها . . صحيح كنت أسمعها من أفواه المدرسين فى المدرسة لكنها كانت تتساقط دبر أذنى . . أما الآن فانى أتلقفها وأحاول فهمها . . ان مصير ابنى أصبح معلقا بهذه الكلمات وما تدل عليه . .

ـ لم تكن وحدك . . فأنا كنت قريبة من ذلك . . ان الفتاة التى على أبواب الزواج لا تفكر إلا فى ألوان ثيابها ، وأحدث نماذجها ، وفى

طريقة تسريح شعرها ، وفى مستقبلها وزوجها وأولادها فى المستقبل ، لكن الأحداث تعلم الناس الكثير . .

وعلى هذا المنوال دار الحديث ساعة ، وكانت نهيرة بين آونة وأخرى تحاول أن ترفه عن الأب المصاب والأم الحزينة ، وتحيي فى نفوسهم موات الأمل . .

وفى النهاية قالت نهيرة :

— أستودعك الله . . لا تنسونا بالدعوات . . لأنى سأسافر بعد غد . .

— إلى أين . . ؟ ؟

— إلى طنطا عند خالتى . .

— ولم . . ؟

— فى زيارة خاطفة . .

لم تقل نهيرة لهم الحقيقة ولم تخبرهم عن السر الذى يكمن وراء زيارتها لخالتها فى طنطا فبعد أن قبض على فريد ضاعت آمال نهيرة فى الزواج السريع ، وأرغمها الوضع الشائك أن تفكر فى مصير الجنين الذى يرقد فى بطنها . . وكان أن أقدمت على خطوة خطيرة قد تعرض حياتها للموت . . الاجهاض . . أجل الاجهاض ، قبل أن يعرف أبوها ، وقبل أن يعرف الناس . .

وغمغمت نهيرة وهى تنطلق وحيدة فى ظلام الزقاق الضيق :

— إننى أجنى عاقبة تهورى . . هل كان فى حسبانى أن تقف الأقدار منى هذا الموقف المحرج ، ولست أدرى ماذا تخبئه لى الأيام فى ضميرها . . يا له من درس قاس .. صحيح أنه قد عقد قرانه على .. لكن التقاليد يا لها من شبح مخيف . . .

الفصل السادس عشر

دار « فريد » بعينيه فى الزنزانة المظلمة ، ومر سريعا ببصره على أشباح زملائه الذين يرقدون على أبراشهم فى صمت وأسى ، ووصلت إلى خياشيمه رائحة البول المتصاعدة من دلو مجاور ، وتذكر هذا اليوم القاسى الذى قضاه فى الجبل يقطع الحجر ، بل تذكر كل أيام ليمان طره — وهى لا تتجاوز شهرين — وهتف فى غيظ :

— « سفخص » على هذه الأيام . . أأقضى هنا فى هذا الشقاء سبعة أعوام ؟ الموت ولا هذا . .

فتقلب بسطويسى على برشه وقهقه عاليا ثم قال :

— تعيش وتأخذ غيرها يا فريد . . الشهم يجب أن يكون شهما على طول الخط . . أما أن يضعف ويتخاذل فهذا خطأ فاحش . . ها . . ها . . ها . . .

— علام تضحك . . ؟ أتعجبك هذه المعيشة الضنك . . ؟ ان الحكومة أجرمت جريمة لا تغتفر بقذفها بنا فى أعماق الليمان ، ولو رحمتنا فعلا لحكمت علينا بالإعدام . . .

— يا للزمان الغادر . . أصبح الاعدام أمنية لدى فريد . . وحسب المنايا أن يكن أمانيا كما يقول المتنبى . . .

— متنبى وزفت . . ألا تترك هذا الهراء . . فكر فى هذه المشاكل التى تأخذ بخناقنا صباح مساء . .

— ماذا تعنى . . ؟

— ألا تعرف أننى أرتعد من البرد ، فالنافذة مفتوحة ، والملابس غير كافية ، والغطاء لا أثر له . . اننى أنام وكأننى أرقد فى الهواء الطلق . . فلا

أكاد أغفى دقائق حتى أستيقظ وقد تصلب ظهرى وذراعاى وساقاى .. ان الروماتزم قد سرى فى جسدى كله ..

فضحك بسطويسى وقال :

— أهذا كل ما يؤرقك ويضايقك ؟ ..

— وأكل السجن .. انى أضع اللقمة فى فمى فلا أستطيع ابتلاعها إلا رغم أنفى.، لا أعلم نوع الخضار المطبوخ ، والفول المدمس فيه السوسة الواحدة لا تقل عن حجم الذبابة ولو حاولت تنقية الفول لما استطعت الحصول على حبة واحدة بلا تسويس ، فأجد نفسى مرغما على أكلها وإلا مت جوعا .. أهذه معاملة يا عالم ؟ . والله يا بسطويسي يمينا غير حانث فيه لقد وجدت مسمارا فى رغيف العيش .. وأخيرا تأتى أنت وتسخر منى وتقول المتنبي وزفت الطين ..

فقام بسطويسى من رقدته وقال بجد :

— وماذا كنت تنتظر من الحكومة .. ؟ هل كنت تعتقد أنهم سيفرشون لنا الطريق بالورود والياسمين ، ويعدون لنا السرر .. ؟

— بل ظننت أننا سوف نعامل كبشر .. كآدميين يحسون ويتألمون . قيود فى أرجلنا وأعباء تثقل أرواحنا وأجسادنا ، أهذه هى العدالة التى يتغنون بها فى ظل مولانا المعظم ملك مصر والسودان .. ؟

— لهذا السبب قالوا ان طريق الكفاح ملىء بالتضحية والآلام ، ويجب أن يكون ذلك مفهوما من قبل ..

— لكن هذا لا يطاق ..

— وما الحيلة ؟ قيود تغللنا ، وسياط معلقة فوق رؤوسنا ، لا حول لنا ولا قوة ..

— أنحن بهذه الدرجة من العجز والقهر .. ؟

— أنظر لبدلتك الزرقاء ولتلك السلسلة الصدئة ، وتذكر الطابور

الطويل الذى ينطلق كل صباح فى حزن وألم ناحية الجبل . . وستجد بعد ذلك الإجابة على سؤالك . .

– لو تأكدت من هذا المصير من قبل لشربت من دم هؤلاء الأوغاد . .

– لا تثر ، ولا تفكر فى أشياء لا حيلة لك فيها ، ولكن حاول أن تروض نفسك على هذه الحياة . .

فرد « فريد » وأسنانه تصطلك من البرد ، وأطرافه ترتعش :

– لكنها حياة مملة رتيبة ، ذهاب إلى الجبل ، وعودة من الجبل ، وأكل ونوم متقطع ، وصفارة التمام . . هذا قاسى . .

وعاد بسطويسى إلى القهقهة والسخرية وقال لفريد :

– أتذكر أول مرة دخلنا فيها حمام السجن . . ؟

– أجل . . وماذا فى ذلك . . ؟

– لم يعد فيها شىء لأنها اتخذت حكم العادة . . أمرك عجيب ، هل كنت تتصور أن تقف عاريا من كل ملبس ، وسط خمسين من المذنبين العراة وتستحم عاري السوءة دون أن يثير هذا اشمئزازا فى نفسك . . ؟

ورد فريد فى أسف :

– تألمت فى المرات الأولى فقط . . ولم أجد مناصا من أن أتقبل الوضع حتى أزيل أتربة الجبل التى تعلق بملابسى وجسدى . . لكن هذا مؤلم حقا كيف أتقبله . . ؟ ان الصحف نائمة عنا ويخيل إلى أنهم لا يعرفون شيئاً عن حياة السجون . .

وبغتة فتح باب الزنزانة ، ودخل الضابط ومعه حرس الليل وقال بصوت صارم غليظ :

– كل الحديد تمام . . ؟

– تمام يا افندم . .

وهب « بسطويسى » و « فريد » و « فرحات » وزملاؤهم واقفين ،

ومنهم من كان نائما فاستيقظ من نومه مذعورا حتى فرحات الثائر المثقف وقف فى ركن الزنزانة فى استسلام وانكسار ، بينما مر أحد السجانين ليفتش على القيود ، ويتأكد مما إذا كانت السلاسل مربوطة كما هى أم لا ، لأن بعض المذنبين ينتهزون فرصة الليل ويحاولون تخليص سيقانهم من أثقالها كى يشعروا بشىء من الراحة فى نومهم بعد طول الكدح أثناء النهار ، لهذا كانت مفاجأة المسجونين بالليل من الأمور المتوقعة دائما . .

وخرج الضابط وعساكره ، بينما أخذ فريد يتحسس الكدمات التى تسببت عن احتكاك القيود فى ساقيه وقال غاضبا :

ــ لقد ضعنا ، وتحكم فينا هؤلاء الأنذال . .

فرد بسطويسى ثائرا :

ــ بل إن التاريخ سوف ينصفنا . .

ــ لا تضحكوا علينا وعلى أنفسكم . .

ــ لا تقل هذا الكلام أنك تثبط من عزائمنا ، إنك أشد خطراً علينا من الحكومة .. ليس السجن أن تثقل أرجلنا القيود ونتألم من البرد ونشكو من رداءة الملبس والمطعم ، لكن السجن الحقيقى هو أن نندب حظنا ، ونبكى على ما فات ، ونحقر تضحياتنا ، أو نتنكر لمبادئنا ..

ــ عدنا مرة أخرى للخطب .. أنسيت أنك من أجل خطبك فى جامع ابن طولون ومنشوراتك هناك قد أفشيت أسرارنا ، وتسببت فى القبض علينا وعليك ..

ــ لا تراوغ إنك واهن ضعيف ، ولو علمنا ذلك من قبل لما أفسحنا لك مكاناً بيننا .. إن مثل هذه المحن هى التى تبرز معادن الرجال ..

فقال « فريد » فى حنق :

ــ دائماً تتمسحون فى التاريخ .. ماذا تظنون فى أنفسكم .؟ إنكم سطر ضئيل فى كتاب التاريخ الضخم ، غداً يقول التاريخ أن فاروق فعل كذا

وكذا ويختلقون له البطولات ويضفون عليه ألوان المجد والعظمة ، أما مأساتنا وما لاقينا من آلام فستنزوى فى ركن مظلم حقير ..

— كف عن هذا الهراء ..

فقال صائحاً :

— لن تستطيع تكميم فمى ، لك أن تسد أذنيك .. أما أنا فسأصرخ وسأردد دائماً أننا مخدوعون مغرورون .. ان ما تقوله وهم ، فأخطاؤهم فى حقنا تبدو كبيرة مجسمة أمام أعيننا ، لكنها فى التارنخ حرف أو كلمة موجزة لا يلتفت إليها ولا يؤبه لها ..

وهنا تدخل « فرحات السروجى » الذى كان حريصاً على الصمت ، بعد أن كثر الأخذ والرد فى مثل هذه الموضوعات وقال بهدوء :

— أرجو ألا تبحثوا الأمور بهذه الروح العدائية ، لا تنسوا أنكم أخوة فى الكفاح ، ويجب أن تكونوا أرحب صدراً ..

فقاطعه « بسطويسى » قائلا :

— قد نضيع كما يقول « فريد » ، وقد نخسر الكثير ، لكننا على أية حال وضعنا لبنة فى بنائنا الكبير .. بناء المستقبل الباسم ..

فرد « فريد » مغيظاً :

— لم تعد تخدعنى مثل هذا العبارات المنمقة ..

— يا « فريد » حرام عليك أن تحقر أعمالنا وتصورها لنا بصورة مزرية موئسفة فتضيف إلى شقائنا شقاء وإلى آلامنا آلاماً جديدة ..

فقال « فريد » ساخراً :

— إذن فأنت تريدنى أن أعصب عينى ، وأصر على أخطائى ؟؟..

— أية أخطاء أيها المجنون ؟..

— تلك التى قذفت بك إلى هنا ..

— إخسأ يا وغد .. لقد أردنا الحرية والخير لأمتنا فهزمنا مبدئياً ، والمعركة ما زالت مستمرة .

— مستمرة ؟.. قل كلاماً غير هذا .. أتظن أن حملك للأحجار فى الجبل ، ومرمطتك هناك وهنا جزء من المعركة ؟. هذا كلام يخدر أحلام الأغرار والمراهقين ..

ورأى « فرحات السروجى » أن يحسم الأمور ويضع لهذا النقاش حداً فقال :

— أرجو أن تخفضوا أصواتكم أولا ، لأن أصدقاءكم نائمون من أثر تعب النهار .. ثانياً أتعشم أن تعالجوا الأمور بطريقة أوثق تتفق مع مركزكم وثقافتكم ، ثالثاً .. أؤكد لكم أنكم متأثرون بأهوال السجن وآلامه ، لهذا لن تحكموا حكما سليما الآن ..

فزمجر « فريد » قائلا :

— أنت السبب فى كل هذه المصائب ..

فلم يجب « فرحات » ، بينما فار الدم فى عروق « بسطويسى » وعصفت به ثورة عارمة ، فانقض على « فريد » فى سرعة البرق ودارت بينها معركة بالأيدى مما أيقظ النائمين ، وأحدث هرجاً ومرجاً ، حتى أن خفير الليل أتى مسرعا ليتبين حقيقة الأمر . ولما أدرك ما يجرى فى الزنزانة سارع بابلاغ الضابط النوبتجى ...... وكان « بسطويسى » يكيل اللكمات « لفريد » يقول :

— أنسيت أنك خنتنا ؟.. ألم تعترف بكل شئ فتورطنا ؟.

وما هى إلا لحظات حتى تدخل زملاؤهم ، وفصلوا بينهما ، وران على الجميع صمت كثيف ، وظلام كئيب ، وكان « فرحات » فريسة لأفكار قاسية تتنازع ذهنه ، إنه يرى أمامه صورة طبق الأصل لما كان يحدث فى المنفى بين زملاء عرابى ، حتى اضطرت القوات المحتلة إلى الفصل بينهم هناك فى عرض البحر حيث الجزائر النائية المتناثرة ..

كان الجميع أعصابهم متوترة ، وقلوبهم وجلة خائفة ، إن أقل اضطراب معناه الذهاب إلى التأديب ، حيث البرد أشد ، والطعام أقل ،

وعمل الجبل مضاعف ، هذا بالإضافة إلى الضرب والإهانة التى لا بد منها لكل طارق لباب التأديب .

وصح ما توقعوه بعد دقائق ، فقد أقبل الضابط وفتح الزنزانة وصاح بصوته الأجش :

ــ من منكم تشاجر الليلة ؟..

فرد « بسطويسى » قائلا :

ــ أنا ..

ــ ومن الآخر ؟..

كان لا بد من الاعتراف على المتشاجرين وإلا لسيق جميع من فى الزنزانة إلى « الحمراء » أو التأديب بمعنى أصح ، وليس هذا من اللباقة فى شئ ، لهذا بادر « فرحات السروجى » قائلا :

ــ كانت مجرد مناقشة حادة بينى وبين « بسطويسى » ..

ودهش « فريد » عند سماعه لكلام « فرحات » ما معنى ذلك ؟.. آه .. إن الأمر واضح جداً ، إن « فرحات » يشفق عليه ولا يريد له أن يقذفوا به فى التأديب ولهذا آثر أن يتحمل هو عن « فريد » مرارة الحمراء وآلامها .. وهمس« فريد » لنفسه فى خجل .. « أهكذا أنا دائماً ؟ أقابلهم بالإساءة وأستدرجهم للغضب والخطأ ثم يحاولون إنقاذى ، لا .. لا ، لن أقبل ، سأتحمل التبعة مع « بسطويسى » .. » وتلفت فريد ناحية الباب فوجد « بسطويسى » و « فرحات » يخرجان ليذهبا إلى التأديب .. فصاح قائلا :

ــ كلا ، لا دخل « لفرحات » فى الموضوع ، فالمناقشة كانت بينى وبين « بسطويسى » فقط .. « فرحات » مظلوم ..

فقال الضابط النوبتجى فى جفوة :

ــ إذن تعال أنت الآخر معهما إلى التأديب .. لا وقت للتحقيق الآن ..

وانضم « فريد » إليهما ، وعلق الضابط قائلا :

ـ كان بودى أن أحضرباق الأفراد معكم .. إنكم أغبياء لا تفهمون اللوائح والقوانين .. قلنا ألف مرة .. ممنوع الكلام أثناء الليل .. أم تحسبون أنكم فى مقهى أو ناد .. امش يا مذنب أنت وهو ..

وانطلق الثلاثة إلى التأديب يحوطهم سجانة الليل ، وهم يتحرشون بهم ، وينتظرون الإشارة من الضابط حتى يؤدوا « واجبهم » كالمعتاد ، بالنسبة لكل من يدخل التأديب .. وما إن وصلوا المكان المطلوب ، حتى فرقعت الصفعات على أقفيتهم ..

وصاح « فريد » :

ـ آه ..

فرد الضابط فى سخرية :

ـ سلامتك من الـ « آه » يا حبيبى ..

الفصل السابع عشر

الأمل .. إنها النغمة التى لا يفتأ السجين يضرب عليها ، فهى لحن عذب يحلو فى سمعه وينعش روحه ، ويجعل للحياة ذوقاً خاصاً ، ومعنى مقبولا ، رغم الفول المسوس و « البملك » الممجوج — طبيخ السجن — ورغم السترة الزرقاء المهينة ، والأشغال الشاقة التى تذهب نضارة العمر ، وتذيب فتوة الشباب ، وتعتصر المسرات أن كان فى السجن مسرات .. بغير الأمل يصير السجن مقبرة .. أو أشنع من المقبرة ..

وكان كل هم « فريد » ، أن يتسقط الأنباء السياسية من هنا وهناك ، ويحاول الاتصال « بالإيراد » — وهم المسجونون الجدد — عله يجد عندهم ما ينقع غلته ، ويبعث الرضى والطمأنينة إلى قلبه ..

وكان « فريد » يتعلق بأوهى الأسباب ، ويؤمل من ورائها خيراً كثيراً ، فاذا جاء عيد الجلوس الملكى قال :

— هذه مناسبة رائعة ، وأعتقد اعتقاداً جازماً أنها لن تمر دون عفو عن المسجونين السياسيين ..

وتمر المناسبة دون خطر يذكر ، فلا ييأس « فريد » ولا يحزن ، بل يجد أمامه عيد الميلاد الملكى ..

— هذه هى المناسبة المهمة فعلا .. ولا شك أن الملك فى حاجة إلى خدمة جليلة يقدمها لأبناء الشعب حتى يكتسب حبهم وتأييدهم ؛ وليس ببعيد أن يعفو عنا ..

وتمر المناسبة كما مر غيرها دون أن يحدث شئ ما ، إذن فالى عيد عيد آخر ؛ وهل هناك أحق بالتقدير والاحتفال من عيد الدستور ؟..

— إن يوم الدستور يوم مجيد ، نالت الأمة فيه حقوقها ، وتوطدت

فيه شخصيتها وسمعتها الدولية ، والدستور رغم جفاف مواده ، وصلابة بنوده ، لن يقسو علينا ويدعنا وراء القضبان ..

فيرد « بسطويسى » فى عناد :

— دستور ؟.. إنك حالم يا صديقى .. ستبقى وراء القضبان إلى ما شاء الله ..

— ستثبت الأيام من منا الصادق .. مستحيل أن أقضى سبعة سنوات هنا ..

— ممكن جداً — بالنسبة لى شخصياً — أن أقضى السبعة وزيادة ، ويقضى « فرحات » العشر سنوات التى كانت من نصيبه .. اللهم إنى نويت الاستقرار ..

— أنت بؤس ، وأيامك كلها شؤم فى شؤم ..

فيضحك « بسطويسى » ويقول :

— إسمع .. ماذا هناك ؟..

— لا أدرى ..

— نعيب غراب على السور ..

— ماذا تقصد ؟..

— أمرك عجيب ، هل نعيب الغراب بشير أمل ، أم نذير سوء ؟..

— خرافات ما أنزل الله بها من سلطان ..

— على كل حال أنا وراءك والزمان طويل ..

ويكور « فريد » يده ، ويضربها فى الحائط ويقول فى ضراعة :

— يا رب تب علينا من هذه الأيام المنكودة .. آه يا « بسطويسى » لو نخرج ونرى الدنيا من جديد !...

— ونعود للأحباب ..

— آه ونعود للأحباب يا « بسطويسى » ....

صابح مسافر وفايت عندكم روحى
بحق من أطلعك يا شمس وتروحى
فراق الحبايب دا أصعب من طلوع روحى

ـ الله الله .. يا سمع الملوك ..

ـ تلك أغنية « جدتى » .. كانت ترددها كلما أزمعت السفر .. إنى كنت أسخر من هذه الكلمات آنذاك ، وأقابلها بفتور وبرود ، أما الآن فلها فى قلبى وقع يثير الشجن ويبعث فى قلبى الحنين ..

ـ البعد والفراق يهيج المشاعر ، ويوقظ الذكريات فتبدو حلوة شائقة ..

ـ ألا تعلم أنى سأزور بعد غد يا « بسطويسى » ؟..

ـ كلا ، من سيأتى لزيارتك ؟..

ـ أمى وأبى ..

ـ لك أن تسعد .. فرصة طيبة كى يطمئنوا عليك وتطمئن عليهم ..

ـ لكم تحزننى الزيارة يا « بسطويسى » ..

ـ لم هذا ؟..

ـ إننى أعود منها وقلبى مثقل بالأوجاع .. وأظل طول اليوم واليوم الذى يليه فى كرب عظيم ..

ـ كيف ؟.. إنك عجيب ..

ـ إن رؤيا هم تحرك أشجانى ..

ـ ومع ذلك فأنت تذوب شوقاً لرؤياهم ..

ـ كلما تأملت وجه أبى ازددت ألماً لتزايد الغضون التى فى وجهه والاكفهرار الذى يكسوه وأمى لاأستطيع أن أكلمها كلمة واحدة ، فدموعها المنهمرة لاتدع لى فرصة للكلام ..

ـ الأمهات قلوبهن رقيقة ..

– لعنة الله على الطغيان .. لا ، بل لعنة الله على مخنا الوسخ الذى جعلنا نسلم أنفسنا للأقدار ...

– خفف من ثورتك .. أنت سجين ليس فى مقدورك أن تفعل شيئاً ، لقد قمت بواجبك فاترك ما بقى لله يدبره كيف يشاء ..

– نحن شباب يا « بسطويسى » ، ولقد عرفنا مصيرنا ، ونحن هنا فى السجن ، أما أهلونا فهم فى قلق مستمر ، وهم دائم .. هم يحملون العبء الأكبر ، وهذا ما يزيد ألمى ..

– إنها ضريبة عليهم لابد أن يؤدوها ..

– لكم تمنيت أن أحمل كل عبئى وحدى .. لكن هيهات ..

– دع المقادير تجرى فى أعنتها ∴ ولا تبيتن إلا خالى البال

– هذا بعيد المنال يا شاعر الغبراء .. لست من جماد ولا حجر ..

– إن لى يا صديقى فى هذا السجن فلسفة لا أحيد عنها ..

– ما هى ؟..

– أن أساير الجو ، وأمشى مع التيار ، وأرضى بما قسم الله لى ، وأحاول أن أبتسم وأضحك ، وإذا ما جدت مصيبة سخرت منها .. وللمتنبى بيت من الشعر ..

– رجعنا للمتنبى ثانية ... إنى أتشاءم من هذا الرجل ، أنسيت ليلة التأديب ؟...

– أصبر .. هذا الشاعر يقول :

وإذا لم يكن من الموت بد ∴ فمن العجز أن تكون جبانا

وأنا يا « فريد » قد أجريت بعض التعديلات على هذا البيت فقلت :

وإذا لم يكن من السجن بد ∴ فمن الجهل أن تكون حزينا

– لست مثلك ، كم أتمنى أن ألغى حواسى ، وأنسى كل شئ حتى تنتهى الأيام المقدرة لنا فى السجن على خير .. كثيراً ما تمر بى فترات من الضيق أكاد أنفجر فيها ..

— كل شئ يهون ..

— ما أقسى الأزمات التى تمر بى ، فلا أكاد أملك زمام نفسى ، عند ذلك أشعر برغبة ملحة للبكاء ..

— فلتبك ما شئت ..

— وهذا ما يحدث فعلا ، إنى أترك لدموعى العنان ، وبعدها أشعر براحة وهدوء ، إن دموعى هى صمام الأمن يا صديقى ولولاها لتحطم كيانى واندثر ..

— الله الله على الرجال .. أتبكى حقيقة ؟؟..

— إنى لا أهذر .. يجب أن تحترم أحزانى ..

— إن هذه الأيام السوداء التى تستدر الدموع يا « فريد » ، ستكون فى المستقبل ذكرى جميلة ينتشى لها فؤادك ..

— لاتخرف يا « بسطويسى » وتعال لنبكى على خيبتنا ..

— أما أنا فلا ، إنى سأبتسم .. هذه فلسفتى ..

— إسمع يا « بسطويسى » .. أليست هناك طريقة للخروج من هذا السجن ؟..

— الهـــروب ..

— أصحيح ؟.. أهذه طريقة مجدية ؟؟..

— أنا لا أفكر فيها ..

— لمــاذا ؟..

— غير مأمونة العواقب أولا ، ولأنى لا أود الهروب من الميدان ثانياً..

— عدنا للحفلطة والحذلقة ..

— أتريد الصواب ؟..

— لا شك !..

— أترك الأمر لله ، وسيكتب لنا النجاة !..

— إنى قلق .. لا أستطيع الصبر ..

— إذن فلتتخذ نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء ..
— ما أمر سخريتك ..
— وما أشقانا بثرثرتك ..
— لن أنطق بكلمة بعد الآن ..
— بل قم توضأ كى نصلى الجمعة ..
وأقبل « كساب » نحوهما ، وخطا داخل الزنزانة ، وبعد أن صافحهما قال :
— أين « فرحات بك السروجى » ؟..
فقال « بسطويسى » :
— تفضل اجلس .. إنه لم يعد بعد ..
— أنا مستعجل .. سأعود بعد قليل وأرجو أن أجده ..
— هل أحضرت « الطلبات » ؟..
— صبرك على ، سآتى بعد لحظات ..
ومضى كساب ...

وكساب هـــذا مجرم عتيد من الصعيد ، له حوادث كثر الكلام عنها فى الصحف والمجلات ورغم ماضيه الدموى المخيف ، و « التأبيده » المحكوم عليه بها ، فهو « رجل » ، ومعايير الرجولة تحددها فى السجن عتاة السفاكين ، وملوك الجريمة ، فمقاييسهم قد تختلف عن المقاييس المتعارف عليها فى البيئات الطبيعية ،... وملامح « كساب » فيها تعبيرات مختلطة ، فسمرة سحنته تخفى وراءها قلباً أبيض ، وتواضعه فى المعاملة يخفى وراءه قوة خارقة إذا ما استثيرت دمرت ، أما لحيته الكثة المهملة فتذكر الإنسان برجل الغابة المهوش ، بالإضافة إلى فم متزن ، وأنف لا يلفت النظر وعينين مفتوحتين دائماً لكن فى طيبتهما نظرة وإنسانية لا تخطئها الناظر ، وعلى العموم إذا ما تأملت « كساب » ، وقارنت بين سمته وماضيه الأحمر القانى راعك الفرق الشاسع بينهما ، واستولى عليك

العجب من كلماته الوادعة المخلصة التى لا تذكرك مطلقاً بالدم المراق ، ولا الرءوس المفصولة عن أجسادها ، ولا الأحشاء الخارجة من مكامنها ، أو الأحداث العنيفة التى كانت تهز أسيوط ، بل تهز الوجه القبلى كله هزاً عنيفاً ...

وحينما جاء « كساب » للمرة الثانية لم يجد « فرحات » قد عاد بعد ، فألح عليه « بسطويسى » و « فريد » أن يجلس معهما قليلا إلى أن يأتى ، وكان « بسطويسى » يرى أنه من الأوفق لهم أن يعقدوا صلات ألفة ومودة بينهم وبين باقى المسجونين الآخرين ، حتى تسهل مهمة تهريب بعض المواد الهامة الممنوع تداولها فى السجن ، لأنها أشياء لاغنى لهم عنها ، وكان « فريد » يتضايق من مثل هذه العلاقات لهذا قال « لبسطويسى » قبل أن يعود « كساب » :

— لا أود أن يأتى أحد من هؤلاء المذنبين إلى زنزانتنا ..

— وهل هذا من الذوق ؟؟..

— لا دخل للذوق فى هذه الأمور .. نريد الهدوء ، كفانا ما نحن فيه من مصائب .. الزنزانة ليست وكالة « حمير » ، ولا سوقاً للبقر ..

— لا أستملح منك هذا القذف ..

— أنا حر ، لى أن أتصرف كيف أشاء ، إنهم يأتون هنا بأقذارهم وبصاقهم وسعالهم المزعج ، إن ثلاثة أرباعهم من المرضى ، ونحن لا نريد المغامرة بصحتنا ..

— فقال « بسطويسى » متضايقاً :

— ماذا ؟.. هل جننت ؟.. إنهم نادراً ما يزوروننا ، وعلاقتنا فى حدود أولئك الذين نحتاج إليهم ...

— أنا شخصياً لا أريد أن أرى وجه أحدهم ..

— والخطابات التى ترسلها إلى « نهيرة » .. أتستطيع أن تجد من يسربها لك خارج السجن غير هؤلاء الأوباش الأقذار ؟؟..

وصعد الدم إلى وجه « فريد » ولم يجب فانتهز « بسطويسى » هذه الفرصة وقال فى حدة :

– أنسيت أن هؤلاء « الأوباش الأقذار » هم من صميم الشعب الذى كنت تكافح من أجله ؟.. هؤلاء الذين كنت تسعى لإسعادهم وتضحى بمستقبلك وحياتك من أجل حريتهم وحرية أجيالهم فى ظل الجمهورية المنتظرة ؟..

فقال « فريد » فى اشمئزاز :

– على العموم ، ليس فى السجن ما يسر على الإطلاق ، أمرنا لله ..

– لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها .. ولكن أخلاق الرجال تضيق

ولم يكد « بسطويسى » يكمل بيت الشعر حتى جاء « كساب » – كما قلنا – للمرة الثانية ، فدعياه للجلوس ورحب به « بسطويسى » بشغف ومودة أسرت « كساباً » مما جعله يخفض من بصره فى حياء وخجل ، وهو الذى لم يكن يهاب الموت ، ولا يهتز للون الدم . ودار الحديث بين ثلاثتهم عن الليمان وأخباره ، وعن « الإيراد » وما يحمله الوافدون الجدد من الإشاعات ، وعن حرب فلسطين التى نشبت بين اليهود والعرب ، وعن الإشاعة التى انتشرت فى الليمان ، والتى تزعم أن الملك سوف يصدر أمراً بالإفراج عن جميع المساجين كى يحاربوا فى هذه المعركة المقدسة ، وقال « كساب » معلقاً :

– آه لو أروح .. كنت آكل عشرة من اليهود ، وأمزقهم بيدى فى لحظات ..

فانتهز « بسطويسى » هذه الفرصة وقال :

– هذا هو الجهاد فى سبيل الله يا « كساب » ..

– والله يا « شيخ بسطويسى » أنا مستعد أبيع عمرى ..

– قل لى يا « كساب » .. كم رجلا قتلت فى حياتك ؟..

فأخذ كساب يعد على أصابعه :

ــ ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. سبعة ..
ــ يا خبر اسود .. سبعة ، منهم ثلاثة دفعة واحدة ؟؟..
ــ وماذا كنت أعمل غير ذلك ؟ ..
ــ إنهم ثلاثة رجال وليسوا أفراخاً ..
ــ لقد حاولوا قتلى ..
ــ كيف ذلك ؟..
ــ كنت خفيراً فى عزبة « جلال باشا » .. وفى الليل شعرت بأشباح تتسلل ناحية حظيرة الخيل ، ولما طاردتهم أطلقوا على النار ، واعتقدت أنهم سيولون الأدبار ، لكنهم انهالوا على رمياً بالرصاص .. وكان على أنه أدافع عن حياتى ، أم ترانى أسلم رقبتى للمجرمين ..
ــ وبعد ذلك ؟..
ــ لاشئ ، قتلتهم ..
ــ وما الداعى لقتل الأربعة الباقين ؟؟..
فتنهد فى ألم وقال :
ــ حسبت أن الأمر انتهى عند هذا الحد . لكن حدث أن رئيس العصابة التى قتلت منها ثلاثة هدد « الباشا » بالقتل إذا لم يفصلنى من عملى بالعزبة ..
ــ وهل طردوك ؟..
ــ ليت الأمر وقف عند هذا الحد ..
ــ ماذا حدث ؟..
ــ استلم زعيم العصابة مسئولية الحراسة .. اغتصب مكانى .. فصرت ضائعاً بلا مأوى .. بلا رزق .. لا آمن على حياتى ..
ــ وكيف تصرفت إزاء هذه المشكلة ؟..
فحك « كساب » لحيته الكثة فى عنف وقال :
ــ انطلقت إلى الجبال ، وعشت فى المغارات والكهوف ..

— وكيف حصلت على رزقك ؟..

— مثل الوحوش والضوارى ، كلما جعت افترست .. الوحوش ليست مثل بنى البشر أولئك الذين يفترسون سواء أكانوا جائعين أم شبعين ..

— لم تقل لنا كيف قتلت الباقين ؟..

— أقول لك الحق .. إنى سئمت حياة الكهوف لما فيها من حذر وترقب ، وإن كانت أنهـــار الذهب تدفقت بين قدمى .. كنت أريد أن يكون لى زوجة وأولاد وغيط أقضى فيه طول يومى ... ان صفرة الصحراء ، وظلمة الكهوف والصمت الضارب لما يقتل النفس ، ويبعث على الملل فقتلت السارق ..

— من تقصد ؟ ..

— ذلك الذى سرق وظيفتى .. رئيس العصابة الله (يجحمه) ..

فتمتم الشيخ « بسطويسى » فى خشوع :

— ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا .. صدق الله العظيم ..

فاغرورقو عينا « كساب » بالدموع وقال :

— أتعتقد أن الله سيغفر لى يا « شيخ بسويسى » .. أنا لا يهمنى السجن بقدر ما يهمنى رضا الله .. الله يجازى من تسبب فى كل ذلك ...

— هل تبت إلى الله يا « كساب » ؟..

— لاأترك فرضاً .. وألح فى الدعاء ..

— .. إن الله يغفر الذنوب جميعا ..

فأضاءت بارقة أمل فى وجه « كساب » الأسمر ، وقال :

— ربنا يسمع منك .. والآن سأكمل لك قصصى ..

لكن « فرحات السروجى » كان قد وصل فى تلك اللحظة فقصد « كساب » من فوره ، وقال له :

- هل أحضرت السجاير أولا ؟..

- عيناى لك يا سعادة البك .. أنا خدام .. سجاير وشفرات حلاقة وإبرة خيط و .. و .. الخ وكنت على وشك أن يفتشنى السجان فيذهب مجهودنا أدراج الرياح ، لكن الله سلم ..

وانتحى « كساب » ركناً من الزنزانة وقال :

- عن إذنكم ، أرجو ألا تلتفتوا إلى ناحيتى ...

وفك « كساب » سرواله على أثر صرف أنظارهم عنه ، وأخذ « يحزق » ويبذل مجهوداً شاقاً حتى تدلى من فتحة الشرج أنبوبة معدنية أسطوانية الشكل صدئة تتركب من قطعتين أحدهما الغطاء ، وبداخلها الطلبات ، ولم يبد « كساب » كبير اهتمام بقطرات الدم التى تساقطت منه بعد أن قام بهذه العملية - عملية « الابوس » كما يسميها المذنبون - وهى الطريقة المثلى لإخفاء الممنوعات ..

وأخرج « كساب » ما فيها ، وقدمه إلى « فرحات » الذى قال :

- ألف شكر !..

- أى خدمة يا بك ؟..

وعندما نظر الرجال الأربعة ناحية باب الزنزانة ، وجدوا السجان يقف بسحنته الغاضبة ، ونظراته النارية ، فجمدوا فى مكانهم ، وهمس « بسطويسى » فى ضيق وثورة :

- يا للكدرتة !!! .

وقال السجان بصوت أجش غليظ :

- مكانك أنت وهو .. لاتتحرك ..

وخطا إلى الداخل . وأمسك بالسجاير والموس وباقى الحاجات ، بينما نظر « فرحات السروجى » إلى السجاير فى حسرة وغيظ ، وقال السجان :

ـ هيا إلى التأديب .. إمش يا « كساب » ..

فغمغم « فرحات » لنفسه حانقاً دون أن تتضح كلماته :

ـ ملعون أبوكم وأبو التأديب ..

لكن « كساب » تقدم مسرعاً وقال وهو يقبض على هذه الممنوعات في يده :

ـ هذه ملكي كلها .. وأنا آت معك إلى التأديب ..

ومضى « كساب » إلى التأديب تودعه نظراتهم الشاكرة لأنهم لم يخرجوا من « الحمراء » إلا الأسبوع الماضي ، بعد أن قاسوا هناك الآلام الموجعة ..

الفصل الثامن عشر

درجت « نهيرة » فى الأسابيع الأخيرة الماضية على أن تسجل خواطرها على ورق ، ووجدت أن كتابة المذكرات اليومية تخفف عنها كثيراً ، وترفه عن أفكارها المترة المكدودة ، ان أمها لاتناديها إلا قائلة : « يا أم تحت مايل » ، وأبوها قد بان عليه الكبر أكثر من ذى قبل ، وزاد ضغط الدم عنده فسبب له كثيراً من المضايقات ، بعد أن رأى مستقبل وحيدته « نهيرة » يتهاوى إلى الحضيض ، وأنست « نهيرة » بالتالى إلى عزلتها ، فانطوت على نفسها ، وكثيراً ما أخذت تناجى نفسها ، وتتحدث إلى حبيبها الغائب ، وتسأل وتجيب ... ووجدت « نهيرة » أن خير وسيلة تقطع بها الوقت ، وتنفث بها عن أحزانها هى تدوين بعض الخواطر ..

الأربعاء فى .. .. ..

لم أكن أتصور أن تنهار آمالى دفعــة واحدة بين يوم وليلة ، فأضطر اضطراراً إلى الإجهاض ، وأعرض حياتى للخطر ، وأنا التى كنت أحلم بالزواج ، وأنتظر اليوم الذى يرى فيه جنينى النور ، وأصبح أماً فأناغيه وأداعبه فى حنان وسعادة ، ولم يكن فى حسبانى أن تهبط على كف قاسية غليظة وتقبض على قلبى بأناملها الوحشية الجهنمية فتسحقه بلا رحمة . . ومن كان يظن أن « فريد » الشاب الوديع الناجح المهذب ، سيتهم بالتآمر على حياة الملكية ويلقى به فى غياهب السجن .. يا إلهى ما أظلم المستقبل فى عينى ، وما أبشع المصير الذى يفغر فاه كى يلتهم سعادتى !...

سبعة سنوات أشغال شاقة بين القتلة وأرباب الخطايا ...

الخميس فى .. ..

إنى أجلس الآن على سطح البيت ، وأمام الحجرة العلوية التى شهدت ليالينا ... يا لها من ليالى سرقنا ها فى غفلة من الزمان ، وكنا نثور ونغضب أنا و « فريد » عندما نستيقظ وندرك حقيقة ما أقدمنا عليه ..

ومن مكانى على السطح ، أنظر إلى الطريق المؤدى إلى خارج القرية ، فى هذا الطريق كان يمضى « فريد » إذا ما سافر .. حتى المرة الأخيرة كان يسير فيه ، وبين خطوة وأخرى يلتفت إلى اليمين حيث كنت أنا أقف هنا لأراه وهو يبعد رويداً رويدا .. وكان يلوّح من بعيد ، وأنا أبعث إليه على متن الهواء بقبلة مخلصة وأبث النسيم رسالة أشواقى وحنينى .. آه .. إن هذا الطريق بترابه وأشجاره وبالزرع الأخضر الممتد على جانبيه ، وتلك النخلة الوحيدة .. و « فريد » وهو يمر أمامها ويلوح بيده إلى .. كل هذه الصور محفورة فى قلبى لا تغادره أبداً ...

الجمعة فى .. ..

نفس مكان الأمس !...

الشمس تحبو فى تثاقل وشحوب نحو الهاوية فى الغرب .. إن الشمس فى شحوبها واكتئابها لا تختلف عن آمالى كثيراً .. وهل بقى لى شئ بعد فريد إلا مرارة الذكرى ، وألم الفراق ، وغصة الأحزان ؟؟ ..

إننى أبكى .. وآسفاه ، ماذا يقول الشامتون والشامتات إذا ما رأوا دموعى المنسكبة ، أتراهم سيسبرون ، ويجدون فى آلامى غذاء لأحقادهم وغيرتهم وشماتتهم ، أم أنهم سينسون هذه التوافه ويستجيبون لداعى الإنسانية ، فيرثون لإنسانة بائسة مثلى ؟؟.. أجل ، لا شماتة فى ميت .. وما أنا إلا ميتة أو شبه ميتة ...

لكن ما الذى جعلنى أفكر فى مثل هذه الموضوعات التى لا تهمنى فى كثير أو قليل ، وماذا تفيدنى شماتتهم فى ، أو رثاؤهم لى ؟.. إن حزنى أكبر من هذه الأفكار ، ونكبتى تجل عن الناس وكلام الناس . . .

الاثنين فى .. .. ..

هناك مرض عام .. والسبب فى عموميته أن كثيرين من الناس لايفلتون من قبضته .. صبراً يا مذكراتى الحبيبة .. أراك تتلهفين على معرفة ذلك الداء ..

« قلة الذوق » هو مرض الأمراض .. ستدهشين يا مذكراتى إذا علمت أن « عبد الرحمن افندى » أجل « عبد الرحمن افندى » أخذ يكثر من زياراته لنا فى المدة الأخيرة بعد أن بذل جهداً جباراً وألغى نقله من « شرشابة » وعاد إلى بيته وتحشيشه مع « تعويره » .. أتى فى أول الأمر آسفاً حزيناً ، وكم مصمص بشفتيه ، وأبدى كثيراً من الأسى لمصير « فريد » ، كان يحترم أحزاننا ويخشع أمام نكبتنا .. لكنه رويداً رويداً أخذ يخلع رداء الحزن المصطنع ، وينزع عنه مسوح الأسف قطعة قطعة ...

لقد ابتدأ ينسى « فريد » أو يتناساه بمعنى أصح لأنه ليس من السهل أن ينساه .. ألم يقهره فى حبه ، ويستوى على عرش قلبى ؟؟..

وأخذ يبتسم ، ثم تحول الابتسام إلى قهقهة ، ...

كلما تناهت إلى سمعى قهقهاته انغرست كالسهام فى صدرى ، إن الضحك جريمة فى بيتنا ما دام « فريد » فى ذلك الوادى الرهيب ، وأصبح الحزن فى نظرى عبادة روحانية سامية ، أخشع فى محرابه ، وأبلل ثراه بالدموع ...

و « عبد الرحمن افندى » انتهز فرصة مرض أبى بالضغط ، وحاجته إلى العون فأخذ ينجز له أوراقه ، ويساعده فى أعماله الكتابية ، ويحضر له الطبيب إذا ما عاوده المرض ،والأعجب من ذلك أنه يشترى الدواء على حسابه ثم يرفض أن يأخذ ثمنه أو يأخذ نفقات الطبيب ..

أتراك يا « عبد الرحمن افندى » تقدم خدماتك لوجه الله .. أم أنك تقدمها حتى تحظى بالقبول والشكر من والدى ؟؟..

وأى نوع من الشكر تريد ؟؟.. أمجرد كلمات وابتسامات تتلقاها من أبى ؟... أم ما هو أكبر من الكلمات والابتسامات ؟؟..

يخيل إلى أن الشكر الذى يقصده « عبد الرحمن افندى » من النوع الثانى .. يا لوقاحته .. ألم أقل أن قلة الذوق مرض سخيف ؟؟..

الخميس فى .. .. ..

وصلنى خطاب اليوم من « فريد » .. يا لقلبك الكبير أيها الحبيب النبيل ، إنك فى خضم الآلام ، وفى جحيم الأهوال ، ومع ذلك تفكر فى .. إن قسوة القضبان ، وثقل القيود، وشمس الجبل الحارقة وأحجاره الثقيلة الممقوتة التى تحملها على ظهرك .. كل ذلك لم يمح صورتى من قلبك .. أتسألنى عن صحتى ؟؟ يا لعبث الأقدار !... وتتلهف شوقاً على أخبارى ، ومدى استمساكى بالعهد ووفائى بالمواثيق ؟.. ومن أنا حتى تسألنى هذه الأسئلة أيها الوفى الأليف ؟.. إنك مكافح حر نبيل ، وما أنا إلا خادمتك .. بل أمتك .. سأعيش راهبة فى هيكل ذكراك أتمتم باسمك ، وأسبح به ليل نهار ... لكن لماذا ترسل خطابك هكذا يا « فريد » على ورق متسخ غليظ ، وتكتب كلماته بقلم من الرصاص الرخيص ؟.. أنسيت أنك تكتب لأحب إنسانة لديك فى الوجود ؟.. أنسيت أننى أحيا لك وبك ؟.. سامحك الله .. ومع ذلك فانى سأحتفظ بهذه الورقة رغم اتساخها ، ورداءة خطها ، لقد أشبعتها لثماً وتقبيلا حتى أوشك ما عليها أن يمحى ، لهذا سأكتفى بذلك ، وأجعل منها تميمة تمدنى بالثبات واليقين .. لكن تأكد أن قلبى معك دائماً .. نقطة هامة نسيتها يا « فريد ».. لم تقل لى كيف أكتب إليك ؟.. ولم تذكر لى عنواناً .. آه ما أغبانى .. إن ذاكرتى آخذة فى الضعف .. لقد تذكرت الآن فقط .. إن كتابة الخطابات ممنوعة على المسجونين .. هذا هو السر إذن فى أن خطابك كان فى ثوب غير لائق ..

« غير لائق » يجب أن أشطب هاتين الكلمتين من مذكراتى . . ألهذا الحد أتقيد بالرسميات ومع من ؟ مع فريد حبيبى وزوجى ؟ ؟ يا لى من آثمة . . أنى أستبيحك عذرا فى مهاتراتى يا « فريد » . .

لن أنسى اللحظة الخالدة التى تسلمت فيها هذا الخطاب الأول منك ... كنت ألتهم كلماته التهاما .. لم أستطع أن أقرأه كالمعتاد ، بل كان بصرى يختطف كلمة من السطر الأول ، وكلمة أخرى من الثانى ، .. وأجرى هنا وهناك بين السطور دون أن أجد الهدوء الكافى الذى أستطيع فى ظله أن أتفهم ما فى الكتاب ..

انك يا « فريد » تمنينى بالعفو القريب ، والافراج عنك إذا ما حدث تغيرات سياسية .. ما أشد شوقى لهذا اليوم ، الذى سيكون ولا شك أسعد يوم فى حياتى على الاطلاق ، لكن لتهنأ بالا يا حبيبى .. فسأنتظرك شهراً .. عاما كاملا .. ثلاثة أعوام .. المدة كلها .. ماذا ؟ ؟ سأنتظرك طول العمر حتى تعود .. واذا لم يتح لنا اللقاء — لا قدر الله — فهناك عالم آخر بهيج حبيب إلى الروح ، هذا العالم أبيض طاهر شفاف .. ليس فيه عسف ولا طغيان ولا قصر ولا ملوك أو انجليز .. هناك يحلو اللقاء ، وتزول أوهام الزمان والمكان فى دنيا من الطلاقة والحب والنعيم ..

الأربعاء فى ....

كنت مرتاحة لوحدتى وانعزالى ، أتسلى بالنجوى ، وأقضى وقتى فى الكتابة .. لكن يبدو أننا لسنا أحرارا فى أن نترك لأحزاننا وانطوائنا ، حتى الحزن المنفرد عز علينا .. يا الهى .. لكن حدث اليوم ما أرق على حياتى ... دخلت أمى وقالت :

— كيف حالك اليوم يا حبيبتى .. ؟

— الحمد لله ..

— ألا تتركين حجرتك إلا لتذهبى إلى السطح ، ولا تغادرين السطح إلا لتعودى إلى الحجرة ؟

— وماذا يضايقك فى ذلك يا أماه .. ؟

— قلبى يا ابنتى يحدثنى أنك تتدهورين ، وصحتك تنتقل من سىء لأسوء ..

— اطمئنى على . . أنا بخير غير أنى أجد فى الهدوء والوحدة راحتى .
— لشد ما تغيرت يا نهيرة . .
— الدوام لله ، سبحان من لا يتحول . .
— اسمعى يا نهيرة . . سأحدثك بصراحة . .
— قولى ما شئت يا أماه . .
— لا بد أن تحولى هذا المجرى الذى تسير فيه حياتك . .
— ماذا تعنين . . ؟
فقالت أمى مستطردة :
— أنت ما زلت فى ريعان الشباب . . يعنى فى أول الطريق . . وحرام أن تدفنى نفسك فى قبور الأحزان وأنت حية نابضة . . و . . جميلة . .

وانتفض جسدى كله عند ما سمعت هذه الكلمات من أمى : . . الشباب . . والجمال . . ماذا تقصدين بذلك . . . سامحك الله يا أمى : ان فريد هو الشباب وهو الجمال . . هو حياتى وهذه الكلمات بدونه فارغة جوفاء لا روح فيها ، ولا أمل من ورائها . . ولا تبعث فى إلا شعور الاشمئزاز والخجل والضيق . .

ورفعت أمى صوتها قائلة :
— أبوك مصاب بضغط الدم العالى . . أقل صدمة ستضع حدا لحياته .
ففزعت وانتفضت قائلة :
— حد الله . . لا تقولى هذا الكلام يا أمى . .
— لا تكونى حالمة أيتها الحمقاء . . تلك هى الحقيقة . واذا حدث — لا قدر الله — لأبيك مكروه . . فالمصير معروف . . أتفهمين . . ؟
فطأطأت رأسى وهمست فى حزن :
— أجل . .
وأردفت أمى قائلة :

— والطبيب أوصى أكثر من مرة بأن أباك فى حاجة إلى جو يسوده الانبساط والمرح . .

— يجب أن نكون عند حسن ظن الطبيب . . .

— طبعا . . لا بد أن تبتسمى . . وتجلسى بجواره دائما وترفهى عنه

وسمعت كلمات أمى وهمست لنفسى : كيف أبتسم ، وأنا التى كنت أعد ذلك جريمة لا تغتفر ؟ ان الابتسام زندقة وكفر لمن يبتهلون ويتعبدون فى محاريب الألام والأحزان . . سأصير إذن مثل عبد الرحمن أفندى « قليل الذوق » ابتسامة .. فقهقهة . . فنسيان .. إنى أدعو الله أن أموت قبل أن أنساك يا فريد . . فلا طلعت على شمس ذلك اليوم الذى أشعر فيه بهناء ورضى ان لم تكن بجوارى . . . وصحوت من أحلامى على صوت أمى أمى وهى تقول :

— أما هذه الملابس السود فيجب أن تخلعيها . . ان فساتينك سوف يأكلها البلى إذا لم تستعمل ، واذا لم تستعمليها فمن الخجل أن نبيعها . . لست صغيرة وفى استطاعتك أن تتصرفى ، سأتركك وشأنك . .

ومضت أمى وتركتنى أشد حيرة ، وأكثر بلبالا . . لم يكن من نصيبى عاصفة واحدة ، بل ان فى الأفق عواصف أخرى ، ونذرا تتجمع ، أواه . . لا تتركنى وحدى يا الهى . .

انك مريض يا أبى . . ولن أضن عليك بأى شىء مهما غلا . . سأشترى حياتك بابتساماتى ومرحى المزور . . أجل ان قلبى سيبكى ، وروحى ستغنى أناشيد الحزن على قيثارة الهموم ، لكن لا بأس من أن أرسم بعض الابتسامات . . سأفتح فمى قليلا ، وسألين ملامحى ، وسأفك عقدة لسانى نوعا ما . . قد يكلفنى ذلك مجهودا ، وقد يزيد من آلامى . . لكن الواجب فى مثل هذه الحالات قاس لا يرحم وخاصة نحو أولئك الذين قد دفعونا إلى الحياة . . أعنى الآباء والأمهات . .

شفاك الله يا أبى . . .

الخميس فى . . . .

لست أدرى ما الذى جعلنى أرجع اليوم إلى الوراء شهورا ، وأتذكر صديقتى « فردوس » ، وكلامها عن الحب والزواج والسعادة الزوجية ، وأتذكر بالذات عبارتها التى تقول : « انك تعللين الحب وتضعين له الحيثيات والمسببات . . الحب غير هذا كله . . أعنى أن الحب لا يعرف المنطق ولا التقنين » . . صدقت فردوس . . ما كان أغبانى آنذاك لانى لم أدرك تلك الحقيقة كاملة . . لكن الحمد لله ، لقد عرفتها الآن وعشت فى خضمها . . « فريد » انه خسر الآن كثيرا . . وكلما مرت الأيام كانت تضحيته أفدح وخسائره أعظم . . وأصبح لقاؤنا كالحلم البعيد . . البعيد . وقد تنقضى سبعة سنوات من الأشغال الشاقة قبل أن نلتقى . . ومع ذلك فحبى لفريد ينمو ، وكلما قل الأمل واستحكم اليأس شعرت بانعطافى نحوه يزيد يزيد إلى ما لانهاية . . ما السبب ؟ لا أدرى . . هل سأضمن السعادة الزوجية والراحة المادية فى ظله ، وهل يحقق لى كل رغباتى كما قلت لفردوس من زمن مضى . . ؟ هذه أشياء فى ضمير الغيب . .

أترانى شاذة . . ؟ هل يقول الناس عنى مجنونة خيالية ، تتمسك بأهداب الأوهام ، وتجرى وراء السراب . . لقد كنت مثلهم ، أما الآن فشتان بين الأمس واليوم .. الفرق واضح جدا مثل الفرق بين الليل والنهار .

حسبت البعد ينسينى ، وتقلبات الأحداث قد تمحو صورته ـ صورة فريد ـ من قلبى ، ولكن هيهات هيهات . .

لم أكن من قراء الروايات ، ولا ممن يعجبون بليلى وجوليت فى الزمن الغابر . أما اليوم فقد أصبحت أساطير الحب القديم التى سمعت عنها تتخذ وضعا جديدا وصورة جديدة فى مخيلتى . .

هذا ما أحسه . .

الأحد فى . . . .

إنى أحس أن كل شىء حولى يبكى وينوح . . تلك النخلة التى

يصطفق جريدها يخيل إلى أنها تلطم وجهها ، وذلك الطريق الذى يمضى خارج شرشابه عليه وحشة وكآبة ، وهذه الحقول قد تعرت من محصولاتها بالخراب والجدب الذى لا أستطيع تعليله .. أنى نظرت أجد آمالا ضائعة وشحوبا وقنوطا .. حتى الساعات التى أقضيها نائمة مليئة بالهول والأحلام والصور الكئيبة المحزنة ..

لا تعجبى من طول شكاياتى .. وكثرة أنينى يا مذكراتى ..

هل تتصورين أن أصبع « فريد » .. اصبعه الحانى الرقيق قد بتروه .. ؟ أجل .. قطعوه وأصبحت يده اليمنى ذات أربعة أصابع فقط .. لقد تساقط قلبى وتهاوى حتى حسبت أنه أصبح بين قدمى يتململ فى التراب .. انه قصة محزنة .. أليس كذلك .. ؟

لكن ما هذا الهذيان .. ؟ سأقول ما حدث بالتفصيل .. فاستمعى إلى يا مذكراتى ، لأن هذه الحادثة قد هزت كيانى هزا رهيبا ، وجعلتنى أبكى بكاء مرا ساعات متواصلة .. حتى أمى نفسها التى كثيرا ما كانت تثور على انطوائى وأحزانى ، وتوجه إلى لومها وتعنيفها ، لم تجد هذه المرة ما تقوله لى بل اكتفت بالصمت وتركتنى وشأنى ، والأعجب من ذلك أنها بكت هى الأخرى .. لم تكن تبكى لبكائى بل من أجل فريد .. هذا ما شعرت به ..

تلك هى القصة .. لقد ذهب الحلوانى » لزيار فريد فى الليمان هذا الأسبوع .. مسكين هذا الرجل ، ان منظر ولده وهو غارق فى الملابس الزرقاء ، مثقلا بقيوده .. هذا المنظر يسلب منه هدوءه ووقاره فيجهش بالبكاء كالثكلى .. لقد ذهب « الحلوانى » ، وهو يفكر فى هذا المنظر ، ويفكر فى النافذة السلكية المعتمة المزدوجة الأسلاك التى يقف « فريد » خلفها ، ويفكر فى عجزه التام عن أن يحتضن وحيده ، ويتحسس جسمه ويقبله ، لكن لم تشأ الأقدار أن يرى « الحلوانى » منظر النافذة الكئيبة

هذه المرة . . لكن ليته رآها . . لقد فوجيء بجاويش الزيارة يخبره بأن ولده فى المستشفى ، وسيزوره هناك . . فى المستشفى . . ؟كيف ذلك . ؟

لقد دارت الأرض بالرجل المسكين ، وزاغت نظراته ، وشعر بأنه يوشك على الاغماء :

— لماذا فى المستشفى . . ؟ هل أصابه مكروه . . ؟

— ومن أدرانى . . ستزورة زيارة خاصة ، ولعل هذا يسرك . . انها فرصة . .

وبكى المسكين . . لقد عادت إلى ذهنه صورة ذلك الشهيد البرىء . . صورة « عبد المجيد » أترى هل جاء دور « فريد » الآن . . ؟ صورة مرعبة جعلت « الحلوانى » يصعد إلى مستشفى الليمان وهو يتعثر فى خطاه ، وفى ذيل ردائه البلدى الطويل . .

ودخل عنبر المرضى ، وأخذ يتصفح الوجوه الصفراء الذابلة ، ذات السترات المقبضة ، وقاده أحد العساكر إلى سرير « فريد » . . لم يكن « فريد » قد أفاق من أثر الحمى الشديدة التى انتابته ، لهذا كان محتقن العينين ، محمر الوجه ، وجسده يتقد اتقادا وهمس الرجل الباكى قائلا :

— ما بك يا « فريد » . . ؟

— لا شىء ، اصابة لكنها مرت بسلام ! . .

وتحرك « فريد » فى فراشه فبانت يده مثقلة بالأربطة البيضاء ، فانحنى « الحلوانى » على الأربطة يتحسسها ويقبلها ، ويستفسر عما أصاب ولده . .

فهمس « فريد » فى عاطفة حانقة جياشة :

— الجبل . .

— ماذا تقصد يا ولدى . . ؟

— كنت أنقل الأحجار هناك ، فانحدرت كتلة من الصخر نحوى بقوة عنيفة وكانت على وشك أن تحطم رأسى . .

— حماك الله .. لا تقل هذا ..

— إن الموت أرحم من هذا الذل ..

— الصبر طيب ، وأنت مؤمن وتعرف ربنا ..

فصمت « فريد » لحظة وأردف :

— المهم أن الله سلم ، وسقط الحجر فوق يدى فسحق أحد أصابعى وترك بعض الرضوض فى كفى ..

وتصور « الحلوانى » بشاعة المنظر ، وتخيل يد ابنه وهى تحت الصخرة المنحدرة بقسوة وفظاعة ، فلم يملك نفسه من البكاء مرة ثانية ..

وعاد الرجل من زيارته يحمل على رأسه هما ثقيلا ..

هذا ملخص ما حدث له .. والآن أتركك يا مذكراتى الوفية .. فانى لا أقدر على أن أحرك القلم فان كلى يرتعد ويرتعش .. ولست أدرى متى تكون نهاية ذلك الشقاء العنيد ..

الأحد فى ....

ألجأ اليك يا مذكراتى الحبيبة بعد أن هجرتك شهرا ونصف شهر .. ألجأ اليك وفى نفسى غصة وبين ضلوعى لوعة .. والسبب فى ذلك جد خطير ...

إن « فريد » قد ضاق بسجنه ، فلقد بلغنى عنه أن إيمانه قد ضعف وتزعزع بحيث سبب لكثير من زملائه النكد والضيق .. انه لا يفتأ يحمل عليهم ، ويعنفهم ويلقى عليهم تبعة العقوبة التى حكم عليهم بها .. معذرة يا مذكراتى . ان التفكير المتزن السليم لا يأتى فى ظل الألم والهوان والضياع وبين الجدران الأربعة القائمة .. انى كلما تصورت وضع فريد وسط زملائه ، وهم ينظرون اليه نظرات الأسف ويوجهون اليه التهم المختلفة لضعفه .. ويصفونه بالخيانة والجبن ، كلما تصورت ذلك أشعر بالخجل .

لا أكتمك ما فى نفسى يا مذكراتى .. انى أتحرق شوقا إلى اليوم الذى يخرج فيه من سجنه ، وكثيرا ما أقول : « ليخرج إلى « فريد » عن طريق

طريق شريف أو غير شريف . وليقولوا عنه خائنا أو ضعيفا . . إننى أريده لى وكفى . . لكنى أعود إلى نفسى وأقول : انى أحب فيه رجولته ومثابرته وكفاحه فى الحياة ، فاذا عاد إلى آيسا من الحياة والكفاح غير عابىء بمواقف الرجولة والصبر فماذا يبقى لى فيه إذن ؟ الهيكل ؟ انى أريد « فريدا » كاملا مكتملا . . ان أصبعه التى ضحى بها لما يشرفنى ويجعلنى أفخر به . . نذرا على إذا ما لقيته لقبلت تلك الإصبع عشرات المرات . .

أعود فأدعو الله أن يحفظ « فريدا » لإخوانه مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، ومثلا أعلى للرجولة والصبر حتى يكتب الله له النجاة . .

الثلاثاء فى . . . .

انى أفكر فى زيارة « فريد » . .

لكن ما جدوى الزيارة . . ؟ يكفينى أنى سأراه وأطمئن عليه ، فالمسألة إذن لا تحتاج إلى إبداء أسباب . . ولا شك أن زيارتى له ستعطيه قوة دافعة فى صحراء حياته القاحلة ، انه فى مسيس الحاجة إلى الكلمة الطيبة التى تواسيه ، واليد الحانية التى تربت على رأسه فى اشفاق ، والابتسامة المشرقة التى تبدد الكثير من همومه . . ان السجن بمن فيه من نزلاء وسجانين يعيش فى جو من الغربة والقسوة والحرمان . . كلهم فى حاجة إلى من يعطف عليهم . . و« فريد » على رأس هؤلاء ، لهذا فزيارتى له هامة . . لكن هناك علامة استفهام كبيرة أراها ترتسم فى ذهنى . .

هل يوافق أبى . . ؟ وهل توافق أمى . . ؟

هنا المشكلة الكبرى . .

الاثنين فى . . . .

رفضت أمى الزيارة رفضا باتا وأغلظت لى فى القول اليوم فلم أجد مناصا من الاعتصام بالصمت والدموع ، والاكتفاء بخطاب أرسلته إليه بطريقة ملتوية . . .

الفصل التاسع عشر

كان « فريد » فى المستشفى محاطا بشتى أنواع الرعاية من الطبيب والممرضين ، وكانوا يقدرون فيه علمه وصدق عاطفته ، وينظرون بعين الاحترام إلى التهمة التى جوكم من أجلها ، ولهذا قضى فترة طيبة هناك ، استراحت لها نفسه نوعا ما ، وعاد إليه شيء من الهدوء والثقة القديمة ، وتقبل مأساة بتر أصبعه بصبر واستسلام ، وآمن « فريد » بالحكمة التى كثيرا ما كانت ترددها أمه وهى « قضاء أخف من قضاء .. .. لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع .. » ولا شك أن استطراد الليالى ، وتتابع الأيام يضفى على أيام السجن صفة الاعتياد فتصير طبيعية أو أشبه بالطبيعية ...

واستطاع « فريد » فى المستشفى أن يحصل على نوع أرقى قليلا من الطعام والملبس بل إن « كساب » كان يحاول فى نفس الوقت أن يهرب إليه بعض الممنوعات مثل السكر والشاى والحلوى ، والحقيقة أن « كساب » .. هذا الإنسان الساذج الطيب .. والذى يقولون عنه أنه مجرم عتيد ، قد غير فكرة « فريد » تماما عن المذنبين ، وأصبح يؤمن بما كان يقوله الشيخ « بسطويسى » من أن « كساب » وأمثاله نماذج انسانية طيبة وخامات ممتازة من السهل تشكيلها وتوجيهها إلى الطريق السليم .. ولا شك أن هناك تبعة ضخمة تقع على كاهل المجتمع الذى كثيرا ما ينسى التزاماته نحو هؤلاء المساكين ..

وبعد أن قضى فريد ما يقرب من أسبوعين فى المستشفى أحس بتقدم كبير ، فأشعره ذلك بمزيد من الثقة والتقدير لنفسه رغم كونه مسجونا مهانا ، ودخل عليه « كساب » فى يوم جمعه ، واقترب من سريره وقدم

اليه خفية خطابا ، فتناول « فريد » الخطاب فى لهفة ودسه فى مكان أمين حتى لا يلحظه أحد ، وكان «كساب» كلما قدم « لفريد » خدمة شعر بالسرور والسعادة . . وكانت سعادته وسروره يزدادان كلما فتح « فريد » له قلبه ، وأقبل عليه يحدثه ويضاحكه ، وقال «كساب» بعد أن أعطاه الخطاب :

– ألف سلامة يا « فريد » بك . . ليت ذراعى كله كان فداء لأصبعك . . .

فرد « فريد » فى امتنان :

– عشت يا أبا الرجال . . انك كريم النفس يا «كساب» . .

– يعلم الله أننى فى أسف شديد من أجلكم . . نحن معشر المذنبين نستطيع أن نحتمل أهوال السجن وبلائه . . نحن فلاحون . . حياتنا كلها نكد وشقاء وتعب . . أما أنتم فأولاد مدارس ليس لكم أن تذوقوا طعام السجن الردىء ، ولا تفترشوا أبراشه الخشنة التى تشبه أطراف المسامير المدببة . . أنتم ناس شرفاء محترمون . . أما نحن حتى لو متنا أو عشنا سيان . . لن تخسر الدنيا أو تكسب ببقائنا أو موتنا . .

فقال « فريد » :

– لماذا تشعر هكذا بالضيعة والهوان . . ؟ إنك بشر . . إنسان مثلى ومثل « فرحات » و « بسطويسى » يا «كساب» . .

– قل كلاماً غير هذا . . شتان بين الأرض والسماء ! . .

– إن ظروفك يا «كساب» هى التى خلقت منك فلاحا ، وظروفى هى التى جعلت منى متعلما . .

– وهى نفسها التى تنزل بى إلى الحضيض ، وتصعد بك إلى القمة

– أنت واهم . . أتعلم أن « أبى » فراش مدرسة . . وإنسان أمى . . ولا يملك من الطين قيراطا واحدا . .

فحملق فيه «كساب» دهشا وقال :

— أصحيح ما تقول .. ؟
— والله صحيح ..
وابتسم «كساب» .. ابتسم لأن «فريد» أصبح أقرب إلى قلبه من ذى قبل ، حتى لكأنما المشاركة فى الفقر ومشاق الحياة من أوثق الروابط التى تقرب بينهما .. أن «فريد» فى نظره أصبح مثل ابنه .. مثل أخيه .. نفس الظروف .. ونفس الطبقة الاجتماعية .. وكم كان «كساب» يود أن يميل على جبهة «فريد» ويقبلها فى حب وحنان ..
ووثب إلى ذهن «فريد» سؤال فسارع قائلا :
— قل لى يا «كساب» .. ماذا تنوى أن تفعل عند خروجك من السجن ... ؟
— خروجى .. ؟ داخل السجن مفقود ، والخارج منه مولود .. وأكثر المحكوم عليهم بالسجن المؤبد يخرجون من الباب الخلفى ..
— ان صحتك ما زالت على خير حال ، ولم يبق أمامك إلا ستة أعوام وفرصة خروجك من السجن ستتحقق فيما أعتقد ان شاء الله ...
— شغل الجبل لم يترك فينا قوة .. لقد أفنى شبابى .. كنت أحس بقوة أربعة جمال .. لكن ..
— لكن ماذا .. ؟
فشرد «كساب» ببصره ، وأخذ يمعن الفكر لحظات ، ثم رفع رأسه قائلا :
— كثيرون منا لا يفضلون الخروج من السجن ..
— كيف .. ؟
— ألم تسمع أبدا عن أولئك الذين يفتعلون الحوادث ، ويرتكبون الجرائم حتى يظلوا كما هم فى السجن .. ؟
— لكن الحرية .. ألا يحنون اليها .. ؟
— لا يحن إلى الحرية إلا أمثالك أصحاب المستقبل .. وذوو العائلات

وأولئك الذين ينتظرهم أولادهم ، ويجدون بجوارهم الأمن والدعة ولقمة العيش . . أما أنا . . ماذا تنتظر أن أفعل . . ؟ أأعود إلى حياة الكهوف والدم والليل . . ؟ لا يمكن ، انى أفضل الموت على ذلك . . وأنا لم أتزوج ولم يترك لى أبى ميراثا . . تستطيع أن تعتبرنى ضائعا . . جائعا . . وعلى هامش الحياة . .

— أنا شخصيا أفضل التشرد فى الشوارع ، أنام على الأرصفة ، وأقتات الفتات والقمامة ، وكفانى أن أنظر إلى السماء وأرمق الحياة . .

— لأنك شاب لم تشبع من الحياة بعد . . أما أنا فقد حفيت قدماى من الجرى فى عزبة الباشا ، وكلت يداى من القيام بالخدمات . . وسهرت وضحيت . . ثم لجأت للكهوف . . جربت كل شىء وهنا سأبقى حتى ألقى الله . .

— انك يائس جدا . . واليأس كفر . . لست أدرى كيف ترضى أن يتحكم فيك سجان فيصفعك على قفاك ، أو يضربك بعصاه . . ان هذا عندى أقسى من ضرب الرصاص . .

— هذه حياة ألفناها . . كم رأينا . . وكم سمعنا . . نحن نفاية المجتمع . . ليس هذا من عندياتى بل هذه هى الصورة الحقيقية ، كان هنا منذ عشر سنوات « صول » يرصنا خمسة خمسة فى طوابير منتظمة ونحن قعود على الأرض ، وكان يخطب فينا كل صباح قبل الذهاب إلى الجبل ، فيقول لنا : « أيها المذنبون اعلموا أنكم حثالة الناس ، وأوباش البشر . . فعليكم بالطاعة ، واحسان العمل ومن لم يستجب للأوامر استجاب للعصا والكرباج . . » ويظل الصول يقذفنا بأقذع الشتائم كل صباح لبضعة دقائق . . . هذه هى منزلتنا . . لا يا « فريد » بلك السجن أحسن . .

وهم « فريد » أن يرد عليه ، لكن نوبتجى المستشفى كان قد أقبل من بعيد ، وأخذ يصيح فى وجه « كساب » لبقائه فى المستشفى هذه المدة الطويلة ، ويطلب منه أن يغادرها إلى « العنبر » بسرعة والا أخذه إلى

التأديب . . إلى الحمراء . . وقبل أن يتوارى « كساب » عن عينى « فريد » قال له :

– نسيت أن أخبرك بأن زملائك سيحاولون الحضور لزيارتك فى العصر ان شاء الله . .

* * *

ومضى « كساب » وترك « فريد » يفكر فى الطريقة التى يأخذ بها الخطاب ويذهب إلى مكان أمين حيث يفضه ويقرأه بهدوء ، وحتى لا يلمحه أحد من السجانين فينقلب سروره نكدا ، وفرحه غما ، ويجلب على نفسه متاعب لا قبل له بها . . وأخيرا استقر رأيه على الذهاب إلى دورة المياه . . صحيح انها مكان غير مناسب ومناف للذوق والأدب ، لكن ماذا يعمل ؟ . أنها ضرورة ، والضرورات تبيح المحظورات ، وهم « فريد » بأن يدس يده حيث وضع الخطاب لاستخراجه لكن نوبتجى المستشفى كان قد أ مرة ثانية ، وجلس بجواره ، وأخذ يحدثه فى السياسة ، ويعرج به على القضية الكبرى التى حوكم فيها ، وكان « فريد » لا يرتاح لحديث ذلك النوبتجى ، لأنه كان يبعث فى نفسه كثيرا من الندم والحسرة والألم . . وجلس الرجل وقال لفريد :

– كلما رأيتك تحسرت . .

– لماذا . . ؟

– كم شق على أن أرى فى مثلك أضاع مستقبله . .

وكان « فريد » يؤمن بمثل هذا الكلام بينه وبين نفسه ، بل كان يقوله « لبسطويسى » دائما ، فيؤدى بهم إلى النقاش العنيف ، والشجار بالأيدى ، لكن « فريد » كان يستحى أن يقبل مثل هذا الكلام من أى إنسان خارج عن دائرة زملائه ، ولا يستطيع التفوه به أمام غريب ، لهذا رد « فريد » على النوبتجى قائلا :

— صحيح أننا قد ألحقنا الضرر بمستقبلنا الشخصى ، لكن لا تنس أننا دعاة حق . .

— حق . . ؟ ليس فى الدنيا شيء اسمه الحق . .

— كيف تقول هذا الكلام . . ؟

— ما هو حق فى نظرك ، قد يكون لدى هو الباطل نفسه والعكس كذلك . . .

— لكن هناك أشياء تعارف الناس على قيمها وصحتها . .

فقال النوبتجي فى غضب :

— قلت لك ليس هناك شيء اسمه الحق فى دنيانا . .

— كلامك غير منطقى . .

فقال النوبتجي :

— أتعرف ما هو الحق الوحيد فى هذه الأرض . .

— ما هو . . ؟

— الموت . . ان الموت حق . . لكننا نكره الموت ، ونهرب منه ، ونجبن عند لقائه فأين إذن حبنا لهذا الحق . .

فحملق فيه « فريد » مندهشا ولم يدر بم يجيب هذا الرجل وعمم بينه وبين نفسه قائلا : « يبدو أنه إنسان غبى أو مجنون . . ويبدو أن إصابته بمرض السكر ، وبالزهرى من قبل ، وإصابته بالعقم الذى حرمه إنجاب الأطفال ، كل ذلك جعله ساخطا ثائرا ناقما على الحياة لا يعترف بقيم ، ولا يهتدى إلى مثل . . انه يأكل ويعيش ، ويتردد يائسا على الأطباء ، ولا يفكر إلا فى ذلك وكفى » .

وانتبه « فريد » على مصمصة الرجل وهو يقول :

— المساكين فعلا هم أهلوكم . . فقد قعلموا بالأحزان والأسقام . . لقد جلبتم لهم الآلام وتعب القلب ، وكدرتم عليهم عيشهم . .

وأراد « فريد » أن ينهى حديث الرجل بأى شكل كان .. لكنه تردد .. انه مرغم على أن يستمع إلى ما يكره ، ويقبل كثيرا مما يمجه ذوقه ، ويعافه سمعه ، ومضطر إلى أن يظهر الرضا لأشياء يمقتها بشدة ، ومضطر أيضا فى كثير من الأحيان إلى أن يضحك إذا قيلت نكات — فى حقيقتها — سخيفة مملة .. انه مسجون وعليه أن يترضى الجميع ، ويبش فى وجوههم حتى تنجلى الغمة ، ويأتى الفرج ..

وتململ الرجل النوبتجى فى مكانه ثم هم بالقيام فتنهد « فريد » قائلا :

— الحمد لله ..

لكن النوبتجى جال ببصره هنا وهناك عبر الفراش وقال :

— كنت آتيا لتفتيشك ...

وهنا شحب وجه « فريد » ولم يجب فاستطرد الرجل قائلا :

— لكن لا داعى لذلك ..

فعاد الدم يندفع إلى وجه « فريد » الشاحب ، واستمر الرجل فى قوله :

— لكن أرجو أن تعلم أن الخطابات ممنوعة .. المنشورات ممنوعة .. السجاير ممنوعة .. السكر .. الشاى .. شفرات الحلاقة .. و ... و . الخ كل هذه ممنوعات .. أرجو أن تأخذ بالك ..

فقال « فريد » وهو يتصنع الابتسام :

— ضع فى بطنك بطيخة صيفى .. ليس عندى شىء من ذلك .. وتستطيع أن تفتشنى فى أى وقت تشاء .. أنسيت أنى رجل قانون ، وأفهم اللوائح فهما دقيقا .. ؟

— أرجو ذلك ..

ومضى الرجل تاركا « فريد » الذى أخذ يتحسس الخطاب ليطمئن عليه وهو يغمز بإحدى عينيه ناحية النوبتجى :

– طظ فيك وفى القوانين ولوائح السجون وبلاوى السجون . .

• • •

وأقبل زملاء « فريد » لزيارته فى العصر ، وأمطروه بوابل من كلمات التقدير ، وأحاطوه بشتى مظاهر الرعاية والعناية ، ودعوا له بالشفاء العاجل والصحة القوية ، وقد انتشت نفسه بهذه العواطف الطيبة الجياشة التى تحوطه ، ونسى فى هذه الفترة المناقشات الحامية الوطيس التى كانت تنشب بينهم ونسى مشاجراته مع « بسطويسى » وغير « بسطويسى » . . لذلك كان « فريد » يبدو منشرح الصدر موفور الاطمئنان . .

قال « فرحات السروجى » :

– لشد ما أسفت على ما أصاب يدك يا « فريد » . .

– يجب أن نصبر . . أولسنا رجالا ؟ . .

– طبعا . . طبعا . . هذا هو العهد بك . .

فأطرق « فريد » قليلا ثم همس :

– أرجو أن تعفو عن حماقتى ، فإنى أعترف بتعكيرى لصفوكم فى كثير من الأوقات . .

– مرحبا بمضايقاتك وحماقاتك ، كم نتمنى أن تعود الينا بها . .

– أتقبلوننى على علاتى . . ؟

– نقبلك كما أنت ثائرا مشاغبا مجادلا . .

– هذا قد لا يرضى الشيخ « بسطويسى » . .

– فليضرب رأسه فى حائط . . نريدك أنت . . أن مشاغباتك لا غنى لنا عنها ، انها جزء من حياتنا فى السجن . . سنذكرها يوما ما ، وننظر اليها كذكرى عزيزة غابرة . .

فضحك « فريد » وقال :

– وهل ستنسى ما يفعله الشيخ بسطويسى . . ؟

– صدقت . . ان الشيخ « بسطويسى » لن ينسى أبدا . . لقد رزقنا

الله أمس بفطيرة . . ولقد استطاع « كساب » أن يهربها إلينا بمهارة . ولما جلسنا لأكلها وجدنا الشيخ « بسطويسى » قد أحاطها بذراعيه . . ولما استفسرنا منه وجدنا أنه ينوى توزيعها وتقسيمها بالقسطاس المستقيم حتى لا يظلم أحد ؟ ؟

وهنا تدخل « بسطويسى » قائلا :

— وماذا تظننى فاعلا . . ؟ أنتم كالغربان ، تعشقون الخطف ، وتحبون الفوضى . . لقد كنا فى الأزهر نقتسم أعواد الفجل ، وحبات الفول المدمس . . حقى وحقك . . لا تَظلمون ولا تُظلمون . .

وأخذ الأصدقاء يتصايحون ويتبادلون التعليقات والنكات التى ينصب أغلبها على الشيخ « بسطويسى » ، وحاول الشيخ أن يصرفهم عن ذلك فقال جادا :

— لقد ألفت قصيدة جديدة . . لكنها فى منتهى الروعة . .

فأجاب « فرحات » :

— أما مسألة الروعة أو عدمها فلتتركها لنا . . نحن الذين نحكم عليها . . لا تمدح نفسك كثيرا يا شيخ . .

فرد « بسطويسى » :

— صدقت . . انهم يقولون لا يمدح نفسه إلا الشيطان . .

فعلق « فريد » :

— إنك أكبر شيطان معمم . . ما أكثر شعرك وحكمك وفتياك . .

فتنهد « بسطويسى » متصنعا وقال :

— لو كنت فى أمة غير هذه الأمة لوضعوا على مفرق تاجا ، وأقاموا لى عرشا . .

فقال « فرحات » باسما :

— بل لجلدوك حتى تورمت منك الأقدام ، ولسقوك كأس الحنظل . . وجعلوا لك تاجا من البصل ، وعرشا من البرسيم . .

ثم تدخل « فريد » معلقا :

— بل لأقاموا له ضريحا وغطوه بالحرير والديباج ، وجاء اليه وفود العشاق من كل حدب وصوب . . الشيخ « بسطويسى » رجل جذاب ، ويخيل إلى أنه فى ضريحه ذاك يرمق الزائرات بنظرات زائغة ويحرك حاجبيه فى خبث ولؤم . . الأزهرى يموت ولكن يبقى لسانه وحاجبه وحز عمامته

وضجوا جميعا بالضحك بينما هتف « بسطويسى » قائلا :

— عدنا إلى العصبية . . دعوكم من هذا الهذر السخيف . . أتعرفون عنوان القصيدة الجديدة . ؟

فقال « فريد » :

— لا نريد أن نعرفها ولا أن نعرف عنوانها . .

— « فى الوادى الرهيب » . . ذلك هو عنوانها . .

— وماذا تعنى بالوادى الرهيب ؟ . .

— السجن . .

— ولماذا لا تقول « فى السجن » منذ البداية وتخلصنا ؟ . .

— الشعر له لغته الخاصة . .

— قل له معمياته ودهاليزه التى ليس فيها غير العتمة والرطوبة والروائح المنغصة . .

فقال « بسطويسى » فى غيظ :

— ما زلت جاهلا غبيا لا تقدر الفن . . ومع هذا فسأسمعك القصيدة

— اعمل معروفا واعتقنا لوجه الله . . الحقنا يا « فرحات » . .

فقال « فرحات » ضاحكا :

— أتوسل إليك يا « بسطويسى » أن تنقذهم من علقة الشعر هذه المرة . .

فلم يلتفت « بسطويسى » إليه وأخذ يترنم :

أنا فى كهفيَ الموصوم قد مزقت أكفانى
أغرد رغم أغلالى على أطلال أحزانى
وأهتف بالصباح الحلو فى عزم وإيمان
وقد أصبحت لا . . .

ودخل « نوبتجى » المستشفى فى عجلة وقال :

ـ أرجو أن تسرعوا بالعودة إلى العنبر . . المدير هنا . . هيا . . هيا :

فألقى الجميع على « فريد » سلاما خاطفا ، وأخذوا يتسللون من المستشفى إلى العنبر فى هدوء ووجل مخافة أن يراهم المدير ، مثقلين بقيودهم غارقين فى ارتباكهم وحيرتهم . .

الفصل العشرون

كانت « نهيرة » على وشك أن تنام ، بعد أن خلعت ملابسها وانطرحت فى اعياء على سريرها وهى تتنهد بأسف وحزن ، وما كادت تطمئن فى فراشها حتى فتح باب الحجرة ، ودلفت منه أمها بهدوء واتجهت صوب سرير ابنتها ، واتخذت مكانها بجوارها ، وجلست « نهيرة » فى فراشها وقد لمحت فى تعبيرات وجه أمها أشياء غامضة . . واعتصمت « نهيرة » بالصمت وأخذت ترهف حواسها لما ستقوله لها أمها

قالت الأم :

أرجو أن تكون حالتك أحسن من ذى قبل . .

الحمد لله . . أحسن ! . .

وحملقت الأم فى وجه وحيدتها وبقيت على هذه الحال لحظات ثم قالت :

— « نهيرة » ! . .

— نعم ! . .

— لندخل فى الموضوع مباشرة . .

— أى موضوع يا أمى ؟ . .

فلم تكترث أمها لتجاهلها ، وقالت فى صرامة وحدة :

— منذ متى و « فريد » فى السجن . . ؟

— حوالى عام . . لماذا . . ؟

— عام . . ما أكثر ما حدث فى هذا العام . . أهم شىء أن أباك قد دهاه مرض الضغط حتى ألزمه الفراش . .

وشعرت « نهيرة » بالمرارة لما حدث لأبيها ، لكنها كانت تحس بأن

هناك شيئاً آخر تود أمها أن تقوله ، ولم يطل انتظارها . .
ــ أقول ان أباك قد تضاعف مرضه . .
ــ الشفاء من الله . .
ــ مفهوم . . لكن أريد أن أقول انه فى خلال هذا العام لم تبدر أدنى بادرة تنبئ عن حل لمشكلة « فريد » وزملائه . . وذوو الخبرة يؤكدون أن أمر الافراج عنهم بعيد الاحتمال جدا ، لأن قضيتهم تتعلق بالملك مباشرة . . والملك ذاته مصونة لا تمس . . ومن يتعرض له لا يجد من يأخذ بيده . . أتدركين ما أقول . . ؟
ــ أرجو أن توضحى أكثر . . .
ــ ليكن . . لتفهمى أن « فريد » سيقضى مدته . . ومعنى ذلك ضياع مستقبله ، وأبوك على وشك أن يفقد وظيفته . . أعنى أنه لم يعد لدينا أمل . .
ــ ان الأمل ما زال يترعرع فى قلبى بالنسبة « لفريد » . .
ــ لأنك مجنونة عمياء ، لا ترين إلا الخيال والسراب الكاذب . .
ــ كيف تقولين هذا الكلام يا أمى . . ؟
ــ لم أعد أحتمل أكثر من ذلك . .
ــ تحتملين ماذا . . ؟
ــ بقاءك هكذا . . وكذلك أبوك لا يقبل مثل هذا الوضع . .
ــ وماذا بيدى كى أتصرف فى أمرى ؟ . .
ــ تستطيعين أن تفتحى عينيك على الحقيقة ، وتتصرفى كامرأة عاقلة واعية . .
ــ قولى أنت كيف أتصرف . . ؟
ــ تتزوجين « عبد الوحمن أفندى » ! . .
ــ إيه ؟ ؟ مستحيل . . . أنا زوجة « فريد » وأنت تعلمين ذلك . .
فقالت الأم فى جد واصرار :

— كان هذا فيما مضى . . أما الآن فالوضع قد تغير . . ويجب أن نجارى الأيام ، ونساير الأحداث . .

فانطلقت « نهيرة » فى صياح وبكاء :

— أجل . . يجب أن نقسو ونخون وندوس كرامتنا . . أنسيت أنى لم أعد عذراء . . ؟

— هذا أمر لم يفتنى . . لقد سويته مع عبد الرحمن أفندى ، وهو على استعداد لقبولك كما أنت . . بل على استعداد لما هو أكثر من ذلك . . مريه بما تشائين . .

فهبت « نهيرة » من فراشها مذعورة وكأنما قد لدغتها حية ، ووقفت فى وسط الحجرة وقد ارتسمت الدهشة والفزع فى عينيها وهتفت :

— كيف تقولين هذا الكلام ؟ . . اننى زوجة « فريد » . . أنا حرة فى مستقبلى . . سأستجدى الناس . . سأنام فى الشارع . . سأعمل خادمة ، وسأنتظره . . ارحمونى . . اتركونى بحالى . . ماذا تريدون منى . . ؟ أتودون قتلى ؟ . . أنا لست متاعا يباع ويشترى . .

وكفت « نهيرة » عن صياحها وثورتها عند ما رأت الشحوب يكسو وجه أمها ، والدموع تنحدر فى صمت على خديها ، فاقتربت منها وقد استردت هدوءها ورباطة جأشها . . وهمست « نهيرة » :

— أتبكين يا أمى ؟ . . هل أغضبتك . . ؟ إننى أحبه ، ولا أستطيع تحويل قلبى عنه . .

— كلا يا ابنتى لم تغضبينى . . اننى أقدر حرج موقفك ، ونبل عواطفك . . فأنا أبكى من أجلك أنت . . لكن . .

— لكن ماذا . . ؟

— اننا يا حبيبتى قد تدفعنا الظروف إلى مخالفة هوانا وطباعنا . .

— كيف . . ؟

ـــ تلك هى الحياة . . وستعلمين ذلك عند ما تكبرين . . إنك مرتبطة بأبيك . . أليس كذلك ؟ . .
ـــ طبعا . .
ـــ وأبوك يرى أن تتزوجى من « عبد الرحمن » من أجل مستقبلك أولا ومن أجل أبيك ثانيا . . ثم انه شاب لا بأس به . .

وكانت « نهيرة » تدرك تناقص موارد أبيها ، وكثرة نفقاته بعد أن انتابه المرض ، وتدرك أيضا مدى التضحيات التى يبذلها عبد الرحمن أفندى من أجله ، ومسارعته بتقديم كل ما يطلب منه عن طيب خاطر

وهمست الأم قائلة :
ـــ هل أنت ملمة بحقيقة وضعنا . . ؟
ـــ أدركها الآن أكثر من أى وقت مضى . .
ـــ وهل ستتصرفين على ضوء هذه الحقيقة . . ؟
ـــ أستطيع أن أضحى بأى شىء فى سبيل رضاكم إلا « فريد » . .
ـــ كيف . . ؟
ـــ سأنتظره . . انه زوجى . .
ـــ وعبد الرحمن أفندى . . ؟
ـــ الله يسهل له . .
ـــ وأبوك . . ؟
ـــ وأبى . . ؟
ـــ أجل . . انه فى كفة و « فريد » فى كفة ، ولم نسمع أن فتاة فى شرشابة قد حكمت على أبيها بالموت والحسرة من قبل . . أتودين أن تكونى هذه الفتاة أيتها الحمقاء المتيمة . . ؟ تكلمى . . أتريدين أن أرقد بجوار أبيك حتى تبقى أنت تنعمين بالأمل ، وتحيين فى السراب انتظارا للحبيب ؟ . . تكلمى يا فاجرة . .

وألقت « نهيرة » بنفسها على سريرها وقد أجهشت بالبكاء ، فوقفت

أمها حائرة أمام دموعها ، ولم تملك إلا الصمت لبضع دقائق ، ثم اقتربت منها وأخذت تربت على رأسها فى حنان ..

— خففى عن نفسك يا ابنتى .. واتركى الأمر لله ..

— ألم تحرضينى على الزواج منه يا أمى .. ؟ ألم تملئى رأسي وقلبي بحبه ، وتكيلى له المدح والثناء .. ؟ ألم تحاولى المستحيل حتى يأتى ليخطبنى .. ؟

— لا أنكر ذلك يا ابنتى ..

— ففيم تحريضك لى على الانسلاخ منه ، والتضحية بحبى .. ؟

— كل ذلك من أجل مصلحتك ..

— مصلحتى فى أن أتصرف كيف أشاء .. أتصرف بوحى قلبي وعواطفى ..

— نحى عواطفك اليوم ، واتركى الفرصة لعقلك كى يفكر ..

— إنك تحملينى فوق طاقتى ، وتجعلين من حياتى ليلا طويلا كئيبا حزينا ..

— هذا وهم يا عزيزتى .. عبد الرحمن أفندى شاب طيب .. مكتمل الرجولة موفور الرزق ، ستجدين فى ظله كل ما تنشده المرأة من سعادة وراحة وحماية .. أنا أعلم ان هذا صعب عليك ، وقد تقاسين منه كثيرا ، لكن لا تنسى تأثير الزمن ، إذ سرعان ما تلتئم جراحك ، وتصفو نفسك من أكدارها ..

— وذلك الذى يرقد على برشه ويحمل الأحجار ، ويحيى مثقلا بالقيود ، ويكن لى فى قلبه أسمى عاطفة ، وأعظم تقدير ؟ ..

— لن ينساه الله .. لتدعى له بالتوفيق والفرج .. ان حبى « لفريد » قد لا يقل عن حبك له ، لكن ما الحيلة .. ؟

وشردت « نهيرة » بعينيها المخضلتين بالدموع ..

كانت تجتاز محنة قاسية ، تعصف بها الحيرة ، ويهزها الماضى

بذكراه وتنبهها الأفكار المختلطة المتصارعة ، وفى مخيلتها صورة أبيها المسجى على فراشه ، وهو يشفق من الموت الذى قد يباغته بين آونة وأخرى ، وصورة « فريد » ، صاحب الإصبع المبتورة ، والذكريات الحلوة ، والحب الذى لا يتزعزع ، وصورة « عبد الرحمن أفندى » الذى يتمسح بأعتابها ويبالغ فى استرضائها ، ويبدى استعداده لتقديم أى تضحية — مهما غلت — من أجلها ، وصورة « الحلوانى » البائس المذهول الذى يستحق الرثاء والعطف وزوجته الباكية الحزينة ، فدارت رأس « نهيرة » وشعرت بالخيالات تختلط فى مخها المتعب المكدود ، والصور تتلاقى وتغوص فى غبار من الشك والحسرة والهوان . .

وهمست الأم فى حنان :

— « نهيرة » ! . .

— . . . . . .

— « نهيرة » ! . . لم لا تردين على يا ابنتى . . ؟

— . . . . . .

واقتربت الأم من ابنتها وهمست :

— هل نمت يا حبيبتى . . ؟

وسحبت الأم على ابنتها الغطاء ، ثم طبعت على جبينها قبلة عميقة مخلصة ، وتركتها واتجهت ناحية المصباح كى تطفئه ، لكنها لمحت زوجها يفتح باب الحجرة بهدوء ثم يدلف بخطواته الثقيلة وهو يتوكأ على عصاه، فخفت اليه تستقبله فى دهشة وهمست :

— ماذا جاء بك . . ؟ كيف تركت الفراش . . ؟ ألم يقل لك الطبيب لا تتعب نفسك وتتحرك من مكانك ؟ ..

فهمس فى تثاقل :

— لا بأس .. كل المسألة خطوتين أو ثلاثة .. ماذا يبكى « نهيرة » ..؟

فأطرقت الأم برأسها وقالت :

— لا شيء . . .
— أتخفين عني ما يدور . . ؟
— أبداً . . لكن . .
— لكن ماذا . . ؟ هل نامت « نهيرة » . . ؟
— أجل من دقائق . .
— اذن فاتركيها وهيا بنا ! . .

الفصل الواحد والعشرون

كان لطول المدة التي قضاها « فرحات » واخوانه في السجن أثر ملحوظ بالنسبة للمعاملة التي يعاملون بها ، فاكتسبوا وضعا مريحا نوعا ما وقرر الطبيب ألا يخرج « فريد » إلى الجبل مرة ثانية وأن يهيء له المسؤولون عن التصنيع عملا داخل السجن نظرا لبتر إصبعه ، وقد سر « فريد » كثيرا في بداية الأمر ؛ إذ تاب الله عليه من الطابور الطويل الذي يزحف إلى الجبل كل يوم في موكب ذليل حزين ، كما أفلت من حمل الأحجار الثقيلة ، لكنه بمرور الزمن ضاق ذرعا بالوحدة أثناء النهار ، كما برم بحجزه داخل السجن ، فقد كان — رغم المشقة التي يلاقيها في الجبل — يستمتع بالشمس والهواء وشتى المناظر المختلفة التي تقع عليها عيناه وهو في طريقه إلى هناك ، لكن « فريد » لم يفكر في هذا الأمر كثيرا لأنه قد تيقن أن أي وضع في السجن مهما كان قاسيا مملا ، فان مرور الزمن وتوالي الأيام سيجعله في حكم العادة المألوفة فيتبخر سأمه ويزول ضيقه رويدا رويدا . .

وكان « فرحات السروجي » — لكونه ضابطا سابقا في الجيش — موضع عطف من ضباط السجن وباقي السجانين ، فبعد أن مرت الأيام الأولى الحرجة ، أصبح موضع احترامهم وتقديرهم ، وأخذوا ينظرون إليه بعين أخرى غير العين التي كانوا ينظرون بها إليه فيما قبل ، لكنهم لم ينسوا أنه مسجون على أية حال . .

وقد أتاحت الظروف « لفريد » — لبقائه داخل السجن — أن يلم بكثير من الأنباء السياسية وغير السياسية : الداخلية منها والخارجية ، وكان شوقه لهذه الأخبار لا يضارع ، وجريه وراءها لا يشابه . وعادة

السجون أنه إذا ما ورد خبر إليها لمناسبة من المناسبات ، أو انتقلت إليها شائعة تتعلق بمصيرهم انتشرت فى سرعة البرق ، ولفت فى كل أنحاء السجن ، فلم يكن أمام « فريد » إلا أن يتحقق من مختلف الشائعات بين ساعة وأخرى ، ولم يكن ينتابه اليأس رغم ثبوت كذب كل الأنباء التى تتحدث عن العفو عنهم . .

* * *

وكان « فرحات السروجى » كثير التردد على مكاتب الضباط فى السجن ، لأنهم كانوا يشعرون نحوه كما أسلفنا بشعور الزمالة والعطف ، وحينما ذهب إلى هناك يوم الجمعة ، لم يبق معهم كثيرا من الوقت كالمعتاد بل سارع بالعودة إلى العنبر ، وبدا على وجه « فرحات » شىء غير قليل من الضيق والاكفهرار ، كان يضغط بأسنانه ويهرول فى خطوات حانقة متمردة ، بل كان الدمع يوشك أن ينهمر من عينيه . .

ترى ماذا جرى « لفرحات » ؟ . .

إن العهد به لا يهتز أمام العواصف ، ولا يهن أمام الشدائد ، بل يرفع رأسه فى اصرار وإباء وشجاعة . . كثيرا ما ذهب إلى « الحمراء » حيث تكون مقطوعية الجبل مضاعفة ، وحيث الارهاق فى المأكل والملبس والنوم . . لكنه كان يصبر ويبدى عدم الاكتراث . .

وكثيرا ما كانوا يحلقون شعر رأسه بماكينة « زيرو » . . وهذه الصورة غالبا ما تضايق السجين ، فيحس بآلام نفسية شديدة ، ويشعر بالهوان والحقارة أمام التشويه الذى يصيبه ، والمسخ الذى يبدو عليه . . غير أن « فرحات » كان يتمالك نفسه ولا يبدى أقل تذمر ، لأنه كان يشعر بأنه أكبر من هذه الصغائر ويجب ألا تؤثر فيه هذه المضايقات . . وهل ينسى « فرحات » وقوفه فى الحمام عاريا عريا تاما . . ؟ ؟

وهل يتجاهل ما كان يحدث بين زملائه من خلافات شديدة ، وجدال صاخب كان يتطور إلى استعمال الأيدى والأرجل والسباب . . ؟

إن « فرحات » يذكر كل هذا ، وكان ينظر اليه فى صبر الرجل الكبير الواثق ، صاحب الهدف الكبير ، والغاية العظمى . .

فما الذى حدث حتى يخرج عن عادته من الشدة والصلابة ، وينقلب ضائقا مكفهرا يكاد الدمع أن يهمى من عينيه . . ؟

لا بد أن شيئاً خطيرا قد أكرب « فرحات » . .

لكن هل بعد السجن ومآسيه نجد كربا أو غما . . ؟

ومضى « فرحات » على حالته تلك حتى وصل باب العنبر ، ثم صعد السلم وقد أثقل الحزن فؤاده ، ثم اندفع ناحية الزنزانة ، لكنه قبل أن يدخلها رأى « كساب » مقبلا نحوه :

— صباح الخير يا « فرحات بك » . .

— صباح النور . .

وتفرس « كساب » فى وجهه وقال بقلق :

— أراك على غير طبيعتك . . خير ان شاء الله . .

قال « فرحات » باقتضاب :

— لا شىء

واحتار كساب ولم يدر ماذا يقول ، لكنه تذكر شيئاً معه قد يهم « فرحات » فهمس :

— معى سجاير . . ألك رغبة . . ؟

— هات . .

وسارع « كساب » باخراجها ، وهو يتلفت ذات اليمين وذات الشمال حيطة وحذرا وقال وهو يقدمها إليه :

— لم أرك على مثل هذه الصورة فى أى وقت مضى . .

فأخذ « فرحات » السجاير واندفع إلى الزنزانة دون أن يجيب عليه بشىء . .

وتفحص « فرحات » وجوه الجالسين فى الزنزانة :

ــ أين « فريد » . . ؟
فرد « بسطويسى » :
ــ خرج . . ولعله ذهب إلى العنبر الثانى لزيارة بعض أصدقائه . .
وأطرق « فرحات » ، ثم قصد إلى مكانه حيث البرش وقد فرشت عليه البطانية ، وجلس فى صمت وحيرة لم تخف على باقى الزملاء . .
ولم يتباطأ الشيخ « بسطويسى » فى الذهاب إليه والجلوس بجواره وقال مداعبا :
ــ مالك هكذا . . بالع ترس . . ؟
ولم يجب « فرحات » . . ولما لم يجد « بسطويسى » منه استجابة للهذر والمداعبة قال :
ــ ماذا وراءك . . ؟ أجد جديد . . ؟
ــ أجل . .
ــ قل ولا تخف شيئاً . .
ــ شىء محزن حقا . .
ــ ماذا تقصد . . ؟
ــ كنت وما زلت أؤكد أن الزواج أو التفكير فى الزواج بالنسبة لنا لعنة . .
ــ وماذا فى ذلك . . ؟
ــ انه « فريد الحلوانى » . . لست أدرى كيف سيتلقى الخبر . . ماذا سيكون وقعه عليه ؟ انه لا يستطيع أن يتحمل كارثة أخرى . .
ــ أخبرنى بسرعة . .
ــ أخبرنى الضابط « النوبتجى » اليوم بأن والد « نهيرة » قد أرسل إلى مدير الليمان خطابا يطلب منه موافقة « فريد » على طلاق « نهيرة » . .
فقال « بسطويسى » مندهشا :
ــ الطلاق . . ؟

— أجل .. لن يحتمل « فريد » الصدمة ..

— لكنى أعلم أن « نهيرة » تحب « فريدا » ، وتنتهز كل فرصة وتؤكد له حبها ، فهل حدث ما بدل حالها ، فنكثت عهودها ، وتنكرت لحبها .. ؟

— لا أدرى عن ذلك شيئاً ..

— انها كارثة يا « فرحات » ..

— لست أعلم كيف نلقى بالنبأ إلى « فريد » ..

— لعنة الله على النساء ، رأس كل بلية ، وأصل كل خطيئة ..

— هذا لا يهمنا الآن يا « بسطويسى » .. لكن المهم هو « فريد » .. انه كان يثق فيها ثقة عمياء ويعيش على أمل أن يلقاها سواء أطالت فترة السجن أم قصرت .. انها واحته التى يحلم بها بعد أن أضناه المسير فى صحراء الضجر والألم ..

— صدقت .. و « فريد » قد تصالحت عليه الآلام .. لو كان « فريد » رجلا حقا لما اهتز لهذا النبأ ولا بالغ فى جزعه .. لكنه ضعيف وعاطفى .. أنت السبب يا « فرحات » ؟ كثيرا ما قلت لك فى الخارج ان حماس « فريد » ووطنيته لا تستند على أساس متين من المعرفة واليقين .. لكنك تخدعك المظاهر ..

— ما أحمقك يا « بسطويسى » .. نحن هنا الآن ، دعك من الماضى ، ماذا يجدى الكلام فيما تثيره من موضوعات ؟ .. المهم كيف نتصرف الآن .. ؟ ؟

وطأطأ « بسطويسى » رأسه وتمتم :

— أجل ، كيف نتصرف الآن .. ؟ هذه هى المشكلة ..

— يخيل لى أن الأقدار تتآمر ضدنا ..

وفى هذه اللحظة دخل « فريد الحلوانى » وهو يبتسم فى مرح ، وكان

قد سمع « فرحات السروجى » وهو يقول : « يخيل إلى أن الأقدار تتآمر ضدنا » فقال « فريد » :

— لا يا « فرحات » .. هذا وهم ، فالأقدار قد ابتسمت اليوم لنا وأبدت نواجذها .. أما سمعتم أنباء اليوم .. ؟

واتجه الزملاء بنظراتهم الزائغة نحو « فريد » ، وأطبق عليهم الصمت فدار « فريد » بعينيه بينهم وقال :

— مالكم واجمون هكذا .. ؟ انى أحمل اليكم أنباء عظيمة جدا ..

— .....

— أزمة وزارية ستطيح بالوزارة بين آونة وأخرى .. وليس هذا فحسب بل ان مجلة المصور وكثيرا من الصحف والمجلات قد طالبت وألحت فى الطلب بالافراج عنا سريعا .. وطلبة الجامعة عقدوا مؤتمرا فى الأسبوع الماضى وهتفوا بعبارات عدائية ضد الملك والحكومة وطالبوا بالحريات العامة .. فما رأيك فى هذه الأخبار التى مثل الورد .. ؟

وأخذته نوبة من السعادة والسرور ، وغرق فى نشوة من الأمل العذب ، فجذب « بسطويسى » من ذراعه قائلا :

— قم يا « بسطويسى » لنرقص عشرة .. عشرة بلدى .. أحب البلدى .. على فكرة يا « بسطويسى » .. يجب أن تكتب قصيدة جديدة بعنوان « سأعود » .. وأعدك بأنى سأقرؤها .. بل سأحفظها ..

وانتبه « فريد » من نشوته وحملق فى وجوه الجالسين فى استغراب وقال :

— ما سر صمتكم وجمودكم ؟ .. انكم تقبعون كالأحجار ..

— ولما لم يجب عليه أحد منهم خمن « فريد » أنه لا بد قد حدث بينهم من النقاش والشجار ما سبب لهم هذا الظل الثقيل من الصمت والوجوم .. وسكت « فريد » لبضع دقائق ، لكنه ضاق ذرعا بهذا

السكون فلم يستطع الصبر ، فاقترب من « بسطويسى » وجلس بجواره وقال :

– طمئنّى يا « بسطويسى » ، أهناك ما كدر صفوكم . . ؟

– لا شيء . .

– إذن ما معنى ذلك . . ؟ تكلم ! . .

وهم « فريد » بأن يقبض على ذراع « بسطويسى » ليرغمه على الكلام لكن تناهى إلى سمعه تلك الصيحة التقليدية « انتباه » التى يهتف بها سجان بوابة العنبر كلما أقبل الضابط للمرور أو التفتيش ، وكانت هذه الصيحة نذيرا بالشر المتوقع ، مما يغرق المذنبين دائما فى الحيرة والارتباك ، فيسارع كل منهم بتخبئة كل ما معه من ممنوعات ، مخافة التأديب والعمل المضاعف . . .

وبعد فترة وجيزة صاح جاويش الدور بصوت أجش :

– « فريد الحلوانى » . .

– أفندم . .

– اجر . . كلم حضرة الضابط . .

وما هى إلا لحظات حتى كان « فريد » يقف أمام الضابط ، وقلبه يخفق خفقات متلاحقة سريعة ، ووجهه شاحب ، وذهنه مرتبك حائر .

وترك « فريد » الزنزانة لينقلب هدوؤها ووجومها إلى ثورة ونقاش حاد . . .

قال « بسطويسى » فى إصرار :

– لم لم تتكلم يا « فرحات » . . ؟ سأخبره أنا بالحقيقة . .

– لا تفجعه هكذا دفعة واحدة . .

– انى أكره هذا الضعف والتردد . . انتهى الأمر ، يستطيع أن يجد بدلا من « نهيرة » عشرة خيرا منها . . من المخجل حقا أن ينهار من أجل امرأة مخادعة لم تحفظ كلمتها معه . .

ـ لتسكت أنت . : واترك لى الأمر يا « بسطويسى » أرجوك . .

ـ قلت لن أسكت . . لقد ضحينا بمستقبلنا ، وعرضنا أنفسنا للموت ، وتركنا لأهلينا من خلفنا كثيرا من المتاعب ، ومع ذلك صبرنا وتحملنا ، أفنأتى بعد ذلك ونتهاوى من أجل امرأة ؟ . . يا للعار !

ـ انك تنظر لهذه الأمور نظرة جامدة ، وتفكر فيها تفكيرا عابرا ، ومع ذلك تزعم أنك شاعر . . أمرك غريب . . يا حبذا لو تركت المسألة لى . .

ـ أريد أن أعلم ، ماذا سيحدث إذا ما واجهناه بالحقيقة دفعة واحدة ، هل سيموت ؟ ؟

ـ كن عاقلا ، واهدأ . .

ـ سيتأثر قليلا . . ولو تمادى فى تأثره لبكى بضع دمعات ، وان كان البكاء فى نظرى عيبا كبيرا ينقص من الرجولة ، وبعد ذلك ينتهى الأمر . .

ـ هذا ظنك . .

ـ بل هو الحقيقة ، انكم تخلقون من الحبة قبة . .

وقطع المناقشة مجىء « فريد » . .

وكان « بسطويسى » متحفزا لأن يلقى فى وجهه بالحقيقة . .

لكن « فريد » عاد بخطوات وانية مكتئبة ، كان يمشى وكأنه يسير فى جنازة ويشيع عزيزا إلى مقره الأخير ، ودخل الزنزانة دون أن يشعر أو يرى شيئا مما حوله ، وقصد « برشه » وعيناه قد غامتا بالدموع التى تأبى أن تنهمر ، وطوفان من الأفكار والصور يمسك بتلابيبه ، ويعصف بذهنه ، ولم يكن من الصعب ادراك ما حدث ، وقال « فرحات » موجها الحديث له ـ وهو يحاول أن يتماسك :

ـ هل أطلعك الضابط على الخطاب . . ؟

ـ أجل ! . .

— تشجع يا « فريد » . .

وانفجر « فريد » باكيا ، فأسرع اليه « فرحات » يربت على رأسه ويهدئه ، بينما نفر « بسطويسى » وقال غاضبا :

— انظروا . . انه يبكى من أجل امرأة . . افترض أنها ماتت أيها الغبى . .

وأسرع أحد الزملاء ليضع كفه على فم « بسطويسى » حتى لا يستطرد فى إلقاء عباراته الخانقة . . .

الفصل الثاني والعشرون

مر على طلاق « نهيرة » ما يقرب من شهرين ، وكانت هذه الفترة تمر عليها وكأنها فى حلم موحش رهيب لا تكاد تفيق منه إلا لتسفح الدموع الغزار ، وترسل التنهدات الحارة ، فهى لا تصدق أنها تركت « فريد » إلى الأبد ، ولا تتصور أن الأقدار قد بلغت من القسوة بحيث تريق آمالها ، وتدعها جريحة القلب ، مثقلة الروح ، لقد كانت تشعر من قبل بالفخر يملأ جوانحها ، وبالسعادة تغمرها من قمة الرأس إلى القدم لأنها تشارك « فريد » فى محنته ، وتحمل معه جزءا من عبء الكفاح الثقيل ، ولم يخف عليها تطورها الغريب أثناء تلك الأيام الخالية ، لقد انقلبت من فتاة لاهية — لا تعبأ إلا بالزوج الثرى أو الناجح الذى يحقق لها كل رغباتها — إلى فتاة واعية كبيرة القلب ، تؤمن بأن هناك ما هو فوق الثراء أو النجاح المادى ذى المظهر الخلاب . . أجل ، لقد خلقت آنذاك خلقا جديدا ، وقد يكون سر هذا الانقلاب هو الحب وما يضفيه عليها من معان وأحاسيس ، وقد يكون سره أيضا تلك الأحداث الصاخبة التى تعرضت لها منذ علاقتها « بفريد » ، والأحداث تنضج المشاعر وتشكل حياة الإنسان وقد تنقلها إلى النقيض . ورغم الصدمة القاسية التى تلقتها « نهيرة » بعد الحكم على « فريد » ، ورغم شماتة الشامتين ، وعذل العاذلين ، وغضب أمها ، ومرض أبيها ، رغم كل هذا فقد كانت تشعر بسعادة داخلية ، وقد يكون فى الصبر على الألم ، ومقاساة الحرمان ، والارتطام بالمصائب ما يخلق فى القلب أنفة وعزة ، وارادة متمردة عنيدة ، تثبت ولا تهتز ، وتتلقى اللطمات فلا تتهاوى . .

وفجأة تنظر « نهيرة » إلى نفسها ، فتجد أن « فريدا » لم يعد زوجها ،

وأن شعورها بأنها صابرة ومتحملة لجزء من المحنة قد حقره الواقع المر الأليم . . ، وأن عبد الرحمن أفندى الذى لم تكن تحس نحوه بعاطفة حية متقدة قد فرض عليها فرضا ، وأصبح لا مفر من أن تعيش معه تحت سقف واحد . وتشاركه المأكل والمشرب والفراش طول الحياة . . أهى تكره « عبد الرحمن أفندى » . . ؟ وماذا أجرم حتى يصيبه منها هذا الكره . . ؟ ان أبشع جريمة فى نظرها هى أنه قد طمع فى الزواج منها وهو يعلم أنها « لفريد » قلبا وقالبا . . لكن « نهيرة » لا تنسى فى الوقت نفسه محاولات « عبد الرحمن » المتكررة ومناوراته الصبيانية التى كان يقوم بها حينما خطبها « فريد » منذ عام ونصف تقريبا ، فقد نثر حولها الشائعات ، وروج الأكاذيب . . لكنها حينذاك كانت تنظر لهذه الأفاعيل فى ترفع وازدراء ما دامت مطمئنه لطهارة ذيلها . واثقة من نظافة سلوكها ، مالئة يدها وقلبها من حب « فريد » وتقديره لها ولعواطفها . .

لكن ما الذى كان يدفع « عبد الرحمن أفندى » لهذه التصرفات . . ؟

شىء واحد ؛ هو أنه كان يحبها بكل جوارحه ، لذلك أكلت الغيرة قلبه ، فاتسمت تصرفاته بالاضطراب والارتباك والضعة ، مما أدى به آخر الأمر أن يفكر جديا فى الانتقال من شرشابه إلى أى مكان آخر ، بعد أن يئس من حبه ، حتى ينسى « نهيرة » ، وينسى كل ما حولها . .

انه — لا جدال ولا مراء فى ذلك — كان يحبها . .

وكانت هى لا تبادله هذا الحب الجارف ، ثم جاءت محنة مرض أبيها ، فسارع « عبد الرحمن » ببذل العون ، وأخذ يقدم شتى ألوان التضحية ، ويعرض خدماته فى تواضع واشفاق واخلاص واضح ..

° ° °

وجلست « نهيرة » بجوار والدها الراقد فى فراشه . .

وكان الرجل يبدو عليه سيما الانشراح والهدوء والرضا ، حتى أنه كان يتكلم بانطلاق ، ويأكل بشهية ، ويتحرك فى سهولة وخفة أكثر من

ذى قبل . ولاحظت « نهيرة » ما طرأ على والدها بعين الراحة فقد كانت تدرك أن منبع هذا التغير الذى شمل والدها راجع إليها أولا وأخيرا ، وكان ذلك خير عزاء لها فى تلك العواصف القاسية التى تلفحها . .

إنها رغم ما حدث ما زالت تسير على الطريق النبيل الذى اختطته لنفسها ، طريق التضحية والصبر والوفاء ، وليس فيما حدث شىء من التناقض . . بالأمس كانت تضحى بالكثير من أجل « فريد » ، واليوم تضحى « بفريد » — وهو أعز ما تملك — من أجل أبيها وراحة أبيها . . ما زالت هى هى المضحية الصابرة . ما زالت تتقلب فى دنيا الآلام والأحزان والدموع . .

وتلفت الرجل المريض إلى وحيدته فى حب وحنين وهمس :

— غدا يوم المنى يا « نهيرة » . .

وأطرقت فى صمت ولم تجب ، بينما استطرد الرجل قائلا :

— كلما تذكرت أنك فى الغد ستذهبين إلى بيت الزوجية ، أشعر شعورا حلوا جميلا . لأنى أحس فى نفس الوقت أنى قد قمت بأضخم مهمة فى حياتى . .

— حفظك الله يا أبى . .

— أجل يا ابنتى . . انى ما كابدت وكافحت تلك السنين الغابرة إلا لأهيىء لك الزوج الذى أطمئن اليه ، وأضمن لك الحياة التى تسعدك . .

وكانت « نهيرة » على وشك أن تجيب أباها قائلة : « ومن أدراك أن « عبد الرحمن » هو الزوج الذى أطمئن اليه ؟ ومن أدراك أنى سأحظى بالسعادة مستقبلا . . ؟ ؟ لا أنت ولا أنا ولا أحد غيرنا يا أبى يستطيع أن يقرأ سطور الغيب فيعلم مواقع السعادة ، ومواطن الشقاء .. ليتنا نعرف يا أبى إذن لوفرنا على أنفسنا الكثير .. » . هذا ما كان يعتمل فى نفس « نهيرة » ، ويخفق به قلبها ، لكنها لم تستطع أن تتلفظ به أو حتى يبدو على ملامحها ، لأنه لا فائدة من ذلك ، فغدا يوم زواجها ، وستلتقى مع

عبد الرحمن . . أجل لقد دزجت أخيرا على الكتمان وكبت عواطفها ، فلا يجب عليها أن تخرج على هذه القاعدة أو تنحرف عنها قيد أنملة وخاصة أن الشوط قد بلغ غايته ، ولم يبق إلا الليلة . . الليلة فقط . . ساعات معدودة وبعدها تبدأ حياة جديدة . .

وأخرجها الرجل من خواطرها حين قال :

— إني مطمئن « لعبد الرحمن أفندى » وواثق فيه تمام الوثوق ، وهذا ما يجعلنى — إذا ما ودعت الحياة — أشعر أنك فى كنف من يحميك ويسعدك . .

— لك العمر الطويل يا أبى . . أنت مصدر سعادتى وهنائى . .

— يا ابنتى ان قلبى راض عنك . . ورضا الأب من رضا الرب . . لهذا لن يخذلك الله أبداً . .

— دعاؤك خير ذخيرة لى . .

وتمدد الرجل فى فراشه ، وافتر ثغره عن ابتسامة آملة وقال :

— أبوك طماع يا « نهيرة » . .

— لم يا أبتى . . ؟

— طماع جدا . .

— كيف . . ؟

— ان لى أملا ما زال يداعبنى دائما . . وأرجو ألا يحرمنى الله منه . .

— حقق الله كل ما تصبوا إليه . .

— أتدرين ما هو ؟

— يسرنى أن أعرف

— كم أتمنى أن أكون جدا . . أريد أن أرى حفيدى وأحمله بين ذراعى ، وأقبله فى كل قطعة من جسمه ، ألا تعتقدين أنه إذا كان للإنسان حفيد ، فان ذلك يكون شيئاً جميلا حقا ؟ ؟ أظن أنه فى غاية الامتاع . .

– « طبعا يا أبى ..
وقهقه أبوها وهو يقول :
– البركة فيك .. إذا كنت تحبين أباك حقا فيجب ألا تحرميه هذه الأمنية الغالية .
فطأطأت « نهيرة » رأسها خجلا ، وتركت أباها يقهقه مسروراً ، ثم شرد ذهنها إلى تصور ما يحلم به أبوها . هل ستنجب طفلا ؟ وهل سيكون ذلك الطفل ابنا « لعبد الرحمن أفندى » ؟ ؟ أهذا ممكن ؟ يا لتصاريف القدر ! !
وقبل أن تقوم « نهيرة » كى تذهب إلى فراشها ، قال أبوها وفى كلماته رنة الجد والحزم :
– أرجو أن يقول الناس غدا ، إن « نهيرة » كانت مثال العروس اللطيفة .. هه ؟.. يجب أن تكونى ابنتى .. ابنتى أنا .. وأنت تفهمين ما أرمى إليه .
فقالت « نهيرة » وقد أطرقت فى أسى مكبوت لا تستطيع الجهر به :
– إن شاء الله ..
– ودعينى أصارحك وأصدقك القول كعهدك بى دائماً .. الماضى .. »
قالها الرجل وهو يركز بصره فى ابنته ، وقد ارتسمت على وجهه علامة الاهتمام ، ثم استطرد فى حديثه بعد لحظة صمت :
– وأظنك تفهمين .. »
– أجل ..
– يجب أن تسدلى عليه ستاراً كثيفاً .. لتبدئى من اليوم ، إن كثيراً من الذكريات يجلب الحسرة ، ولندع الندم لأنه قد يولد اليأس ، ومقت الحياة ، ثم إن الحياة يا ابنتى لم تخلق لكى نتعلق فيها بالأوهام ، ونثير فيها الأحزان ... كثير من الأشياء يجب أن ننساه ، وإذا لم نستطع فلنرغم أنفسنا على ذلك . ستقولين إن ذلك عين الخداع .. ليكن هذا ، فهو

أخف الضررين ، وعلى أية حال فهو ليس خداعا صرفا كما قد تتوهمين يا عزيزتى .

وكان أبوها فى حديثه هذا يشير إلى « فريد الحلوانى » وتمسكها به ، ويلمح إلى أن الأصوب والأجدى عليها وعلى مستقبلها ، بل ومستقبل الأسرة كلها أن تحاول نسيان ذلك ما استطاعت اليه سبيلا . . وأومأت « نهيرة » برأسها علامة الموافقة ، وبعد قليل كانت تتخذ طريقها صوب حجرتها لتنام ، وعند ما وصلت إلى حجرتها ، لم تنم مباشرة ، بل اتجهت إلى درج من أدراج دولابها ، وأخذت تعبث بمحتوياته حتى أخرجت منه قطعة من الورق المتسخ الغليظ ، عليها بضعة عبارات بالقلم الرصاص، وأخذت فى قراءتها ، وما لبثت أن ترقرقت الدموع فى عينيها ، ثم انسابت على وجنتيها فى صمت وخشوع ، ولم لا ؟ ؟ إنها تقرأ خطاب « فريد » ، « فريد » الذى اغتصبته منها يد قاسية لا ترحم ولا تعرف العدل أو الشفقة ، ولا تقدس مشاعر الإنسان ، يد الطغيان والظلم ، وضج فى قلبها دعاء حار لم ترد أن تطلقه من لسانها :

ـ الله يجازى من تسبب فى كل ذلك ..

وباغتتها أمها فى موقفها هذا ، ولمحت الورقة فى يديها ، فعرفتها على التو ، ثم قالت متوددة وهى تقترب من « نهيرة » :

ـ ما هذا يا ابنتى ؟ ؟ أما زلت تتعلقين بهذه التوافه ؟ ؟

وكانت كلمة « التوافه » شديدة الوقع عليها ، أتسمى علاقتها « بفريد » واخلاصها له، وتفانيها فى حبه شيئاً تافهاً ؟ ؟ ؟ بأى منطق تحطم أمها ذلك التمثال الكبير الذى أقامته تعبيراً لهواها ، وأخذت تغسله صباح مساء بدموعها ، وتنثر فوقه الصلوات والدعوات ؟ ؟ أية إنسانة أمها ؟ أليس لها قلب ؟ ألم يمس الحب روحها ذات يوم ؟ ؟ إن شيئاً رهيبا قد أخذ يزحف نحو قلب « نهيرة » ، لقد شعرت بالمقت عندئذ لأمها ، كرهتها وكأنها عدوة لدودة . . هى تعلم أن ذلك عقوق وإثم كبير ، لكن عقلها

مضطرب مرتبك ، ومشاعرها مشتتة مبعثرة ، وأملها المنهار يبدو أمام بصرها كالأطلال الخربة ، كالليل الطويل الممتد الحافل بآلاف الأشباح المخيفة . . . وأدرك أبوها المريض ما يعتمل فى قلبها ، وخاطبها بلهجة رقيقة لبقة ، ولم يحاول أن يجرح شعورها ، أو ينال من عاطفتها ، أما أمها – وهى التى كان الأحرى بها أن تبدو أكثر لباقة ، وتقديراً للظروف – فقد وصمت ماضيها كله بالتفاهة . . لا . . لا . . إنها لا تكره أمها . . بل تكره نفسها أشد الكره ، وتكره ضعفها وعجزها ، وحظها العاثر ، ولا تشعر بقابلية لهذه الحياة التى اكتست أمامها بثوب الفشل والخداع . .

وصرخت « نهيرة » على الرغم منها قائلة :

– توافه ؟ ؟ لا تقولى هذا . . أنا أرفضه بكل قوة . .

وأدركت الأم ما تقاسيه ابنتها من ضيعة وألم ، وما ترزح تحت وطأته من انفعال وثورة ، فخففت من لهجتها قائلة :

– ما زلت طفلتى الشرسة العنيدة ، تيقظى يا « نهيرة » ، واعلمى أنك إذا سمحت لقلبك بعد ذلك أن يمتلىء بحب غير حب زوجك ، أو يتسلل إليه شعاع غريب ، فستقعين يا حبيبتى فى إثم لا يمحى ، وعار لا يزول ، إن الخيانة الخفية التى تلعب بالقلب وتغريه – حتى ولو لم تخرج عن دائرة الأحلام – أبغض شىء إلى الله . .

فقالت « نهيرة » وهى تصر على أسنانها :

– أنت تعرفين أن القلوب بيد الله . .

– وأعلم أيضاً أن نزواتنا وانحرافنا ، تغضب الله ، فيترك لنا قلوبنا نميل بها إلى الإثم عقابا . . كونى حاسمة ، وابدئى من جديد ، لا تنسى أن غداً زفافك . .

ولم يكن هناك مجال للأخذ والرد ، فقد انتهى الأمر ، فلم تجد « نهيرة » مناصاً من التسليم والركون إلى الصمت ، وفى هذه الأثناء ،

امتدت يد أمها إلى الورقة التى فى يد ابنتها ويجبتها منها قائلة :

— اتركى هذه الآثار لى ، ليس لها مكان فى بيت زوجك ، كونى عاقلة ..

وقبل أن تنتبه « نهيرة » إلى ما فعلته أمها ، كانت الورقة قد انتزعت من يدها ، ولما همت باسترددادها ، واجهتها نظرات أمها الحادة التى تحمل أكثر من معنى ، فأوقفتها عند حدها ، وتراخت يدها فى ذلة وانكسار ، وسكنت « نهيرة » سكون العاجز المقهور ، ولم يكن أمامها سوى أن تذرف الدموع ..

* * *

وفى بيت « فريد الحلوانى » ، كان هناك ما يشبه المأتم ..

إن فى « شرشابة » كما فى معظم ريف مصر ، تقاليد لها صفة الاحترام بل التقديس ، فمن الأمور المسلم بها ، أن المرأة لا بد أن تنتظر زوجها حتى يعود من السجن ، يجب أن تحمل عنه العبء حتى يعود ، وتحاول أن تملأ الفراغ الذى تركه ، ولا بأس عليها إن هى شقيت وتعبت ، وقاست الأمرين ، لأنها عند ذلك سوف ترتفع فى أعين أهل القرية ، وتحظى باحترامهم ، وسيظل زوجها فيما بعد حافظا لجميلها ، شاكراً لمعروفها ، وفى « شرشابة » أمثلة كثيرة للتدليل على ذلك ، إن « أحمد صالح » أحد رجالها حكم عليه بالسجن فى أبى زعبل عشر سنوات ، وانتظرته زوجته حتى عاد ، و « أبوشوشه الجزار » الذى مزق خصمه بالساطور ، ثم قضى فى ليمان طره خمسة عشر عاما ، بقيت زوجته حافظة لعهده ، مبقية على وده ، حتى رجع بعد تلك الغيبة الطويلة ، وغيرهما كثيرون ، لهذا لم يكن يعتقد « الحلوانى » وزوجته أن « نهيرة » سوف تترك زوجها ، وترتمى فى أحضان رجل آخر ، إن « أولاد الأصل » لا يفعلون مثل ذلك ، وكان سلوك « نهيرة » وتصرفاتها إبان المحنة ، وإظهار إخلاصها « لفريد » مما كان يؤكد هذا الاعتقاد الجازم ويقويه ، وفى نفس الوقت كان من المعتقد أن

سجينا سياسيا مثل « فريد » لن يطول به السجن إلا فيما ندر ، ويوم الإفراج عنه يكون قاب قوسين أو أدنى من التحقيق ، لهذا ظل الأمل يداعب قلب « الحلوانى » و « حميدة » ، وظلا ينتظران هذا اليوم السعيد ، ويضرعان إلى الله أن يكون قريبا ، فلا عجب بعد ذلك إن اعتبرت « أم فريد » طلاق « نهيرة » من ابنها ، وتزويجها من « عبد الرحمن أفندى » جريمة لا تغتفر ، وفألا سيئاً يبعث على الفزع والحزن الشديد ، كما هو متبع فى شرشابه منذ قديم الزمن .

قالت « حميدة » « للحلوانى » والحسرة والألم يأكلان قلبها :

— منها لله « نهيرة » . . كنت أحسبها أكثر إخلاصا ووفاء . .

فرد « الحلوانى » فى حنق وتأفف :

— اسكتى يا امرأة . . ما ذنبها هى ؟ ؟

— أتقصد أن أمها هى سبب البلاء ؟ . .

— اتركى هذا الموضوع ، فلا داعى للخوض فيه . .

— كيف أسكت ؟ ألم يعد فى وجوههم بقية من دم ؟ لو تزوج « فريد » فلاحة لا تقرأ ولا تكتب ، لحافظت على شرفنا وكرامتنا ، واحترمت مشاعرنا ، ولظلت وفية مخلصة حتى يعود ابنك من السجن .

فقال « الحلوانى » فى أسف :

— على أية حال ، أنا أعتقد أنه لا لوم على « نهيرة » : البنت طيبة ومؤدبة ، لكن أمها وأباها هما اللذان دفعاها إلى هذا الفعل الشنيع دفعاً »

فقالت « حميدة » وهى تلوح بيدها :

— لو كانت « نهيرة » كما تقول فى صفنا حقا ، لأبت الانصياع لأوامرهما . .

— كيف ؟

— لتأت إلى بيتنا ، وتنتظر حتى يعود « فريد » . إنى كنت على استعداد لإيوائها . .

ـ تكلمى كلاماً غير هذا ، إنك تهرفين بما لا تعين ..
فأجابت « حميدة » وقد خنقتها الدموع :
ـ مسكين يا « فريد » .. كل هذا مكتوب عليك .. المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين ..
ودمعت عيناها ، بينما ران على « الحلوانى » الصمت لفترة وجيزة ، ثم تنهد فى أسف وقال لزوجته :
ـ أنا لا أعلق أهمية كبيرة على شىء مهما غلا ، لم تعد المشكلة فى نظرى مشكلة زواج أو عدمه ، « فريد » أولا وقبل كل شىء ، أما الزواج أو غيره ، فذلك كله أمر آخر ليس بنفس الدرجة من الأهمية ، لكنكن معشر النساء تأبين إلا أن تثرن الزوابع حول الأمور الثانوية ، كفكفى الدمع ، ثم قومى لتنامى . .
فقالت وقد سيطر عليها الشجن :
ـ وهل تنام القلوب التى اعتصرتها الأحزان يا « حلوانى » ؟ ؟
ـ اتركى الأمر لله . .
ـ آه .. غدا تدق الطبول ، وتنبعث أصداء المزامير فى آفاق القرية ، وتنطلق الزغاريد . . غدا زفاف « عبد الرحمن » و « نهيرة » إلى دنيا الأفراح ، وزفاف قلبى وروحى إلى قبر الأحزان . . لم هذا العذاب يا رب ؟.. أما كان الموت أروح لى من هذا كله ؟ ؟
فأسرع « الحلوانى » قائلا فى لهجة حادة :
ـ استغفرى الله يا امرأة . . ليس لنا إلا الصبر ، وعليه سبحانه العون والنجاة . .
ـ ألا تحس بما فى قلبى يا « حلوانى » ؟ ؟ تعبى طول العمر ضاع فى غمضة عين . . الأمل الذى بذلت من أجله قوتى وحياتى ونور عينى ، حتى كلت يداى ، ووهى عزمى . . ذلك الأمل قد غاب . . لقد أبصرت

« فريد » ناجحاً سعيدا ، وسرعان ما شعرت بالرضى والعزاء « أما اليوم فقد انهار عزائى . . »

فقال « الحلوانى » فى ضيق :

— « أتخرفين يا حميدة ؟ ؟ ماذا أجدت الثورة والتمرد على قضاء الله ؟ ؟ هل رد ذلك كله « فريد » لنا ؟ ؟ هل نجانا مما لحق بنا من أذى وأحزان ؟ ؟ أكان ذلك وسيلة لأن ينتقم الله لنا من الملك وحكومته الظالمة ؟ ؟ كلا . . لم يفدنا تمردنا شيئاً . . يجب أن نسلم زمامنا لله ، وننتظر حتى يأتى بالفرج ، ومن نحن حتى نثور ونفور ؟ ؟ نحن أضعف من أن نغير وضعا ، أو نحول من مجريات الأمور ..

ولم ينته حديثهما إلا بعد أن عرجا على ذكر « عبد الرحمن أفندى » ، فقد وصفته«حميدة» بأنه ليس إنسانا ، بل ذئبا غادراً ، درج على الكيد والخداع ، لا هم له ألا أن يسرق زوجات الآخرين ، ويدوس أواصر القرابة والجوار ، وحاول « الحلوانى » بشتى الطرق أن يوقف زوجته عن الاسترسال فى الحديث ، لكنها كانت تنفس عما يعتلج فى صدرها من ألم ثائر ، وحزن عميق . .

وران عليهما الصمت . .

لكن قلبيهما وروحيهما ، وكل ذرة فى كيانهما ، كانت تصرخ فى اخلاص واستماته وخشوع :

— يا رب . . يا رب . .

الفصل الثالث والعشرون

كان وقع الصدمة قاسيا على « فريد » ، لكنه استطاع بعد قليل أن يظهر بمظهره العادى ، ويبدى عدم الاكتراث أو اللامبالاة بما حدث ، فقد كانت تعليقات « البسطويسى » اللاذعة ، وكلمات « فرحات » المهدئة الحكيمة ، تدفع « فريد » للنسيان رويداً رويداً ، فاستطاع أن يبتسم وأن يضحك فى كثير من الأحيان ، وأصبح لا يبدى كبير اهتمام بالأخبار السياسية والأزمات الوزارية ، وبالعفو أو عدمه ؛ لقد اجتاحته موجة تشبه اليأس فلم يعد يكثر من التفكير فى مصيره ، بل لا يكاد يفكر فى مشكلته إلا يوم الزيارة ، لأنها كانت تثير ذكرياته فضلا عن أن دموع أبيه ؛ ونظرات أمه الوالهة الحزينة كانت تسبب له أسفا عميقاً ، غير أنه لم يعد خافيا أن جسم « فريد » قد ازداد نحولا وضعفا ، وقد بدا هذا جلياً فى وجهه الشاحب والعرق الغزير الذى تتقاطر حباته على جبينه عند ما يبذل أدنى مجهود . ولم تدم هذه الحالة أكثر من شهرين تقريباً ، إذ سرعان ما عادت إلى « فريد » حالته النفسية الثائرة ، فكان يثور لأتفه الأسباب ، ويجادل اخوانه فى أشياء لا تحتاج إلى كلمة واحدة ، ولا يختلف فيها اثنان ، كما كثرت مخالفاته فى الليمان مما كان يؤدى به للذهاب إلى التأديب ، رغم تغاضى « ضابط العنبر » عن كثير من هفواته وحماقاته .

ولم يجد « فرحات » بدا من أن يصرف النظر عن تصرفات « فريد » لكثرتها فلا يحاسبه أو يؤاخذه عليها ، وإن كانت تعصف به فى فترات كثيرة نوبات من الألم والحنق لأن مثل هذه المنغصات وخاصة فى السجن تجرح النفس رغم جراحها العديدة وتزيد من الضيق والقلق ومن ثم فقد كان « فرحات » يهمس لنفسه قائلا : « لم أكن أتصور أن مثل هؤلاء

الشباب الذين كانوا يفيضون حماسة وثورة ، ويتفجرون وطنية واشتعالا ، سينقلبون هكذا إلى مصدر للتعويق وتكدير الحياة . . « فريد » طالب فى كلية الحقوق ومدرس ومن أسرة مكافحة صابرة أى أنه مجرب ، والتجربة تخلق الرجال وتمهد للجندية الصحيحة . . لست أدرى ما الذى انتابه فأوهن من قواه وأخمد من حماسته ووطنيته ؟ تارة يبكى من أجل امرأة خائنة لم تف بعهدها معه ، وتارة أخرى يندب مستقبله وآماله ، أكان يظن هذا المأفون أن الموضوع لن يتعدى بضعة هتافات وعددا من المظاهرات الفارغة الجوفاء التى لا تقدم ولا تؤخر ؟ ؟ هل حسب النصر لقمة سائغة تأتى عفوا وتنال بطريقة سهلة هينة لا عرق فيها ولا دموع ولا دم . . ؟ ؟ ماذا أقول ؟ ؟ هل الذنب ذنبى ؟ ؟ وهل أنا أخطأت فى طريقة سيرى ؟ ؟ وإذا كنت أنا أخطأت ففيم . . ؟ أتراني لم يحالفنى التوفيق فى اختيار بعض هؤلاء الشباب؟؟ لا . . لا . . لا . . إن خطئى الأكبر هو أننى تعجلت العمل وأردت أن أقتطف الثمرة قبل نضوجها ، وأن أقدم على كبريات الأعمال دون أن أتخذ الأهبة التامة وأعد العدة الكافية . . لقد كنت مقدماً على معركة كبرى لكنى لم أعدلها الإعداد الكافى الذى يلزم الجنود . . رحمك الله يا « عبد المجيد » أيها الشهيد الكريم . . لطالما لفت نظرى رغم صغر سنك لمثل هذه التطورات ، لكنى رددتك رداً غير جميل ، ودفعتك دفعا غليظاً . . أجل ، كان يجب أن ندرس ونلقن أمثال « فريد » كثيراً من المبادىء والمثل ، وأعنى المبادىء التى تتغلغل إلى أعماقهم ، والمثل التى تسرى مع دمهم إلى كل خلية من خلايا أجسامهم ، كان يجب أن يفهموا هذا فهماً دقيقاً عميقاً . . لكننى للأسف لم أستطع تقييم من معى من الجنود . . وثقت بنفسى وآمنت بها فخدعنى ذلك وجعلنى أثق فى الناس وأومن بهم . . »

ويصمت « فرحات » قليلا ، وهو يجول بفكره هنا وهناك ، ويقلب وجهات نظره . . وما أكثر تفكير « فرحات » ، والسجن بالنسبة لأمثاله

مجال كبير للتأمل والتفكير ، إنه كصومعة الصوفى . ومهبط الوحى للشاعر وحجرة العزلة للفيلسوف ، ويظل « فرحات » يستذكر كتاب الماضى ، ويقلب صفحاته صفحة صفحة ، ويتلو سطوره سطراً سطراً . . إنه يريد أن يأخذ العبرة.. أن يستفيد . ولا بأس من أن تحدث المشاكل ، أو يثور « فريد » ، ويحمى وطيس الجدال.. ولا بأس من أن يتقاذف هؤلاء الأصدقاء التهم جزافاً : ويرموا بعضهم بعضا بالخيانة ، والغدر والخداع . . لا بأس مما يلاقونه من عنت وتكدير ومنغصات ، فكل ذلك سيستخلص منه « فرحات السروجى » العبرة والدرس ، وهذه أشياء لم يكن ليتوصل إليها فى عشر سنوات وهو فى خارج الليمان . .

إن « فرحات » لم ييأس ، ولن ييأس ، بل يأخذ من كبوته دافعاً للوثوب ، ووقوداً للانطلاق . . شىء إسمه الاصرار يعمر قلبه ولا يريد أن يغادره ، فليحصل ما يحصـــل وليختلف أصدقاؤه ، ولينشقوا ويتراشقوا التهم ، فان هذا الإصرار هو ما يعول عليه ، ليحكموا عليه بالسجن ، وليهددوه بالقتل ، وليحرموه من المستقبل . إن كل ذلك هين ما دام الثمن الذى سيتقاضاه هو الحرية لشعبه ، والخلاص من ذلك الملك الفاسد المجنون الذى يدوس أطهر المقدسات ، ويعبث بأسمى القيم ويطأ أنبل العواطف . . إنه يبيع أمته ، ويسرق الزوجات ، ويحمى اللصوص والخونة والمرتشين ، مثل هذا الملك مهادنته هى الخيانة بعينها ، هى الكفران بالشعب وبالأرض السمراء التى أنبتتنا ، وبالقوى الصاعدة الخالقة التى تبتسم إلى الغد وترنو إلى الفجر المشرق الجديد .. إن « فرحات السروجى » ، رغم كل ما حدث لم يستسلم ولن يهن ما دام فى مصر إنجليزى واحد وما دام فى القصر ملك يحكم ويطغى ويتجر ويساوم ، وما دام يمسك بمصائر البلاد حكومات تهادن الاستعمار والملك ، وأحزاب تسرق وتنتهك حرمة الدستور . .

هذا هو موقف « فرحات » . .

موقف المؤمن بمبدئه ، الواثق من نفسه ، المحب لشعبه ، والمصر على مواصلة الكفاح والنضال مع الاستفادة مما سبق من أخطاء . .

أما موقف « بسطويسى » فهو موقف الأزهرى المتعصب لما فعل والذى يؤمن بما حدث دون نظر لأخطاء سالفة ، على العكس من « فرحات السروجى » الذى يعترف بأخطاء الماضى ، كما يعترف بحسناته . ولم يكن « بسطويسى » واسع الصدر رحب التفكير مثل « فرحات » ، بل كان ينظر إلى مخالفة « فريد » ومناقشته على أنها نذالة وخيانة وجبن فكان يقول « لفرحات » :

— إذ لم يكف « فريد » عن كلامه الفارغ فسأحطم جمجمته . . سأقطع رقبته وأشرب من دمه .. إنه مجرم قذر يريد أن يهوى بروحنا المعنوية إلى الحضيض يا « فرحات » . .

فيجيبه « فرحات » هادئاً رزيناً :

— لا . . لا يا « بسطويسى » . . لنهدأ قليلا . . لا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام مرة أخرى ، ما هكذا يتعامل الأصدقاء وإخوة الكفاح . . إنكم لا تحسنون معاملة أنفسكم ، ولا تثقون فى بعضكم . ولست أدرى كيف تطلبون من الشعب أن يثق فيكم ، ويرثى لمصيركم . . يجب أن تغير كثيراً من أفكارك ومعاملتك يا « بسطويسى » . . »

— هذا وضع لا يطاق يا « فرحات » . . إن « فريد » أساس كل بلية وسبب كل نكد يحل بنا .. إذا سكتنا عنه تمادى فى غيه وإذا رددنا عليه بالمثل لمتنا وأثقلت علينا بتأنيبك وتقريعك . .

— « ألم تعلمنا من قبل يا « بسطويسى » أنه طوبى لمن ترك الجدال وهو محق ؟ . .

— لكن إلى متى . ؟ ؟

— إلى ما لا نهاية . .

– هذا غير معقول وغير مستطاع ..

– أنت تدعو الناس لشيء كبير فلتكن أسمى وأكبر من هذه الصغائر ...

– ليأخذوا « فريد » بعيدا عنا ..

– إلى أين ؟..

– إلى أية داهية .. ليسكنوه مع المذنبين فى العنبر الثانى .. لا أريد أن أراه ..

– لا .. لا. أنت غاضب وتنطق بما لا تعى ..

– بل أتكلم وأنا بكامل قواى العقلية ..

– إن خلافاتنا وعيوبنا يجب أن تذوب بيننا .. يجب أن نفهمها ونفهم أسبابها وأعراضها .. إنها ظواهر طبيعية يا صديقى كالعواصف والزوابع .. أو مثل بعض الأمراض التى تحتاج إلى تشخيص وعلاج .

– قد يكون البتر هو العلاج الناجع مثل بتر الأطباء أصبعه بالأمس .

– إذا كان فى الإمكان العلاج دون البتر ، فما حكم الباتر حينذاك .. ؟ »

– لا أعلم ..

– قل الحقيقة .. إن ذلك سيكون جريمة لا تغتفر ..

– سأصمت .. سأصمت يا « فرحات » ولن أتدخل فى شيء ، وسأترك « فريد » يفعل ما يشاء ويتحدث بما يحلو له .. ألم تر أن عدواه قد انتقلت إلى بعض زملائنا ؟ .. إنه وباء .. »

– الصبر يا « بسطويسى » ..

– الصبر .. ؟ ؟

– أجل ، ألم تقل لنا أن الله مع الصابرين ؟

ويصمت « بسطويسى » قليلا ، ثم يطأطىء رأسه ويقول فى صوت خفيض :

– متأسف يا « فرحات » . .

– إنك تتأسف ثم تعود لمثلها ..

– لن أعود إلى مثلها ..

– أتعدنى بذلك ؟

– إن شاء الله . .

وتقف المناقشة عند هذا الحد و « بسطويسى » يثور ويفور ويعلن على « فريد » حرباً شعواء لا هوادة فيها ويتهمه بالتذبذب والخور ، و « فرحات » يفسح صدره ويظل يحاوره ويداوره حتى يثوب إلى رشده ويعود إليه هدوءه وسكينته .

* * *

كان هؤلاء الشباب بما فيهم « فرحات » و « بسطويسى » و « فريد » يقبعون فى زنزانتهم بعد التمام.. وكان الظلام كالمعتاد يصبغ كل ما فى الزنزانة بحلكته الكئيبة ، وقد تحالف الظلام مع الصمت والبرد فبدا الجو موحشاً ممجوجاً ، وتحرك « فريد » من مكانه ، وأخرج من مخبأ تحت جردل الماء زجاجة صغيرة فيها كمية من الزيت ومعها فتيل من القطن ثم عبث بثنيات سترته حتى حصل منها على عود كبريت وقطعة ورق سوداء ليحك فيها العود ، ولاحظ « بسطويسى » ما بيد « فريد » فقال :

– ماذا بيدك يا « فريد » ؟

– بعض من الزيت ..

– وكيف حصلت عليه ؟

– أعطيت ريس المطبخ سيجارة فأعطانى هذه الكمية

ثم أردف « بسطويسى » مستفسراً :

– وماذا تنوى أن تفعل الآن ؟

– سأضع الفتيلة فى الزيت ثم أضيئه ، إن الظلام يثقل على قلبى ، ويكاد يخنق أنفاسى .

– لكن هذا ممنوع ، وأنت تعلم ذلك وسيراه خفير الليل ويكون مصيرنا التأديب ..

– لن يراه أحد ..

– كيف ؟

– سنسد النوافذ بستراتنا ..

– سد النوافذ أيضا ممنوع ، ثم إننا لسنا فى غنى عن جزء من سترتنا . . إن البرد يجعل أجسامنا كلها ترتعد .

– إنى مصر على إشعال الفتيل مهما كان ..

– كن عاقلا ولا تقل هذا الكلام ..

– أليس حراماً أن نقبع هكذا كسكان القبور ؟

وتدخل « فرحات » حسما للموضوع بعد أن ظل طوال هذه الفترة ساكتا ، أما باقى الزملاء الذين سئموا أمثال هذه المجادلات وملوا من تكرارها فقد آثروا أن يتمددوا على أبراشهم ويستغرقوا فى نومهم رغم الضوضاء نظراً لما يلاقونه يوميا من عمل شاق ، وإرهاق متصل فى الجبل ، ولكى يستطيعوا أن يزاولوا عمل الغد فى الصباح .

قال فرحات :

– ليس هذا بالجديد علينا يا « فريد » فنحن نعيش فى الظلام منذ أن دخلنا السجن إلى يومنا هذا ، ولقد تعودنا ذلك ، ألم تسمع أغنية كساب التى يقول فيها :

أنا ليلى كله ضلام ومفهش حتى شعاع
ونومى عــلى البرش خــلى جتتى أوجاع
والبق يزحف علينـــا م الحروم ألايـــات
إسأل عليــه الجبيصى وإسأل أبــو شجاع

وقهقه « فرحات » بعد أن ترنم بأغنية كساب آملا أن يشاركه « فريد » فى الضحك وليرفه عنه ويصرفه عن إصراره على إشعال الفتيل ، لكنه لم يسمع إلا صدى قهقهته فقط ، بينما انبثقت أشعة الضوء عند ماحك « فريد » عود الكبريت ، ثم قربه من الفتيل فغمر الحجرة ضوء باهت مرتعش أبان عن وجه « فريد » المحتقن وعن ابتسامة « فرحات » الحائرة المصطنعة وسحنة « بسطويسى » الصارمة الغاضبة .. وأخذت ظلال الأشياء الصغيرة الموجودة فى الزنزانة تتراقص وتستطيل ، فقال « فرحات » فى وداعة ورقة :

ــ والآن ماذا تنوى أن تفعل ؟

ــ سأحاول القراءة ..

ــ فى هذا الضوء ؟

ــ أجل . . .

ــ إنه يعمى عينيك ..

ــ ليكن . . لقد انتويت أن أتقدم للامتحان ما دام مسموحا به .

ــ حاول أن تقرأ بالنهار ، ولا تقامر ببصرك .

ــ النهار . . ؟ ؟ إنه ملىء بالعمل ولا يتركون لنا الفرصة حتى نأكل بهدوء .

ــ على أية حال كنت أتمنى ألا تشعل الفتيل . . أنت تعلم أن الضباط فى السجن يتغاضون عن الكثير من مخالفاتنا ، ويجب ألا نأخذ هذا كقاعدة ، فهم قد يتخلون عنا فى أية لحظة . .

فقال « فريد » فى غضب :

ــ ليفعلوا ما شاءوا ، أنا لا أكترث لأحد ..

فقال « بسطويسى » متدخلا :

ــ ماذا ؟ ؟ أتريد أن تصطدم مع الادارة ؟

ــ وما دخلك أنت ؟ ؟ سأصطدم ..

— أيها الأحمق ! من أنت حتى تتصدى لقوتهم ؟.. أنت أعزل . . مسجون لا حول له ولا قوة . . افتح عينيك جداً . .

وحملق « فريد » فيه وهو يضغط على أسنانه من الغيظ وعيناه تقدحان بالشرر .. وهم بالرد عليه ، لكن صوتا من الخارج قطع عليهما ذلك حين صاح خفير الليل قائلا :

— اطفىء النور يا زنزانة ١٠٧ . . سأبلغ الضابط . .

وانطلق « فريد » برعونته وجنونه :

— افعل ما شئت . . بلغ . . أو اذهب إلى الجحيم . .

فأسرع إليه « فرحات » و « بسطويسى » ووضعا أيديهما على فمه حتى لا يستطرد فى ثورته ، ويتمادى فى أخطائه ، فيزيد الموقف تعقيداً ، وسارع « بسطويسى » بإطفاء الفتيل بنفخة واحدة، بينما قال « فرحات » فى صوت خفيض واضح النبرات :

— ماذا جرى لك يا « فريد » . . ؟ ؟ هل جننت . . ؟ ؟

فقال « فريد » وقد تضاعفت ثورته :

— أنا حر .. سأفعل ما أشاء . . لا دخل لكم بى .. سأضىء مرة ثانية .. لا تقترب منى يا « فرحات » .. دعنى ، ابتعد يا « بسطويسى » وإلا اقتلعت عينيك . .

وامتدت يده ليضرب هنا وهناك ، والصديقان يحاولان إيقافه عند حده ومنعه من الصياح والاعتداء ، وصحا باقى أصدقائهم فزعين ، ترى أى حزن وأسى كان يملأ نفوسهم ؟.أشياء كثيرة كانت تضطرم بها نفس « فريد الحلوانى » ، لم يكن يدرى ماذا يفعل ، بعد أن فاضت الكأس ، وزاد الشقاء ، لقد بدا أن مقاومته أصبحت على وشك الانهيار ، وقوة صبره واحتماله أصبحت فوق الطاقة ، فأراد أن يفعل شيئاً . . أى شىء حتى يتغلب على ذلك الأرق الذى ألم به ، وينجو من ذلك الضيق الذى انتابه ، فأخذ يأتى بعض التصرفات الخارجة ، حتى لكأن عقله أصبح

عقل طفل عابث درج على العناد ، وارتكاب الحماقات والتسلى بمخالفة اللوائح والبديهيات التى فى السجن ، ولما هم أصدقاؤه بمنعه ، أعتبرهم جبهة معادية فأخذ يلعن ويسب ويضرب ، ولم يكن ذلك غير بداية سيئة منه .

ولم تطل هذه الفترة الحرجة ، فقد فتح الباب وسيق « فريد » إلى التأديب ، وهو ما زال يسب ويلعن ، بل ويحاول الاعتداء على العسكرى — خفير الليل — والضابط .

الفصل الرابع والعشرون

لقد أخطأ « فريد » . . .

وكان لا بد أن يتحمل نتيجة خطئه ويجازى مما اقترفت يداه . .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل إن العقاب قد تعداه إلى زملائه الذين لا دخل لهم ولم يذهبوا إلى التأديب . .

إن « فريد » سب الضابط وشتمه ، بل والأدهى من ذلك أنه حاول الاعتداء عليه فكان لا بد من كتابة محضر ، ولقد تمادى « فريد » فى ثورته واعترف فى المحضر بأنه حاول أن يضرب الضابط النوبتجى ، وأصبح واضحاً أنه لا بد من عقوبة الجلد .. أجل الجلد، ولا بد أن يحتملها « فريد » بشجاعة ، فسيراه المذنبون وهو يجلد فى فناء السجن فاذا ما تأوه أو بكى من قسوة الجلد وآلامه فهذه هى كارثة الكوارث ومصيبة المصائب ، سيسقط من أعين المذنبين وسيعتبرونه طفلا صغيراً وكان الأحرى به أن يكون رجلا ، إن من يظهر أدنى تأفف من شدة الضرب سيمشى بعد ذلك فى الليمان وكأنه عذراء فقدت شرفها . .

حالا سيأتى الجلد وعلى «فريد» أن ينتظر على أحر من الجمر ،لكن ليت الأمر وقف عند حد الانتظار ، بل إن جاويش التأديب والزبانية الذين معه جردوا « فريد » من ملابسه الداخلية وحذائه وحلقوا له شعره بطريقة مزرية قذرة وأخرجوه من الزنزانة وقد قبض واحد على ذراعه الأيمن والآخر على ذراعه الأيسر، بينما وقف الجاويش السجان خلفه وأخذ يرفع يده ويهوى بها على قفاه وعلى رأسه حتى كاد الدم أن ينبثق منهما ، وحاول « فريد » أن يقاوم ولكنهم طرحوه أرضا وأشبعوه ضربا وركلا ولكما ، بل رفعوا رجليه إلى أعلى فنال ما يقرب من ستين ضربة بعصا غليظة

حتى كاد أن يغمى عليه ، وصاح « فريد » بصوت واه ضعيف :

ـ إن عملكم هذا خارج عن القانون ..

فرماه الجاويش بنظرة ساخرة وقال :

ـ ملعون أبوك وأبو القانون . لو كنت تعلم قيمة القانون كنت حافظت عليه خارج السجن وداخل السجن ..

ـ إذا كنت أنا قد أخطأت فسآخذ عقابى القانونى . . أنا مكتوب لى محضر وسيكتب فيه الجزاء . .

ـ بطل فلسفة يا ابن الـ . . .

ـ كفى ضرباً ..

فلم يستمع إليه الجاويش وصفعه صفعة قوية وهو يقول :

ـ أكنت تريد أن تضرب حضرة الضابط يا مذنب ؟

ـ أبداً ، أنا كنت . . .

ـ اخرس وإلا قطعت لسانك هذا القذر ..

وشعر « فريد » بالعجز الكامل والدنيا تغيم فى عينيه ، وبرأسه يدور ، وبجسمه يتهاوى ويستسلم ، وبأطرافه تتراخى ، فغاب عما حوله ، وحينما فتح عينيه وجد نفسه ملقى باهمال على أرض الزنزانة المظلمة الضيقة ، ووجد الباب مغلقاً ، ورغيفا ملقى فى ركن الزنزانة والمبولة وجردل ماء الشرب قد تركا متقاربين .. وتلفت « فريد » يمنة ويسرة فوجد نفسه كئيبا وحيداً جريح النفس والقفا .. بل شعر بالآلام تسرى فى جسده كله متعاونة مع آلام البرد الذى ينفذ إلى عظامه ، وألقى نظرة من النافذة الضيقة فأدرك شمسا لم تغب بعد رغم ظلمة الزنزانة ، وتذكر « فريد » ما حدث له منذ ساعة فهطلت من عينيه الدموع الغزار ، وهتف من أعماقه : « يا رب ! » .

« يا رب ! » .. لقد قالها «فريد» وهو مقر بالعجز الكامل، محس بالذلة الأليمة والضيعة التى ما بعدها ضيعة . إن «فريد» يقول : يا رب ! ، وليست

هذه أول مرة يقولها ولن تكون آخر مرة ، فما أكثر ما أحس بأن الدنيا تضيق أمام عينيه ويفقد المعين والصديق ، ويتوسل بقوته وبكلامه ولا فائدة ، فيدور ببصره فيما حوله فلا يجد أحداً ، فسرعان ما ترتفع عيناه إلى هناك ، إلى السماء ، فى خشوع وضراعة وابتهال ويصيح من روحه .. من قلبه .. وبكل عضلة وخلية فى جسمه قائلا : يا رب ! هذا موقف جربه كثيراً . .

لقد استنجد « فريد » اليوم بالقانون وأفهم الجاويش أن ضربهم إياه على هذه الصورة مناف للإنسانية ، مخالف للائحة ، ونسى « فريد » أن كلمة لائحة لا وجود لها إلا حينما يؤخذ منه ، أما عند ما يطالب بحق من الحقوق فلا لائحة ولا قانون بل الجلد والضرب والإهانة البدنية والنفسية ، إن فريداً كثيراً ما ينسى أن فاروق يعبث بكل المقدسات ولا يكترث بقانون ولا دستور، وينسى أن الناس على دين ملوكهم وأن الرأس الكبير قد علم أتباعه وأذنابه كيف يطغون ويظلمون . .

ما أشد ما تغير « فريد » ، وما أكثر ما نسى ! !

وبهمس « فريد » لنفسه فى حسرة وألم : هل كتب علينا أن نعيش فى هذا اللمان بلا عقل ؟ أيجب أن ألغى حواسى ، فأغمض عينى عن الأذى ، وأحاول أن أنسى حقوقى وأتغاضى عما يلحقنى من شر ؟.. لكن أى شيطان دفعنى لكى أشعل الفتيل بالرغم من أننى واثق من مخالفة ذلك للائحة ؟ وأى حمق جعلنى أتلفظ بتلك الكلمات البذيئة التى قذفت بها الضابط وقذفت بها إخوانى . . ؟ وماذا كانت النتيجة ؟

اعتداء . . مهانة . . وتضييق ... لا بالنسبة لى أنا وحدى بل بالنسبة لزملائى أيضا . . ؟

ما أكثر غبائى وما أشد حمقى . . ! !

لكن لا شك أننى فى ثورة غضبى لم أقدر تماماً ما أنا مقدم عليه من مغامرة .. وليست هذه أول مرة أقع فى مثل هذا الخطأ الشنيع . . آه . .

إنني أعترف بيني وبين نفسي بأني لم أعد طبيعياً .. إن تصرفاتي قد انتابها كثير من الشذوذ والحمق بل الجنون . . »

وشعر « فريد » بأنياب الجوع تنهش معدته بلا رحمة ، فالتفت ناحية الرغيف ثم زحف نحوه وأمسك به وأخذ يقضمه ثم يمضغه في شغف ولذة وغمغم :

— آه لو كان معي قليل من الملح . . ! ! لقد أصبح الملح هو الآخر عزيز المنال يا « فريد » .. حتى الملح؟ يا لي من غبي .. إني أجحد نعمة الله في حين كنت أولى الناس بشكرها في مثل هذا الموقف الشائك الحرج . . إن هذه اللقيمات الجافة لهي في فمي أحلى مذاقا من الدجاج والأوز .. الحمد لله .. إن الإنسان يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل كما يقول المثل الفرنسي . .

وأخذت الخواطر والأفكار تتلاحق وتتماوج في ذهنـــه المكدود بلا نظام أو هدف معين ، وهو يلوك اللقيمات الجافة في فـــه حتى أتى على الرغيف إتيانا تاماً ، ولم يشعر هذه المرة بما في الخبز من حصى أو شوائب كما كان يحدث في كل مرة ، ثم قصد ناحية جردل الماء كي يشرب ، وسمى باسم الله ووضع كفيه يمنة ويسرة على حافة الجردل ثم دلى رأسه فيه حتى مس فمه سطح الماء الذي يصل إلى منتصف « الجردل » ثم أخذ يعب منه عباً ، حتى ارتوى تماماً ، وهمس « فريد » :

— أما كان الأحرى بهم أن يتركوا لي كوباً أو أي شيء أغترف به الماء من الجردل . . . ؟ ؟ إنني لم أر أحدا يشرب بهذه الطريقة إلا الحمير والماعز والبهائم .. لا بأس أن تكون حماراً يا « فريد » على آخر الزمان . . وما الفرق بينك وبينه اليوم . . ؟ ؟ لقد ضربوك اليوم ضرباً مبرحاً لو ضربوه لحمار لضج ، وملأ الدنيا بالنهيق وأنكر الأصوات ، بل لرفس المعتدين برجليه الخلفيتين ، لكن لا مناص لنا من أن نغضي عن كرامتنا في زمن تتمرد فيه الحمير من أجل كرامتها . . وماذا نعمل إذا

كان الجالس على العرش حماراً كبيراً . . ؟ ؟ . .

ومسح « فريد » على ثغره بباطن كفه ، وحمد الله ثم تحسس قفاه وظهره وذراعه حتى يطمئن على أن الكدمات التى تركها الضرب القاسى فى جسده قد خفت حدتها ولو بدرجة بسيطة ، ثم قبع فى أحد أركان الحجرة وجلس فى صمت .

* * *

قضى « فريد » عدة أيام فى التأديب انتظاراً للمحضر والعقاب الذى سيرد من الديوان ، وكانت هذه الأيام مزيجاً من الجوع والبرد والوحدة القاسية والإهانات المتوالية.. وأحس بميل شديد ليرى أصدقاءه ويجلس معهم يتبادلون النكات ، ويتجادلون ويتشاجرون ، ويتجاذبون أطراف الأحاديث ، إن هؤلاء الأصدقاء ذخيرة ثمينة ، وسند أى سند ، لكن « فريد » كثيراً ما يسىء إليهم . . .

وأتاح الحبس الانفرادى « لفريد » أن يجول بفكره داخل الأسوار وخارجها ، وكان هناك طيف حبيب إلى قلبه ، قريب إلى روحه ، ملتصق بكيانه وبقائه أوثق اتصال . . « نهيرة » . . . تلك التى لا ينساها ولن ينساها أبداً . . هل حقاً باعته ، وتنكرت له ، ونكثت بعهده ، ففتحت قلبها « لعبد الرحمن أفندى » البغيض ، سارق الزوجات ، وهادم اللذات والسعادات . . ؟ ؟ إننى أستبعد ذلك أيما استبعاد . . إننى أعرفها كما أعرف نفسى ، ولا أشك فيها أدنى شك بعد ما حدث . . وخطاباتها ؟ ؟ ما معناها ؟ ؟ لم كانت ترسلها ؟ ؟ هل كانت تخدعنى ، وتزوق لى الأمانى الكاذبة وتمد لى حبل الأمل فى دنيا من الوهم والسراب ؟ لطالما أغدقت على حبها واخلاصها . . . ! !

ويصمت « فريد » لحظة ثم يتصورها هى و « عبد الرحمن أفندى » فى فراش واحد ، فيعصف به الألم ، ويهزه الغضب والغيرة فيقول لنفسه : « إننى أضحك على نفسى وأخدعها . . لقد تزوجت وانتهى

الأمر.. هذا كل ما أعرفه ، ولو كان حبها صادقاً ، واخلاصها عميقاً متأصلا لضحت . . وانتظرت . . وصبرت صبر أيوب . . لكنها للأسف شيعت قلبي إلى دنيا الفناء والأحزان . . »

وطافت بذهنه ليالى الحجرة العليا — فوق السطح — ونجوى فى ظل الليل ، وسمر تحت أشعة القمر ، وأحاديث لينة حلوة تبعث ذكراها القشعريرة فى جسده ، ولمسات ساحرة ما كان أهنأها ، وجو من السحر والنشوة والسعادة ، ونظرات حنونة ولهى ، وشباب يعبث ويلهو وينطلق فى غفلة من الناس والحياة ، وآمال عراض طوال ، تضيق بها الدنيا على سعتها ، وآلام من أجل الحب ولكنها كانت لذيذة ممتعة ، أجل آلام ممتعة .. من يصدق ذلك .. ؟؟ وقلبان يخفقان معاً خفقاً متجاوباً متسقاً ، فيعزفان « سيمفونية » أخاذة خالدة ، ما كان أروعها وأحلاها . . « لكن أين ذهب كل ذلك يا « فريد » ، أيها الشقى المسكين .. ؟ ؟ أين تلك الليالى والنجوى واللمسات والسحر والشباب ، والآمال والآلام الممتعة ؟ . . كل ذلك قد أذرت به الرياح ، وما أعطته الأيام باليمين سرقته بالشمال ، وسرقت معه حتى أحلامى وآمالى ، وتركتنى ضائعاً كقطرة الندى التى تبخرت ، وخفقة المصباح الذى انطفأ ، ورنة القيثارة التى تحطمت . إنى أحاول أن أنسى .. أحاول أن أهرب ، وأحاول أن أختلق المشاكل الأخرى حتى أغرق فيها لأذنى فأستطيع أن ألغى صورتها — صورة « نهرة » — من رأسى .. لكنها تصر وتفرض نفسها فرضاً على حياتى . . لقد تركتنى وتزوجت . . يا عجباً لها ! ! أتستعبدنى بالأمس واليوم أيضا ؟ أريد أن أنطلق منها ، وأريد أن أحطم قيود هواها ، وأتحلل من أغلال حبها وذكراها .. لكنى عاجز مقهور كدأبى دائماً.. أستسلم لهواى ، وأخضع لنزواتى . . آه . . رحمتك يا رب ! . . »

ويظل « فريد » هكذا يطوف حول تمثالها . . ويعزف على أوتار قلبه

الباكى لحنه اليائس الحزين ، ويظل يرسل شوارد فكره تطوف حول بيتها ، ثم تتسلل إليها حتى يطبق عليه النوم ، أو يرهقه التعب .

وفى اليوم التالى ، كان « فريد » يقطع الزنزانة الضيقة جيئة وذهابا بعد أن ضاق بجلسته ، ومل ذلك الصمت المطبق .. ولم يكن يفكر كثيراً فى الرطوبة التى قد تتسرب خلال قدميه العاريتين إلى عظامه ومفاصله ، لأنه لا حيلة له فى ذلك ، بل إن المشى فى الزنزانة رغم ضيقها مما يبعث فى جسده قليلا من الدفء والحيوية ، ورفع « فريد » بصره إلى «الشراعة» الموجودة أعلى الباب ، فوجد «كساب » مطلا بوجهه على حين غفلة ، بوجهه الأسود ، وشعر لحيته المتنـــاثر النافر وشاربه الكث ، وحاول « فريد » أن يسأله كيف أتى إلى هنا وعن حالة إخوانه فى العنبر ، لكن كساب لم يترك له فرصة فقد سارع قائلا :

— محضرك » وصل . .

— متى ؟

— اليوم ، وقد حكم عليك باثنتى عشرة جلدة .. تجلد وكن رجلا . . كل شىء يهون . . وربنا معاك . . و « فرحات السروجى » سيحاول التوسط لدى الضابط حتى يجلدوك جلداً قانونياً رحيماً ، وحتى لا يجلدوك أكثر من هذا العدد . . سلام عليكم . .

وقبل أن ينطق « فريد » كان « كساب » قد اندفع بعيداً هاماً بالخروج من التأديب ، قبل أن يتورط فى هذا العمل غير المشروع . . وهمس « فريد » لنفسه قائلا : « اثنتا عشرة جلدة . . ؟ هذا قد يكون هيناً ، لكن المعروف أن هذا العدد قد يصل إلى ثلاثين أو إلى خمسين جلدة . . نادراً ما يحدث أن ينال المذنب حقه من الجلد كما هو مقرر بالمحضر . . إن الضابط يبدو أنه مغيظ منى لدرجة الحقد ، وقد ينتهز هذه الفرصة لينتقم منى ، فيجعل من ظهرى قطعة من اللحم الأحمر الغارقة فى الدم . . إنهم أبشع من الجزارين . . »

وعاد « فريد » إلى التجول فى زنزانته ، وقد سرى فى قلبه إشفاق على مصيره، فهتف فى أسف: « ما كان أغنانى عن هذه المتاعب والمشاكل ! ماذا كنت أنتظر منهم ؟ سب وشتم ومخالفات ثم يتركوننى ؟ ؟ هذا غير معقول . . كم كنت مجنوناً ! ! ! آه . . ماذا يقول أبى لو علم ذلك . . ؟ لقد انتهت أيام التدليل وبدأت أيام الضنى والشقاء . . أليس « عبد المجيد » رحمه الله أهنأ نفساً ، وأطيب مستقراً منى الآن . . ؟ ؟ . . كم أحس بالندم . . والندم قد يمسك فى يده سياطاً من جحيم ، وقد يكون هيناً رقيقاً ، لكنه معى الآن من النوع الأول ، إنه شيطان مريد يلهبنى بسوطه القاسى . . »

وظل « فريد » هكذا حائراً قلقاً ، يكاد رأسه ينفجر من كثرة التفكير ، حتى وقف أخيراً وقال فى صرامة :

— على أية حال لن أعود لمثل هذا العبث مرة أخرى . .

وشعر بشىء من الراحة بعد أن اعترف بخطئه ، وأحس بالندم وهو مقدمة للتوبة وذريعة الغفران ، وازداد اطمئنانه بعد أن أخذ على نفسه العهد بعدم التورط فى مثل هذه الأمور ، لكن سؤالا حائرا مازال يجول فى ذهنه : « هل كنت أستحق كل هذا ؟ ؟ إنى أعترف بغلطتى ، لكن هذا كثير . . كثير جداً . . . »

الفصل الخامس والعشرون

فتح جاويش التأديب باب الزنزانة بعنف وغلظة ، إن جاويش التأديب دائما يتميز بصفات خاصة تؤهله ليشغل هذا المركز ، فلا بد أن يكون شرسا غليظا يتناسى الرحمة فى كثير من تصرفاته . وبعد أن فتح باب الزنزانة صاح :

ـ اخرج يا بطل .. سيجلدونك الآن . . . »

وسرت الرعدة فى جسم « فريد » ، وكسا الشحوب وجهه ، فوقف جامدا وكأنه مقيد بقيود لا ترى بالاضافة إلى القيود الحديدية التى تجره إلى الأرض . وصاح الجاويش مرة ثانية : « تحرك . . ألا تسمع ؟ »

ولما تباطأ « فريد » ، اقترب الرجل منه وجره فى عنف ، ودفعه أمامه خارج الزنزانة فمشى « فريد » فى اضطراب ووجل ، وحينما وصل إلى فناء السجن ، وجد الضابط واقفا وكذلك الطبيب وبعض السجانة والجلاد الذى يحمل « الجلدة » وهى مكونة من أربع شعب كل شعبة ذات عقد عدة . وفى الوسط وضعت « العروسة » وهى آلة خشبية أعدت اعدادا خاصا كى يربط فيها المذنب ربطا محكما لا يستطيع الإفلات منه حتى تتم عملية الجلد . وهو عاجز مقهور لا يستطيع أن يفعل شيئاً اللهم إلا الصراخ والتوسل إذا كان ضعيف العزيمة ، واهى القوى ، أو الصمت المطبق إذا كان رجلا راضعا من بز أمه كما يقول المذنبون دائما . وألقى « فريد » نظرة شاردة على الوجوه المتجهمة التى تركزت نظراتها فيه دون أن تحيد عنه ، واقترب الطبيب منه ، وأجرى عليه الكشف كالمعتاد وقال ببرود :

ـ صحته تتحمل الجلد ..

وما هي إلا لحظات ، حتى انتزعت سترته ولم يتركوا له غير السروال ، وهكذا أصبح نصفه الأعلى عاريا حتى يجلدوه على ظهره ، ثم جذبوه ناحية « العروسة » وأوثقوه إليها بالحبال ، وقبل أن ينتهوا من إحكام وثاقه التفت « فريد » إلى الضابط وقال :

ـ أنا آسف ..

فهمس الضابط فى اقتضاب :

ـ فات أوان الاعتذار .. لا جدوى من الأسف ..

لقد أبدى « فريد » تأسفه من قلبه ، كان مخلصا فيما يقول كل الاخلاص ، لكنهم ظنوه قد جبن وضعف فلم يجد مناصا من أن يتذلل لعلهم يرحمونه ليشفقوا عليه ، ولم يدر بذهنهم على الاطلاق أن « فريد » فى هذه اللحظة كان يقولها خالصة مبرأة لشعوره بالخطأ ، وهو على استعداد لتلقى العقاب القانونى الوارد بالمحضر ، فى استسلام وانصياع تام ، وأن توقيع العقاب قد يدفع المنكر إلى الاقرار بذنبه وقد تبين الخطأ الذى تورط فيه . أهي لحظة ضعف يقترب بصاحبه إلى فضيلة الانصاف ، فلا يزيف الحقائق ، أم هى شيء آخر ؟ ؟

وصاح الضابط بالعسكرى ،

ـ جرب الجلدة ..

وهمس « فريد » لنفسه قائلا : « إذن فنواياهم سيئة.. » إن هذه العبارة « جرب الجلدة » معناها التحرش بى ، والانتقام منى على صورة غير مرضية .. لقد كنت حسن النية عند ما توهمت أنهم سيجلدونني حسب ما تقتضيه اللائحة.. سيجرب الجاويش الجلدة ، ولست أدرى متى تنتهى التجربة ، ثم يبدأون فى عد الاثنتى عشرة جلدة .. »

وأفاق « فريد » من أفكاره على ما يشبه السكاكين تمزق فى ظهره ، فصدرت منه « آهة » دون إرادة منه . فقال الضابط ساخرا :

ـ ماذا ؟ ؟ ما زلنا نجرب ! ! ! إن الرجل لا يقول آه . . كن

شها حتى النهاية .. ألست من أنصار الجمهورية ؟ . .

وضغط « فريد » على أسنانه فى غيظ دون أن يجيب ، بينما أخذت الضربات تتوالى ، والآلام تزداد ، والجميع صامتون لا يسمع إلا صوت « الجلدة » بشعابها الأربع وهى تشق الهواء وترتطم بالجسد المربوط الذى يتلوى فى شجون وألم مكبوت .

وصاح « فريد » :

— ألا تعدون ؟ . . .

فلم يجبه أحد ، وواصل الجاويش ضرباته ، فصاح مرة أخرى :

— لقد جلدتمونى أكثر من عشرين جلدة .. حرام عليكم !

فصاح الضابط :

— « ابدأ فى العد يا عسكرى ..

— إنى أتظلم .. هذا يخالف اللائحة .. أنتم تقتلوننى بذلك .

— لتذهب إلى جهنم . .

— هذا حرام ..

— يجب أن تتعلم بعد ذلك كيف تعامل الضباط وتتفاهم معهم ..

— أهو انتقام ؟

— سمه ما شئت . . . الطاعة والنظام صفات المذنب ، والخارج عليها لا يلومن إلا نفسه .. ألأنك متعلم تعتقد أنك تخطىء بلا حسيب ولا رقيب ؟ ؟ كلكم هنا مسجونون لا غير . . افهم هذا ..

ولم يعد « فريد » يسمع أو يحس بشىء ، وبالتالى أطبق فمه ..

واقترب منه الطبيب وقال :

— إنه مغمى عليه .. يكفى ذلك . .

وما انفك وثاقه حتى ارتمى على الأرض دون حراك ، فسارع أحد « نوبتجية » الفناء الواسع فى الليمان وأحضر كمية كبيرة من الماء وصبها على رأسه وظهره الذى أخذ ينزف فأفاق « فريد » من إغمائه ، وقد

أحس بلذع البرد مختلطا بآلام الجلد ، ورفع عينيه إلى من حوله وعيناه مغرورقتان بالدموع ، فرأى الطبيب وهو يحول وجهه منصرفا بعيدا عنه ، والعساكر يقفون فى انتظار الأوامر ، والضابط وهو يقف فى جمود وعدم اكتراث . وصاح الضابط :

— خذوه إلى التأديب ..

* * *

وفى الصباح حدثت كارثة مروعة عند ما فتح جاويش التأديب الزنزانة .. فوجىء بمنظر « فريد » وهو يقف فى أحد أركان الزنزانة عاريا من كل شىء ، مكشوف السوأتين ، وجسمه كله يرتعد وينتفض من البرد ، وقد ارتسم فى عينيه الخوف والفزع : وقال الجاويش فى استغراب :

— ماذا دهاك . . ؟ ؟ لعنة الله عليك .. هل جننت ؟

وجال الجاويش ببصره هنا وهناك وفى أرجاء الزنزانة ، فوجد الأكل كما هو لم يمس ، ووجد المبولة وجردل الماء منكفئين وقد أريق على أرض الزنزانة كل ما فيها فاختلط البول بماء الشرب . والأعجب من ذلك أنه لحظ آثار قاذورات هنا وهناك

وعاد الرجل ليحملق فى وجه « فريد » فوجده ما زال يقف مذهولا والرعدة تسرى فى كل أنحاء جسمه ، فسارع الرجل بغلق الزنزانة من جديد ، لكن « فريد » صاح بأعلى صوته وكانت صيحته تختلط بالضحكات يتبعها شهقات وبكاء ، ولم يتحرك الرجل من أمام الزنزانة بعد أن أغلقها ، بل تسمر هناك يلتقط ما يقوله « فريد » ، كان « فريد » يقول :

— ها . . ها . . طظ يا عبد الرحمن أفندى . . طظ يا حضرة الضابط . . . أنا وكيل نيابة كبير جدا . . أنا القانونى الأول هنا . . « نهيرة » . . . « نهيرة » . . ردى على . . . كلمينى ..

وأخذ ينغم هذا المطلع من الأغنية المعروفة .

— سأتزوجها .. سواء أماتت ريحانة أم لم تمت — يسقط عبد الرحمن

أفندى عدو الشعب .. يسقط الملك ها .. ها .. ها

وقال الجاويش وهو يزداد التصاقا بباب الزنزانة ويرهف سمعه أكثر من ذى قبل ..

– يا خبر اسود .. الولد جن ..

وعاد « فريد » إلى هذيانه ..

– القانون ينص ياربع ياخمس .. على أن عبد الرحمن أفندى نذل وابن نذل .. وأن « نهيرة » مسكينة وهى تحبنى ، وإن الجرائم تنقسم إلى قسمين : جرائم ضد الأفراد وجرائم ضد الدولة . آه ، يا بلد لا تفهم فى القانون .. يسقط الشيخ « بسنطويسى » ومن ولاه .. يا مجاور .. عمتك دابت ..من السلطة والفول النابت .. سأذبح « عبد الرحمن أفندى » لأنه ثقيل الدم

ثقيل الدم قال تعـــال صفنى فقلت العفو يا جبـــل الجيوشى

فقلت العفو .. فقلت العفو .. هاى .. العفو الشامل .

وأخذ « فريد » يلحن البيت السابق على طريقة التواشيح ويترنم به كمل فعل فى مقطع الأغنية السابقة ،وأخذ يقلد بعد ذلك أصوات الحيوانات.. هاء .. هاء .. هع .. ع .. ع .. ووجد جاويش الدور فى نفسه رغبة جارفة ليفتح الباب مرة ثانية لسبب غير مفهوم . وحينما وقعت عيناه على « فريد » صاح هذا الأخير :

– « أنا أريد رأس عجل ... طول عمرى أحب « الكوارع » .. تعالى سأقطع رأسك وأطبخها .. إنها لذيذة ، ألست عجلا .. لكن أين القرون ... أتعرف الإسكندر ذو القرنين ... ؟ ؟

ووثب «فريد» ناحية الجاويش ، لكن هذا سارع وأغلق الباب ، وهرول ليخبر الضابط ، وفى طريقه إلى هناك كانت تقبل إلى سمعه قهقهة « فريد » وصيحاته المجنونة مختلطة بنشيجه .. وأحس الجاويش بموجة عطف تجتاحه وتهز كيانه ، فشعر لأول مرة منذ رأى « فريد » بحزن مطبق وأسف

عميق ، ولم يستطع أن يمنع دمعتين من أن تنهمرا على خديه . .
لم تمنعه قسوته من أن يتألم . انه يعتقد أن تنفيذ أوامر الرؤساء واجب مفروض ولو كان فيه غلظة وحيف .
كما أنه يؤمن أن السجان الذى يريد أن يحافظ على مكانته ويحظى باحترام المسجونين والرؤساء أيضا ، لا بد أن يكون جاف المعاملة ، لا يرحم أو يتهاون وإلا أكله المذنبون وأذاقوه الأهوال ، إلا أنه فى لحظات كتلك اللحظة كان جاويش التأديب يرق ويثوب إلى إنسانيته فيدرك حقيقة المأساة التى تقع تحت بصره فيتألم ويحزن .
ولهذا قال فى أسف :
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . . . إنا لله وإنا إليه راجعون . .
ضاع الولد فى شربة ميه .. يا ويل أبيه وأمه . . »
وصحا الجاويش من أفكاره على صوت الضابط :
ـ إلى أين يا عسكرى ؟ ؟
ـ جئت لسيادتك يا سعادة البك ..
ـ لماذا ؟
ـ فريد الحلوانى ..
ـ هل جد جديد ؟ ؟
ـ يبدو أنه فقد عقله يا بك .. إنه يهذى ويصيح ويقف فى الزنزانة عاريا من كل شىء . و . . .
ـ قدمه ! ! قل له إلعب غيرها
ـ إنه لا يتصنع الجنون . بل إن حالته خطرة جدا .
ـ أتعتقد ذلك . . . ؟ ؟
ـ بكل تأكيد . . تستطيع أن تراه بنفسك . . إن الجنون واضح فى عينيه وحركاته وكلامه .. إنه مجنون لا شك فى ذلك . .
ـ إذن خذه للطبيب ليتصرف كيف يشاء . .

وهم الجاويش بالتوجه إلى مقر عمله ، لكن الضابط استوقفه من جديد وقال له :

— اذهب أولا إلى « فرحات السروجى » ، وقل له كلم حضرة الضابط . وبلغ المشرف على التشغيل فى الجبل أن يعفيه من الخروج اليوم ، بسرعة .. هات « فرحات » حالا . . .

وضرب الجاويش كعب حذائه الأيسر فى الأيمن وأدى التحية واتجه ناحية العنبر لاحضار « فرحات » .

* * *

حينما أقبل « فرحات السروجى » تداول مع ضابط العنبر الذى روى له كل ما حدث بالتفصيل . وأطرق « فرحات » برأسه أسفا وقال الضابط :

— لم أكن أتصور أن يحدث هذا بسبب الجلد ..

ونظر « فرحات » إلى الضابط فى حنق مكتوم .. كان يرى فيها عدوا جشعا ، ومجرما لا يقل إجراما عن مئات المسجونين فى الليمان ، فبأى منطق كان يجرب الجلدة بالأمس ، وما الذى يجعله يتشفى ويحقد لهذا الحد رغم أنه لم يكن هناك عداوة شخصية بينه وبين « فريد » ، اللهم إلا ذلك الصدام البسيط الذى لم يكن يستأهل كل هذا الانتقام ؟

كانت الأفكار تتوارد مسرعة على ذهن « فرحات » . بالأمس ذهب « عبد المجيد » شهيدا ولفظ أنفاسه بين أربعة جدران .. لم يحن عليه أب أو تودعه أم ، أو يداوه طبيب .. واليوم ها هو « فريد » الشهيد الثانى ، وهو شهيد من نوع آخر بل إن مأساته أعمق وكارثته أشد .

أترى يحس ذلك الضابط العنيد بما يقاسيه « فريد » أو « فرحات » أو باقى الأصدقاء ؟ لا شك أنه سوف يمضى بعد ساعات إلى بيته ويسهر مع ذويه وينكت مع أصدقائه ، ويأكل ويشرب وينام ملء جفنيه دون أن يفكر فى ذلك العارى المجنون الذى يصرخ فى زنزانته السوداء . .

وفوجىء « فرحات » وهو فى وقفته تلك بضابط السجن يقول له :

— « لماذا تقف ساكتا » ؟ ؟

فأجاب « فرحات » والدموع توشك أن تنهمر من عينيه :

— لا شيء ..

قال الضابط :

— لم أكن أتصور أن يحدث هذا بسبب الجلد ..

وهم « فرحات » أن يقول شيئاً لكنه سكت على الرغم منه ، إنه مجرد سجن لا يصح أن يعاتب أو يثور فى وجه الضابط .

ولهذا قال فى أسف :

— ليس الجلد وحده على أية حال ..

— ماذا تعنى ؟ ؟

— أعنى أن « فريد الحلوانى » تعس الحظ ، وقد اجتمعت عدة عوامل عليه هى السبب فيما حدث له .·.

ثم توجه الاثنان إلى الزنزانة الموضوع فيها « فريد » ، وحينما فتحت وجدا « فريد » كما هو فى ركن الحجرة يرتجف ، ولما رأى « فرحات » أسرع نحوه . ففتح له « فرحات » ذراعيه وتلقاه على صدره فى حنان بالغ ، وشعر « فريد » بالاطمئنان بين ذراعيه ، وأشرق وجهه بالسعادة والابتسام ، رغم قطرات الدمع التى انحدرت من عينيه وكأنه لا يحس بها .

قال « فريد » فى نبرة آسفة :

— أتتركوننى وحدى ؟ . . أنا لست خائنا كما يزعم « بسطويسى » . . لأنى أحبكم . . وأحب « نهيرة » أيضا . . لقد زارتنى هنا الليلة ..

فرد « فرحات » وهو يكبت عواطفه :

— أتزورك « نهيرة » وأنت عار هكذا . . ؟ ؟

— وماذا فى ذلك ؟ ؟

— هذا المنظر لا يسرها أبدا . . هيا البس ملابسك . .

— « أمرك.. سألبس.. لكن لا تتركنى وحدى ..

فقال الضابط متدخلا بعد أن تأثر بمنظره البائس :
— أتحب أن تذهب مع « فرحات » . . ؟ ؟
— نعم . . لكن مالك أنت ومالنا؟ . . ألم تضربني ؟ . . غدا أكون وكيل نيابة كبيرا جدا . وسآمر بالقبض عليك وأعلقك فى السقف وأدهن جسمك بالعسل حتى تأكلك الفيران ..
— أهكذا دفعة واحدة . . ؟ ؟
— طبعا .. ولكن ، ألك أولاد ؟ ؟
— أجل ، فما رأيك ؟ ؟
— إذن أنت مسكين .. سأتركك لأولادك وأعفو عنك .. غير أنى لن أعفو عن « عبد الرحمن أفندى » ، ولا عن الملك أبدا . . أبدا . .
وهمس الضابط « لفرحات » :
— من عبد الرحمن أفندى هذا . . ؟
— هو الذى تزوج « نهيرة » التى أحبها فريد ..
— « اليوم حرام فيه العلم . . . يسقط رأس الأفعى . . شعب واحد . . نيل واحد . . صف واحد ضد الظلم . . ضد « عبد الرحمن أفندى » . . « نهيرة » لا تتجزأ . . ها . . ها . . ها .
وربت « فرحات » على كتفه وقال متوسلا :
— خذ البس السترة والسروال ..
لكن « فريد » غافلهم ودلف خارج باب الزنزانة ناحية صالة العنبر — عنبر التأديب — وأخذ يجرى عاريا وهو يصرخ ويبكى ، لكنهم سارعوا بإمساكه ، وإلباسه السترة والسروال وأمسكوه بيقظة واهتمام ، وقال الضابط :
— أرانى مضطراً لوضعه فى الزنزانة المخصصة للمجانين . . إن جنونه من النوع الخطر كما يبدو لى ، فقد رأيت حالات مشابهة من قبل .

ـ أرجو يا حضرة الضابط أن تتركه معنـــا ليلتين أو ثلاثا لعلنا نستطيع أن نعيد اليه رشده ..

ـ « هذه مسئولية لا أستطيع تحملها ، انهم حتما سيرحلونه إلى مستشفى الأمراض العقلية . .

ـ قد تكون حالة نفسية شديدة ، وفى هذه الحالة ربما يؤدى إلى التحسن طيب المعاملة وبذل العطف وتهيئة الجو المناسب ، وإعادة الثقة إلى نفسه »

ـ سنحيله على الطبيب فهو صاحب التصرف ..

ـ سيأمر بوضعه فى الزنزانة المخصصة لذلك ، وهذا ما لا نريده بادىء ذى بدء ..

ولم يترك « فرحات » الضابط إلا بعد أن حقق له ما أراد ، فأخذه فريداً وذهب به إلى الزنزانة حيث كان فى انتظارهم بسطويسى وبعض الزملاء ، أما الآخرون فقد خرجوا كالمعتاد إلى الجبل ..

* * *

وكانت الليلة الأولى التى قضاها « فريد » مع اخوانه ليلة رهيبة حقا ، فلم يغمض لهم جفن ، ولم يستطيعوا أن يحظوا بدقائق قليلة من النوم ليريحوا أجسادهم من أثر الإنهاك ، فقد ظل « فريد » يهذى ويصرخ طول الليل ، ويهتف هتافات عدائية ضد الملك و « عبد الرحمن أفندى » وضد « بسطويسى » هو الآخر . حتى أزعج كل نزلاء العنبر وخفر الليل ، وأصر « فريد » على مواصلة الصيام ، حتى كمية اللبن التى استطاعوا الحصول عليها من أجله أخذها « فريد » ، زاعما أنه سيشربها ، ولم يلبث أن اغترفها بيده وأخذ يبلل بها وجهه وذراعيه مدعياً أنه يتوضأ ، بل أخذ كمية من مزيج الحديد والزرنيخ المصروفة له ، وأخذ يكسر فيها لقيمات العيش حتى يعمل فتة ، على حد تعبيره ، والأدهى من ذلك أنه عثر على مسمار فابتلعه فى الحال زاعما أن ذلك سيجعل صحته حديداً ،

ولما غضب « فرحات » وثار فى وجهه قال « فريد » ببساطة :
— لا تحزن ، سوف أبتلع قطعة من الخشب .
— حتى تزيد الطين بلة »
— أبداً ، ان قطعة الخشب إذا ما وصلت معدتى سيدق المسمار فيها .. ثم ينزل الاثنان معا عند التبرز ..

وجلس « فرحات السروجى » ليفكر فى صمت .

كان رغم صمته وسكونه ينطوى على بركان صاخب فى قلبه وعقله . . .

ترى هل جنى على « فريد » ، وهل جنى من قبل على « عبد المجيد » ؟
إن ضميره يؤنبه ويؤلمه ، ويحيل حياته إلى شقاء مقيم . .
لا . . لا . . إن « فريد » ضحية من ضحايا الطغيان والظلم
إن الحياة الرتيبة التى يحياها فى الليمان والمذلة التى يلقاها قد أثرت فى نفسه تأثيراً عميقاً ..

وحبه الفاشل لنهيرة وتخليها عنه ، ترك هو الآخرين فى نفسه جراحا غائرة تنزى حسرة وألماً . .

وآماله الضائعة فى المستقبل والنجاح والمتعة والحب قد ذهبت أدراج الرياح وخيبت رجاءه . .

واتهام « بسطويسى » له بالخيانة والغدر والحماقة لا شك أنها هى الأخرى لا يمكن إغفالها . .

فضلا عن أن المسكين شاب رقيق حساس عاطفى .

وفى اليوم التالى حجزوا « فريد » فى الزنزانة المخصصة للمجانين ، وبقى على هذه الحال ما يقرب من أسبوع دون نوم أو أكل حتى نقص وزنه ما يقرب من عشرين كيلو جراما فبرزت وجنتاه ، وغارت عيناه ، وازداد شحوبا وضعفاً ، ولم يعد يستطيع الحراك إلا بعد أن يبذل مجهوداً

شاقاً . دخل عليه أحد « التومرجية » وقدم له رغيفاً وقطعة من الجبن ، فقال له « فريد » :

— ما هذا ؟ ؟

— غذاؤك ..

— إن كان من عنـــد الله فسأخذه منك ، وإن كان من الشيطان فسأسحقه برجلى .. »

— أى شيطان يا « فريد » ؟ ؟ إنها وجبتك .. خـــذ وكفى وجع دماغ .

— إذن فهو من الشيطان ، وأنت الذى أحضرته من الشيطان .. اذهب عليك اللعنة أيها الشيطان ...

وأمسك بالرغيف وطوح به بعيداً ...

وبعد انتهاء الأسبوع أخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية ، ووقف اخوانه يرمقونه وهو يبتعد رويداً رويداً وعيونهم دامعة ، وقلوبهم تتفطر حزنا ، وأخذ « بسطويسى » يهمهم بأبيات من الشعر الحزين .

الفصل السادس والعشرون

وأشرق على مصر عام ١٩٥٢ ...

تطورات سريعة متلاحقة ، وأحداث ضخمة تتوالى ، وكل يوم جديد يحمل فى طياته أشياء كثيرة ، ويتمخض عن أنباء مذهلة ، وضجيج هنا وهناك .

و« نهيرة » تبدو شاحبة مكتئبة ، تلوح فى عينيها الجميلتين سمات حزن قديم ، وأشواق محرومة ، وقد اصبحت على كتفها طفلة بنت ثلاثة شهور ، وإلى جوارها يحبو طفل فى عامه الثانى ...

ما أسرع ما تمر الأيام ! ! ها قد أصبحت « نهيرة » أماً ، وأصبح « عبد الرحمن أفندى » أبا لطفلين ، ومع ذلك فلم يستطع مرور الزمن ، أو انجاب الطفلين ، أن ينسى « نهيرة » « فريداً » وأيامه التى مضت كالحلم ، وذكرياته الحلوة ، لم تتنكر لذكراه ، أو تطو صفحات حبه ، فبقيت كعهدها تحمل له فى قلبها أسمى عاطفة ، وتكن له أنبل المشاعر.. لم تكن تفكر أنها تأثم فى حق زوجها ، أو تعتقد أنها تخون حقه المقدس ، لأن حبها شىء مفروض عليها ، سار فى دمها ، وقدر مكتوب لاحيلة لها فيه ، ثم من يستطيع أن يقنعها بأن فى الحب الخالص الصادق إثما أو خطيئة ؟ ؟

وماذا تعمل ؟ ؟ لقد أدركت بمرور الأيام أن قلبها ملك له ، ولقد حاولت مرارا أن توطن نفسها على الوضع الجديد ، وتقبل الأمر الواقع ، فتتناسى غرامها المشبوب ، وترغم نفسها إرغاماً على الوفاء « لعبد الرحمن » زوجها الشرعى . . أجل « عبد الرحمن » الذى أذله حبه ، ولوى زمام كبريائه ، وجعله يرحب بها كزوجة رغم أنها لم تكن عذراء ، ليس هذا

فحسب ، بل لم ير منها ذات يوم وجها طلقا ، أو بشاشة صادقة ، فتحمل غطرستها ونفورها ، وخاصة فى بداية حياتها الزوجية .. ولم يكن « عبد الرحمن » يتوقع سوى أنها ستكون امرأة طيبة وفية ، تقدر من سترها ، وحمى عرضها ، وغفر لها الصفعات القاسية التى وجهتها إلى صميم رجولته وكبريائه .. وكانت « نهرة » تتتبع أنباء « فريد » أولا بأول ، وتستقصى كل ما يحدث له ، والله وحده يعلم مدى ما ألم بها من شقاء ، ونزل بقلبها من أحزان ، عند ما نمى إلى سمعها أن « فريد » قد انتقل إلى مستشفى الأمراض العقلية .. كانت تعلم أنها سبب من أهم أسباب انهياره وتلفه ، فراودها شعور بالإثم ، فأخذت تتعذب تحت وطأة الاحساس بالجريمة ولم يزدها ذلك إلا إصراراً على حبها ، واستمساكا به ، لعل ذلك يكفر عما أقدمت عليه من خطأ ، ومن ثم أخذت تعبر عن ذلك بطريقة جعلت حياة « عبد الرحمن أفندى » هو الآخر شقاء فى شقاء ، ومع ذلك فقد كان يتحمل ثوراتها المتكررة ، ومنغصاتها التى لا تنتهى بصبره المعهود ، وصمته الذى يخفى وراءه الحنق والألم .. وأحيانا كثيرة ، كان « عبد الرحمن » يشعر بالضعة والهوان ، ويحس أن ما يحدث فوق طاقته كبشر .. لقد كان ينشد السعادة عن طريق زواجه منها ، وهو لا ينكر أنه قد سر كثيراً — وإن لم يظهر ذلك — عندما اختفى «فريد» من الميدان ، وتلقفه السجن ، ولم يكن يظن أبدا أن شبح ذلك السجين ، سوف يبسط رواقه على بيته ، ويظل كالسيف المسلط على هنائه وسعادته .. إذا كان الأمر كذلك فلن يستطيع السجن أو الجنون ولا حتى الموت — إذا انتزع « فريد » — أن يضع حدا لمأساة « عبد الرحمن » .. ولهذا حاول « عبد الرحمن » أن يتجاهل الأمر كلية ، كان يريد أن يهرب من ماضيه وحاضره ، من بيته وما فيه من مشاكل ، ثم يغرق نفسه وسط الدخان الأزرق فى الليالى الطويلة السوداء مع تعويره فى أى بقعة خارج البيت ..

ومن آن لآخر يحاول « عبد الرحمن » أن يتساءل عن سر أساه ، لماذا كتب الله عليه ذلك ؟ لكنه كان أضعف من أن يجلو ذلك الغموض ، ويكشف عن تلك الحيرة التى تملأ فراغ حياته . . وعاد « عبد الرحمن » ذات ليلة قبيل الفجر ، كان السهر يهد قواه ، وطول التفكير يصدع رأسه ، وتناول المكيفات والادمان عليها يطوح به ذات اليمين وذات اليسار . .

كانت « نهيرة » فى انتظاره على غير العادة ، منذ متى كانت تأبه لحضوره أو غيابه ؟ ؟ إنه لا يذكر أنها فعلت ذات يوم مثلما تفعل الزوجات وانتظرته حتى يعود ، والقلق اللذيذ ، والحيرة والغيرة الفاتنة لا تبدوان فى تصرفاتها . . لم تفعل ذلك أبدا ، ودهش « عبد الرحمن » ايما اندهاش عند ما رآها جالسة لم تنم ، ولم يتمالك نفسه أن هتف قائلا :

— أما زلت متيقظة ؟

— أجل . .

فقال ولذة غامضة تهز قلبه :

— آسف لأنى تسببت لك فى القلق والسهر . .

فنظرت إليه مغتاظة وقالت :

— أين كنت ؟

— كما تعلمين . . عند تعويره . .

— تعويره ؟ ؟ ألا تكف عن هذا العبث ؟ ؟

فأجابها وهو فى حيرة من أمرها :

— ماذا ؟ هل جد جديد ؟ ؟ إنك تعلمين أن تعويرة هو الصديق الوحيد الذى يفتح قلبه لى . . . إن يديه الجافيتين أحنى على من . . ماذا أقول يا « نهيرة » ؟؟ لماذا هذا التحقيق ؟ ؟ أحقيقة جد جديد ؟

فقالت وهى تصر على أسنانها :

— « لا جديد بالطبع . . إنى أراك وقد ازددت نحولا ، وحيويتك فى تدهور مستمر . .

فقال وقد بدت فى لهجته نغمة فرح طارئ :

— أشكرك يا عزيزتى على اهتمامك بى ، ولكنى . .

فقاطعته فى سخرية لم تخف عليه معناها :

— أريد أن أشعر أنى أعيش مع رجل . . مع رجل . . وأرى الأفيون والحشيش وغيرهما توشك أن تنفى عنك هذه الصفة . . إنى أكره ضعفك وذلتك . . وأمقت حتى تلك اللهجة الرقيقة التى تخاطبنى بها . .

وشعر « عبد الرحمن » بالعرق البارد يغمر جسده ، وبالخجل يسلمه إلى الارتباك والحزن . . أما « نهيرة » فقد كانت تريد أن تطعنه ، أن تمعن فى تعذيبه وإيلامه ، وكانت تشعر بلذة غريبة وهى تنال من رجولته ، وتسخر من تصرفاته وسلوكه الشخصى ، وكانت هى نفسها لا تدرى على وجه الدقة ماذا تريد أن تقول ، فقط كانت تريد أن تجلب له الشقاء . إن الاضطرابات النفسية ، والهزات العصبية العنيفة التى تعرض لها « عبد الرحمن » ، قد تركت بالفعل أثراً عميقاً فى روحه وجسده ؛ لم يعد يقبل على طعامه بشهية ، أو يذهب إلى عمله فى لهفة ، أو يدخل بيته والشوق يلهبه . . كلا . . بل إن المخدرات التى أصبحت زاده الرئيسى فى رحلة حياته المريرة الشاقة ، قد زادت الطين بلة ، ومن ثم لم يعد خافيا عليه أنه أصبح إنسانا آخر .. لقد عجز بالأمس أن يشبع روح زوجته بالحب والحنان ، وأصبح اليوم عاجزاً أيضاً عن أن يؤدى وظيفة الزوج السليم القوى ، و« نهيرة » هى الأخرى أدركت ذلك ، وها هى توجه إليه طعنات دامية فى صميم رجولته وكبريائه . . لكن ما الذى جعل « نهيرة » تصل بتفكيرها إلى مثل هذا الموضوع ؟ ؟

إن « عبد الرحمن » لم يألف هذا الاهتمام منها ، لأنها كانت تعيش معه حياة صورية بلا هدف . . بلا وعى .. كانت تلقى إليه بنفسها

فى بلادة وبرود ، وكأنها تؤدى عملا منوطا بها ، لا تحس ازاءه بأية عاطفة طيبة ، كانت تحيا حياتها مع « عبد الرحمن » حسبما اتفق ، لا تجهد نفسها فى البحث عن سعادة ، أو التنقيب عن متعة ، وقد آمنت بهذه الفلسفة من أول يوم ، لكن مجئ الطفلين جعلها تفكر فى أمرها من جديد ، فالأمومة وظيفة انسانية لها تكاليف وتضحيات ؟ ؟

فما الداعى إذن لأن تهتم « نهيرة » اليوم بحيوية « عبد الرحمن » ونسق حياته ؟ ؟ .

لم تطل حيرة « عبد الرحمن » ، فقد سمعها تسأله بعد فترة صمت سؤالا مفاجئاً لا صلة له البتة بما كانا يخوضان فيه من حديث :

— أصحيح أن رجال الجيش قد قرروا طرد الملك ؟ ؟

سؤال غريب . . .

إن « نهيرة » لا تتحدث عن السياسة كثيراً ، ولم تطرق بابها منذ أن حدثت المأساة التى فرقت بينها وبين « فريد » ، وها هى الآن تعود إلى الحديث عنها .. صحيح أن الثورة التى قام بها الجيش قد انطلقت أخبارها فى كل مكان ، وأصبح الناس ولا حديث لهم غيرها ، لكن نكبة « نهيرة » فى « فريد » ، وصراعها مع زوجها ، ومشاكلها العائلية ، كل ذلك كان من المفروض أن ينسيها السياسة أو على الأقل لا يجعلها تقحمها هذا الاقحام فى هذا الوقت بالذات . .

وهز « عبد الرحمن أفندى » رأسه . .

وأخذت تتضح أمامه حقيقة الموقف

لا بد وأن هناك صلة وثيقة بين سؤال « نهيرة » عن طرد الملك و « فريد الحلوانى » . .

أجل . . « فريد » الذى تسبب « لعبد الرحمن » فى النكد ، وأورثه الشعور بالضآلة سواء أكان فى شرشابه أو فى الليمان بل وفى مستشفى الأمراض العقلية أيضاً .

وهمس « عبد الرحمن » فى حقد مكبوت :

— أجل ، لقد طردوا الملك فعلا ، وهو الآن فى طريقه إلى إيطاليا ، وقد كونوا مجلسا للوصاية على العرش بعد أن نصبوا ابن فاروق ملكا بعد أبيه . »

وأخذ « عبد الرحمن » يلحظ بدقة ملامح « نهيرة » ، وتعبيرات وجهها ، وتألقات نظراتها ، وبدا له فى هذه اللحظة أنها تهيم فى واد آخر أبعد ما يكون عنه وعن بيته وطفليه .. شيء مؤسف ، ماذا يفعل إزاء عاطفتها التى تتجاهله ؟ لو كان الحب شيئاً يصنع أو يشترى لما توانى عن ذلك ، لكنها . . ها هى فى بيته ، وعلى بعد سنتيمترات منه ، بل وترقد إلى جواره ، وتعد له طعامه ، وتفعل الكثير ، لكنها بعيدة عنه بعد ما بين المشرق والمغرب ، ترى أية قوة تستطيع أن تحول هذا القلب الشارد ، قلب « نهيرة » ؟ ؟

وفاض به الغيظ والغضب ، فقال وقد احتقن وجهه :

— لكن لماذا تسألين بهذه اللهفة عن مصير الملك ؟ ؟

— عجبا . . لا شيء البتة ، إن الناس جميعا يتحدثون عن الثورة ..

وظلت نظراته متعلقة بوجهها الذى أخذ يشرق رويداً رويداً ، وينتعش فيه الأمل النائم ، وينفض عن نفسه غبار السنين ، آه لو يستطيع « عبد الرحمن » أن يطفىء هذه الإشراقات الآثمة التى تنبثق من محياها . لم يكن « عبد الرحمن » مقتنعاً بتبريراتها تمام الاقتناع . . ان سهرها هذه الليلة لم يكن من أجل سواد عيونه ، وقلقها من أجل صحته وتغيبه لم يكن لوجه الله ، وسخريتها من حيويته التى تتناقص يوماً عن يوم لم يكن إلا لأنها تذكرت « فريد الحلوانى » الشاب القوى الناجح ، صاحب الذكريات والماضى الجميل .

ولم يطل استرساله فى أفكاره ، لأن الفرحة الطاغية التى شملتها

جعلتها تفصح عما فى قلبها فى صراحة ساذجة تشبه إلى حد كبير سذاجة الأطفال ، فقد قالت :

— اذن سيفرجون عن المسجونين السياسيين ؟

فشملها بنظراته الثائرة ، وغمغم :

— أجل سيفرجون عنهم فيما أعتقد ، لكن لا تنسى أمراً هاماً . .

فقالت فى لهفة :

— « ماذا ؟ »

— « أعنى أن العفو الشامل لن يتناول المجانين ، فهؤلاء مكانهم الطبيعى هو مستشفى الأمراض العقلية ، لأنهم يسببون القلق والضيق لمجتمعهم ، حتى أن ذويهم يضيقون ذرعاً بهم .. شىء مؤسف ، أليس كذلك ؟ ؟

فزمجرت قائلة :

— أحسبك تعرض « بفريد » ؟ . . لا تنس أنه أشرف إنسان فى شرشابه . .

وصمت « عبد الرحمن » برهة ، وأخذ يقيسها بنظراته حائراً ، ثم هز رأسه وقال ساخراً :

— لم يبق إلا أن تقولى إنه نبى مرسل . . صاحب رسالة . . هه ؟ . . تكامى . . لقد بلغت مرتبة تحسدين عليها من الفجور والتفاهة . .

— أتسبنى . . ؟

— ماذا أقول لك ؟ ؟ إنك تؤلهين إنسانا منهارا ، لم يصمد لتجربته القاسية ، ولم يظهر طوال محنته بثوب بطولى كما فعل زملاؤه ، لقد كان وجوده بينهم نشازا . .

فنفرت منه قائلة :

— إللى على البر شاطر . . هه . . أحكامك كلها مبتورة . .

شوهاء . . مجحفة . . دعه ولا تذكر اسمه مرة أخرى ، ثم حذار أن تطيل لسانك على مرة أخرى . .

فاقترب منها مهتاجاً وهو يقول :

— لم أعد أستطيع الصبر . . أنت مأفونة ، ناكرة للجميل ، تبصقين على اليد التى تقدم إليك الإحسان . .

فصاحت فى وجهه :

— كف عن هذا الهراء . .

— كيف أسكت ؟ لقد فاضت الكأس ، لقد كانت حياتى كلها معك سلسلة من الشقاء والآلام ، وما أظنها فى المستقبل إلا كذلك . . آه . . لولا وجود هذين الطفلين لأنزلت الستار على هذه المأساة التى أحترق بنارها . .

— ماذا تعنى ؟

— كنا انفصلنا . .

— ليت هذا حدث . .

ولم يتمالك « عبد الرحمن » أن أهوى على وجهها بصفعة قوية . .

ووضعت « نهيرة » يدها مكان الصفعة ، ونظرت إليه فى جمود . .

كان « عبد الرحمن » يحبها رغم كل ما يحدث ، ولم يكن يطيق البعد عنها إلا لضرورة أو هرباً من ثوراتها الجامحة ، أو رغبة فى ملاقاة تعويره ، ليداوى فى مجلسه جراحه الخالدة ، وينسى أحزانه الدائمة .

ولم تكن « نهيرة » تعرف ، وكذلك « عبد الرحمن » ، أن حالة « فريد » فى أيامه الأخيرة قد بلغت حدا كبيرا من التحسن . . وانه انتقل بصفة نهائية من المستشفى إلى الليمان . .

الفصل السابع والعشرون

كان « فريد الحلوانى » فى الفترة السابقة — الواقعة بين ذهابه إلى مستشفى الأمراض العقلية وبين قيام الثورة عرضة للنوبات الحادة ، والأزمات النفسية العنيفة ، فكثيرا ما كان يصوم عن الكلام لأيام قد تطول ، أو يضرب عن الطعام حتى يعجز عن المشى ، وكان يتخلل هذه النوبات فترات من الهدوء والشفاء . لهذا كان « فريد » يعود إلى الليمان إذا ما تحسنت حالته ، ويرجع إلى المستشفى إذا ما أصيب بنكسة ، وفى المرة الأخيرة التى ترك فيها المستشفى وراءه قاصداً الليمان ، كتب الطبيب المختص تقريراً يقول فيه : « إن حالة المسجون « فريد الحلوانى » حالة نفسية ، وأنصح بعرضه على طبيب اخصائى فى الأمراض النفسية ، ورأيى الخاص الذى تدعمه معلوماتى أن هذه الحالات مستحيل شفاؤها داخل السجن ، أى أنه لا بد من الافراج عن المذكور ، وأقترح عرضه على لجنة من الأطباء للبت فى هذا الموضوع ، وإلى أن يتم ذلك أشير بمعاملة المسجون معاملة خاصة فيها كثير من اللطف والرقة ، والسماح له بساعات أكثر يقضيها فى فناء السجن بعيداً عن جو الزنزانة » .

وعند ما عقدت اللجنة الطبية لفحص حالته ، لم توافق آخر الأمر على الافراج عنه ، لاعتبارات شتى لم تتبين ماهيتها على وجه الدقة ، وهكذا بقى « فريد » فى السجن لا يثبت على حال ، تراه فى الصباح باسما مستبشراً ، لكنه فى المساء قلق حزين ، أو صائح هائج ، يذيق زملاءه مرارة الأرق والحزن والألم . . وكان واجبا عليهم أن يحتملوا أعباء مرضه ومنغصاته الكثيرة ، بصدر رحب ، ونفس راضية . .

أليس « فريد » هو رفيق الكفاح ، وزميل الأيام السوداء ، أيام السجن الرهيبة ، التى يزعم « بسطويسى » أنها مثل « قرون الحروب » ؟

وتغير الوضع تغيرا كاملا عند ما عصفت الثورة بالتاج وطغيان القصر . .

وشعر « فرحات » ورفاقه بأن أكداس الظلام التى رانت عليهم فى زنزاناتهم الضيقة قد أوشكت أن تنجاب كما انجابت عن قلب وطنهم ، ولم يتمالك « بسطويسى » نفسه من الفرحة ، فقد تعلق بقضبان إحدى النوافذ الحديدية وأخذ يهتف بأعلى صوته بسقوط الطغيان وأعداء الحرية والمستعمرين ، وزملاؤه يحاولون انزاله وتهدئته دون جدوى ، أما « فريد » فقد هزه الحدث الكبير ، فغشيته مسحة من الصمت ، ثم أصبح بعدها هادئا باسماً ، يناقش الأمور بروية ، ويعلق على الأحداث السياسية برزانة ووقار ، ويتخيل ذلك اليوم الجميل الذى يخرج فيه من خلال البوابة السوداء قاصدا تلك الآفاق الرحبة الفسيحة حيث الحرية والناس والحياة والحب والغد . . و « فرحات السروجى » هو الآخر جلس فى ركن من أركان الحجرة يفكر ويحكم ويتنبأ . . كانت لحظة حلوة رائعة لم يحظ بمثلها طول حياته ، كان سعيداً رغم أن القيود والسلاسل الحديدية لم تزل تشده إلى الأرض هو ورفاقه ، وكان ينظر فى دهشة بالغة إلى حراس السجن والمهيمنين عليه وقد أقبلوا عليه مهنئين بانتصار الحق ، ودحر الملك وحاشيته حتى لكأن « فرحات » هو الثائر الأول .. ما معنى ذلك ؟ أهكذا انهار البناء الكبير الشامخ الذى كانت تحوطه العيون ، وتسوره السيوف والرماح ؟ ؟ أهكذا بسرعة انفض السامر ، وانجلت الحقيقة ، ومات الزيف والخوف والغرور ؟ ؟

وقطع عليه تفكيره مجىء « بسطويسى » الذى قال :

ــ لقد تألفت لجنة قانونية ، للنظر فى القضايا السياسية ، وتقرير العفو عمن يستحق ..

— من قال ذلك ؟
— صحف اليوم ، إنه أمر طبيعى ..
ثم قال « بسطويسى » فى نبرة انفعال :
— انظروا أيها الأصدقاء كيف تدور عجلة الزمان ، وكيف تتقلب الأحداث ؟ ؟
فرد « فرحات » :
— يوم لك ويوم عليك يا شيخ « بسطويسى » . .
وظهر بالباب « فريد الحلوانى » وهو يقول :
— لقد أشرق فجر جديد يا إخوانى . .
فالتفت إليه « بسطويسى » وقال فى خبث :
— أجل .. فجر جديد . . بعد أن كانت أيامك معنا سوادا فى سواد . .
فقال « فريد » وقد ساده شىء من الوجوم :
— عدنا للعتاب والملام ثانية . .
— لا لا يا « فريد » . . اعمل معروفا . . حذار أن تصاب بنوبة وأكون أنا السبب
فتدخل « فرحات » فى لطف :
— لا تذكر مثل هذا الكلام على لسانك يا « بسطويسى » مرة أخرى . . كل إنسان منا معرض للمرض . .
أما « فريد » فقد قبض على ذراع « بسطويسى » فى انفعال وقال :
— « لا تعيدوا على سمعى ذكرى تلك الفترة الكئيبة ، لقد انتهت بظلامها وآلامها ، إنى أشعر بالخزى ازاءها . . كم يؤلمنى أن يشير الناس إلى ويقولوا إنه خريج مستشفى الأمراض العقلية . إنها سبة ستظل ملتصقة بى وبأولادى من بعدى . . أقسم لكم يا أصدقائى ، إننى كنت أقاوم مقاومة الأبطال ، لكنى كنت أنهار رغم إرادتى فأستسلم لدموعى وصراخى

وتشنجاتى ، التى كانت تبدو كشىء لا حيلة لى فيه ، وفى مرات عديدة كنت أفكر فى مصيرى ، وأفكر فيما سببه مرضى لأبى ولأمى من آلام فأكاد أقذف بنفسى من الدور الرابع حتى أتخلص من تلك الحياة الأليمة . .

وقاطعه « فرحات السروجى » بنبراته الحنونة :

– صدقت يا « فريد » ، لقد انتهت تلك الفترة – كما قلت – بظلامها وآلامها . . دعنا منها ، ولننظر إلى الأمام . . إن ميعاد قرار اللجنة القانونية للافراج عنا سوف يصدر بعد أيام قليلة على ما يبدو . . لندع الله أن يعجل لنا بالفرج .

فانطلق « البسطويسى » بصوت منغم يقلد فيه الشيخ محمد رفعت قائلا ووجهه إلى سقف الزنزانة ، وكفاه مبسوطتان :

– ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً . .

* * *

وحينما وقف الأصدقاء الثلاثة « فريد » و « فرحات » و « بسطويسى » وغيرهم خلف باب اللبمان الكبير بعد أن صدر أمر الافراج عنهم ، كانت جموع المسجونين غير السياسيين يشيعونهم بنظرات حزينة ، ومع ذلك فقد كانوا يلوحون لهم من بعيد بأيديهم العجفاء ، وهو ينثرون بعض العبارات التى تنفرط لها الدموع :

– مع السلامة يا رجاله

– ابقوا افتكرونا . .

– أيام مكتوبة . .

– خد بالك منا يا سى « فرحات »

– مصير الوجوه تتلاقى

– بس قول يا عمر

وجاشت عواطف « فرحات » ، لم يستطع أن يرد على هؤلاء

المسجونين الطيبين ، و « كساب » هو الآخر يقف بينهم والدموع فوق خديه ، « إنهم قتلة ولصوص وخطافون ، ولكنهم .. ماذا أقول ؟ ؟ إني أحبهم رغم ذلك »

وفجأة انهمرت الدموع من عيني « فرحات » ، فغمغم « فريد الحلواني » قائلا :

— أهي دموع الفرح يا فرحات ؟

— كلا ..

— انك تكذب ..

— آه يا « فريد » .. إنها أعز دموع أذرفها من أجل صديق عزيز ..

— من تقصد ؟ ؟ كساب ؟ ؟

فرد « فرحات » بصوت مبحوح :

— أهكذا نسيتموه ؟ ؟ إنه « عبد المجيد » .. ها نحن نعود ، أما هو .. فلن يعود أبداً ..

فتمتم « بسطويسى » وقد شحب وجهه :

— رحمه الله ، لقد راح شهيداً فى غمرة الظلام ..

أما « فريد » فهمس وقد تبللت عيناه :

— « كان دمه قبسا أضاء الطريق للأحرار .. »

ولم يستطع الأصدقاء الثلاثة أن يجففوا دموعهم ، فقد انفتح الباب الكبير المؤدى إلى العالم الواسع ، فوجدوا أنفسهم بين طوفان من الأهل والأصدقاء والزغاريد والعناق ، وعبارات التهنئة والترحيب الحار ، وأضواء آلات التصوير ..

وقبل أن يفترق الأصدقاء ، انحنى « فرحات السروجى » على أذن « فريد الحلوانى » وهمس :

— أعلم أن فى قلبك جرحا بسببها .. أعنى « نهيرة » ، وكنت أود ألا أفاتحك فى أمرها مرة أخرى ، لكن هذا الموضوع يقلقنى .. »

فأطرق « فريد » برهة ، ثم رفع رأسه قائلا :
– لقد أصبح لهـــا زوج وطفلان .. انتهى أمرها .. النساء كثيرات ..
– أتقولها من كل قلبك ؟
– ولم لا .. ؟ ؟
فأطال « فرحات » النظر إليه لبضع لحظات ، ثم قال :
– إنى أتركك وكلى ثقة بك واطمئنان عليك ..
– إنى أثق بالله وبنفسى وبمستقبلى .. والقلوب – كما يقول « بسطويسى » دائماً – بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء ..
وأخيراً انطلق كل واحد من الأصدقاء إلى داره .. ومع خطواتهم المبتعدة وعواطفهم الجياشة ، يحسون بشىء سحرى غامض يجذبهم ويجمعهم عند نقطة واحدة ، إنها ذكريات الأيام القاسية الرهيبة ، وقصة القيود العاتية التى أذابتها حرارة الاصرار والايمان ..

انتهت

القاهرة – ديسمبر ١٩٥٧ نجيب الكيلانى